

رفيع  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
الملكور وهيب طونس  
مدرس الأدب في جامعة حلب . وكيل كلية الآداب

# الموطن في الشعر العربي

رفيع  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي

١٩٧٥ - ١٩٧٦

الطبعة الأولى

رَفْعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

إلى مدين للسكر في اخراج اتاجي العلمي الى المكتبة العربية ،  
ولا يعني هذه التناحية الا أن أشكر معهد الدراسات الشرقية بلبنتراد  
التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية الذي أتاح لي فرصة تحضير أوراقه ،  
وجميع المنشورين ، والاختصاصيين ، والباحثين بقسم اللغة العربية في  
المعهد المذكور الذين قدموا لي العون ، وفتحوا لي جميع المجالات التي  
يمكن أن تساعدني ، وحيثما لي جو الصداقة الانساني والتوجيه العلمي  
المسؤول فكانوا - بما فهم المذكور أنس خالوف - خير ميسر  
وأفضل رديفاً .

أقدم بشكري الجزيل الى البروفيسور ف . إ . يلابف رئيس  
قسم اللغة العربية في جامعة لينغراد الحكومية ولجميع أعضاء القسم الذين  
استرشدت بملحظاتهم وتعليماتهم الإيجابية ، كما أشكر دكتوراه العلوم في  
علوم لغة ب . يا . شذفر ، ودكتوراه علوم لغة أ . أ . دوليتنا  
لتقييمها الموضوعي العلمي لعملي هذا .

شكري الخالص أقدم به الى وطني الذي هباً لي امكانية متابعة  
الدراسة ، آملاً أن أكون قد وفقت في خدمة تراث أممي العربية  
العريقة ، بنبينا جانب من جوانبه الا وهو « حب الوطن » .

رَفْعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

## « تقديم »

إن الظروف المعيشية التي نمر بها الأمة العربية ، وانكسار الاستبدادي المصنوعي على نهب خيراتها ومقدراتها ، كل هذا يدفع بنا نحن العرب - إلى الوقوف ، وبزجة وصدق ، حيال كل التحديدات التي تواجهنا ، جاهدنا للاستفادة من نتائج العلم الحديث ، آخذين العبرة والعظة من ماضي نضال أمتنا العريق ، لنعمل سوية ، وبوعي وصدق ، على بناء المجتمع العربي الجديد . مجتمع الوحدة والحرية والاشتراكية .

من أهم مقومات النضال في عصرنا تربية النشء العربي تربية قومية ثورية ، وغرس الروح الوطنية ، ومنذ الصغر في نفوس الناشئة . من هذه الزاوية بالذات كان اختيارنا لموضوعنا ( الوطن في الشعر العربي ) يرضي آمالنا في خدمة الأمة ، ساعين جبهة أن ندرس تطور هذا المفهوم منذ الجاهلية ونهاية القرن الثاني عشر ، آملين أن يكون بحثنا هذا أولى الخلفات في أبحاث لنا مقبلة ، نستمر في دراسة تطور مفهوم « الوطن » الوطنية ، حتى أبلغنا هذه ، راجين أن تساهم دراستنا هذه ، وبوأنه ، في كشف جانب من جوانب ثقافتنا ، ومضامين شعرنا العربي .

إن موضوع « حب الوطن » قد نال تجسيداً شعرياً في الانتاج

الفني الادبي لكافة الشعوب في كافة الأزمنة ، وبالرغم من أن هذا الموضوع قد وجد في الشعر العربي القديم ، وظهر بصور تعبيرية مختلفة متنوعة ، فانه لم يحط حتى الآن باهتمام الباحثين الخالص . من اسباب ذلك غزارة المادة العلمية ، وتوزعها وصوبة جمعها . أما الآن فسين ايدينا اسرار المرجع الأدبي الأول « المختارات الشعرية » للشاعر العربي السوري ، الذي عاش في القرن الثاني عشر ( لأسامة بن منقذ ) « كتاب المنازل والديار » . ان المخطوطة الفريدة الوحيدة لهذا الكتاب محفوظة في معهد الدراسات الشرقية في ليننغراد ، التابع للأكاديمية العلوم السوفياتية ، تحت رقم (C35) .

لقد وصف المستشرق السوفياتي الشهير الأكاديمك إي . كراتشكوفسكي هذه المخطوطة ، وكتب عنها مقالات قيمة ، وفي عام ١٩٦١ قلم المستشرق السوفياتي أنس بكيفيتش خالوف بتصويرها ، ونشرها مع مقدمة باللغة الروسية ، وفهرس للأعلام والقوافي والأمكنة وغيرها .

أما إصدار المخطوطة في كتاب مطبوع فقد ظهر فيما بعد في دمشق وبيروت والقاهرة .

لقد قلم أسامة بن منقذ في كتابه هذا بجمع مقتطفات من أشعار المعاصرين له والسابقين ، وكذلك أشعاره الخاصة ، حيث تردد فيها الحان فقدان الأقرباء والأهل ، الحنين إلى الوطن المهجور ، حزن أفراد مع الأحبة ، تذكر السعادة القديمة على أرض الوطن في مجتمع الأهل

رَفْعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

### المدخل

سورية وفلسطين منذ نهاية القرن الحادي عشر إلى نهاية الثاني  
عشر XI-XII .  
« مميزات العصر الاجتماعي والاقتصادية والسياسية والثقافية »

رَفْعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

لقد كان القرن الحادي عشر والثاني عشر بالنسبة لسورية وفلسطين فترة حروب غير منقطعة ، وهزات سياسية عنيفة ، ففي الستينيات من القرن الحادي عشر زحفت جيوش الدعاة الأتراك برئاسة السلاجقة السلاجقة إلى سورية وفلسطين الموزعتين بين سلطة الفاطميين ، والبيزنطيين ، والسلالات الصنيرة ، كالقيلبيين والورداسيين . لقد كان على السلاجقة أن يبروا بمرحلة نضال طويلة ، بصورة خاصة مع الفاطميين ، لأجل الاستيلاء على المدن الفنية في المنطقة . في عام ١٠٧٠م استولى السلاجقة على بيت المقدس<sup>(١)</sup> وبعد خمس سنوات على دمشق<sup>(٢)</sup> . ثم إن مجموعة أخرى من المناطق والمدن قد أصبحت تحت سيطرتهم وضمن مناطق نفوذهم . ومن أجل الحفاظ على هذه الممتلكات ، وتوطيد السيطرة عليها كانت على السلاجقة وعلى قوادهم العسكريين التحارب فيما بينهم ، بعضهم مع بعض ، ضد الحكم المجاورين . أما فاطميو مصر فقد سموا جاهدتين أيضاً لاسترجاع قواعدهم المفقودة ؛ وهكذا في عام ١٠٩٨ م تمكنوا من استرجاع بيت المقدس ، وذلك قبل استيلاء الصليبيين عليه عام ، وكذلك استرجعوا عدداً من المدن الساحلية الأخرى في سورية .

ونظراً لعدم تمكن السلاجقة من امتلاك نظام مركزي قوي في جمع الضرائب وتأمين حاجات الجيش ، فقد كانوا مضطرين أن يقيموا في سورية

- ١ - ابن الأثير . ج ١ ، ص ٤٧
- ٢ - ابن الأثير . ج ١ ، ص ٦٨

ذلك النظام الذي كانوا قد استخدموه في إيران ، والذي يعطى على إعطاء « البيكوات ، الأتراك ( وقواد الجيش الآخرين ) الحق في جمع الضرائب من مقاطعه ما ، تأمين حاجات الجيش ومتطلباته ، وهؤلاء بدورهم قاموا بتقسيم وتوزيع المقاطعة بين الأتباع ، فقاد هذا النظام من جهة أول إلى الاستغلال الظالم بدون رحمة لكان المقاطعة ، وإلى تقسيم وتجزئة المقاطعات المعطاة بشكل ( إقطاع ) ، ومن جهة أخرى فقد أضعف من تهيئة « البيكوات ، والأمراء للسلطان ، وكان سبباً في الحروب المستمرة على حدود الملكية .

أما في بعض المدن فقد استطاع بعض الإقطاعيين العرب أن يحتفظوا بسلطتهم ويولدوها معترفين بذلك الوقت بتبعيتهم للسلطين السلاجقة .

لقد أصبحت سورية مقسمة مبعثرة ، لم تعد فقط كل مدينة كبيرة أو صغيرة مع الأراضي الثابتة لها ملكية وراثية لأسيرو عربي أو تركي مستقل ، بل إن كثيراً من المناطق السكنية الصغيرة كانت مناطق نفوذ للإقطاعيين ، حيث سمي كل منهم بويييد ، لتأسيس سلالة عليه مستقله . ولقد كان بنو منقذ - أهل أسامة في عداد هؤلاء الإقطاعيين المنفذين السوريين الذين يملكون كتلة متوسطة ، وتأثيراً سياسياً كبيراً .

أما سلطة الخلفاء في هذا الوقت - حتى في مجال ممتلكاتهم الشخصية في العراق - فقد كانت محدودة بشكل واضح : الخليفة

[ لا يمتد كلامه إليه ولا يتجاوز جنبه ]<sup>(١)</sup> .

إضافة إلى الحكومات الإسلامية الكثيرة ، والسلالات الصغرى فقد زاحت بيزنطة على السيطرة والسلطة في سورية وفلسطين ، بيزنطة التي لم تقو بأي شكل من الأشكال على العسير لفقد ممتلكاتها ( أماكن سيطرتها ) في آسيا وشمال إفريقيا . وفي نهاية القرن الحادي عشر ظهرت قوة سياسية عسكرية جديدة ساهمت وشاركت في حوادث سورية وفلسطين المأسفة في ذلك الوقت ، إنها اتحاد فرسان أقطار غروب أوروبا ، ذلك الاتحاد الذي كانت من نتيجته الحملات الصليبية لأجل تحرير ( الأرض المقدسة ) و ( قبر السيد ) من ( عديمي التقوى ) المسلمين<sup>(٢)</sup> . على امتداد قرنين من الزمن تقريباً ( لقد امتدت الحروب الصليبية مع فترات سلمية منقطعة من ١٠٩٦ حتى ١٢٧٠ ) سمت مجموعات هائلة من سكان أوروبا الغربية بتحريرى وأوامر البابا إلى غزو الشرق .

لقد تركزت أسباب هذه الحملات الصليبية أول ما تركزت في التغيرات التي حدثت حتى نهاية القرن الحادي عشر في أوضاع الطبقات الاجتماعية في الغرب ، هذه التغيرات التي كانت نتيجة للازمات والتطورات الاقتصادية . إذ في القرن الحادي عشر قاد الفجسط والجوع إلى : « أن عدداً كبيراً من القرى بقيت بدون عمال في الأرض ( بدون فلاحين ) »<sup>(٣)</sup>.

- ١ - ابن دحية . التبراس . ص ٤٤ ؛ انظر أيضاً ابن جبير . الرحلة ص ٢٢٧ ؛ الظاهر ، أ . ج . أنشور . ص ٤٦ .
- ٢ - الكلمات بين قوسين من خطاب البابا أوربان الثاني .
- ٣ - زوروف ، م . أ . الحملات الصليبية . ص ١٤

الفلاح الأوربي المستتب به الذي يقاسي من الفقر والعوز ، والتابع بشكل أمضى إجباري للاقطاعي كان في ذلك الوقت مثلاً مهاباً يعيش تحت وطأة الظلام الفكري<sup>(٤)</sup> .

على امتداد عشرات السنوات التي سبقت بداية الحملات الصليبية إلى الشرق أخذ بعض متنفذي الكنيسة الكاثوليكية و أصحاب المركز العالمي الكبير للنظام الاقطاعي<sup>(٥)</sup> ، بتبوير حرقى ويمسون نض طرق حل المسألة الأساسية التي وضعت أمامهم : إبعاد صدمات الاقطاعيين الكبار والتجمعات الاقطاعية فيما بينهم ، ولهذا ليس من العجيب أن ترى فرسان البلدان الأوربية ، المجاهدين لاستئصال الشوب والأراضي الجديدة ، والطلقة المظلومة التي وعدت بحياة غنية هائلة في الشرق بعد احتلال الأراضي الخصبة الرائعة في سورية وفلسطين<sup>(٦)</sup> وتحرير الفلاحين الخليلين<sup>(٧)</sup> ، قد

- ١ - لينين ، ف . إ . مؤلفات مختارة . ج ١ ، III ، ص ١٨٥ .
- ٢ - ماركس ، ك . وانجلز ، ف . مؤلفات مختارة . ج II ، ص ٩٣ .
- ٣ - حسب كلام البابا أوربان الثاني : « فان الأرض في الشرق تقطر عسلاً ولبناً [خيرات] » مدينة بيت المقدس - إنها سيدة الدنيا ، الأرض [فيها] ، حرقاً ، جنة ثانية . انظر : بيلي . م . حياة صلاح الدين . ص ٥٢ ؛ وزوروف ، م . أ . الحملات الصليبية . ص ٥٢ - ٥٣ .
- ٤ - في الحقيقة ، إن مسيحي الشرق ، وبشكل خاص في فلسطين ، قد عاشوا في ظروف معاشية متساوية مع المسلمين ، على أقل تقدير ، في المملكات الدينية . انظر : Michoud, Histoire, vol. I, p. 41, والدهان من الناصر صلاح الدين.

ساروا كلهم نحو الشرق مجتمعين تحت راية الكنيسة .

أما في سورية في تلك الأثناء فقد كانت صراعات الأمراء مستمرة دون انقطاع تقريباً ، حيث لم تتوقف حتى بظهور الصليبيين . وانتقلت المدن والمناطق عدداً من المرات من يد إلى أخرى . كل حصار حربي كان ممتهناً نهب السكان وإقتارهم ودب الرؤس فيهم ، وبالنسبة لعامة الشعب البسيطة ، فلاحين كانوا أم مدنيين ، لم تكن أبنائهم الأسياد ذات معنى . أكلوا سلاجقه ، أم أزرأكا ، أم عرباً ، أم صليبيين . تبدل الأسياد الأقطاعيين ليس بذئى معنى بالنسبة لهم ، ذلك لأن هذا التبدل لم يجر وراءه أبسة تغييرات البتة في أوضاعهم المعقدة القاسية .

لهذا نال الصليبيون في الحملة الأولى نجاحاً باهراً ساعدهم في ذلك الانقسام والنشنت والتزاع الداخلي بين الأمراء ، الذين لا يملكون آمالاً ومطامح موحدة . إذ سعى كل أمير جاهداً - وسلاحه بيده - لتعطيل جاره ، ودافع فقط عن مطامحه ورغباته غير مهم بمسير الوطن .

ولذا حتى ١١٠٩ شكل الصليبيون في الشرق ولاية الرها ، وإمارة انطاكية ، وملكة بيت المقدس ، وولاية طرابلس .

إن نضال الشرق ضد الصليبيين زعمته سلاسلان ملكتا السلطنة الواحدة نلو الأخرى ؛ الزنكيون الذين كان أشهرهم عماد الدين نورالدين ، والأيوبيون الذين خرج من بينهم صلاح الدين الشهير . ولقد لعب هؤلاء السلاطين الثلاثة دوراً هاماً كبيراً في تأريخ الشرق في تلك الأثناء ، وشارك معهم إسماعيل بن منقذ ، بنشاط وجراًة في النضال ضد الصليبيين .

لقد غيرت الحالة السياسية في الشرق في بداية القرن الثاني عشر بعدم الاستقرار المدهش ، وبالسرعة الفائقة في تغيير والخطوة السياسية . فعلى أرض غير كبيرة - نسبياً - في اتصال وثيق مستمر ، سلماً وحرباً ، عاش أهل سورية ، والبناء الذين غادروا هضاب آسيا الوسطى منذ وقت قريب . المسيحيون والمسلمون كانوا في كلا المنسكين التجارين ، لكن الرغبات والمصالح الطبقية فوقت كلا المنسكين أكثر بما فرقاً المتفقد الديني .

في هذه الظروف كان من الضروري على الزنكيين ، مسترشي النضال ضد الصليبيين ، أن يؤسسوا وحدة فكرية في معسكرهم ، فالسجوقيون من قبل قد بدؤوا بانضباط الشيعة ، لكن النضال من أجل توحيد المعتقد ؛ توحيد المسلمين فكرياً ، لا يمكن إطلاقاً كسبه فقط بالقوة ( وبالتناسبه فإن نظام الملك - وزير السلاجقه ، وهو ساعر لرفع مكانة الثقافة السنية ، بنى المساجد والمدارس من أجل تعليم أبناء المسلمين القرآن والحديث وعلوم الثقافة العامة ) (١) . لقد سميت هذه المدارس « بالنظامية » . ولهذا قد بنى نور الدين ، ومن بعده صلاح الدين المدارس التي تنهج النهج السني ، وتدعم هذه الطائفة وثقافتها وفكرها . ولقد مميت هذه المدارس بـ « النورية » ، والصلاحية » . ولا بد من الإشارة إلى أن الإثر الأكبر والقيمة الطيبة في توسيع المعارف والثقافة في هذا الوقت يعودان إلى « دار الحكمة » في بغداد ، و « دار العلم » في القاهرة ، و « دار المعرفة » في طرابلس .

لقد ازداد الحب للكتب وجميعها حتى إن الخلفاء والسلاطين والأمراء قد بنوا في بيوتهم المكتبات التي كان لها أهمية ليست بالقليلة في تنمية مدارك ومعارف الأجيال اللاحقة ، مثلاً : مكتبة القصر الفاطمي في القاهرة ( بلغ تعداد كتبها كما يقال ، مليوني كتاب )<sup>(١)</sup> . و « مكتبة نظامية بغداد » و « مكتبة آمد » . ولقد ملك أسامه ابن منقذ أيضاً مكتبة خاصة ، تحتوي على ما يقارب ٤٠٠٠ / كتاب .

يرى فيليب حتي د أن جمع الكتب والاهتمام بها كان عند المسلمين التسليح الوحيدة لأن حياتهم لم تكن تألف المأفول السياسية ومسارح التمثيل المعروفة منذ القدم في بلاد اليونان وروما مما اقتضى أن تكون الكتب وحدها تقريباً السبيل إلى تحصيل المعرفة وهي التنفيس الذي يضمنونه آراءهم وكوامن أفكارهم<sup>(٢)</sup> .

في القرن الثاني عشر ، في الشرق الأدنى لم تصادم فقط قوتان سياسيتان ، بل وثقافتان أيضاً ، وبالمناسبة ففي أكثر العلاقات كانت الثقافة المحلية أقوى وأرفع ، وأثرت تأثيراً بليغاً على الصليبيين . طبعاً ، إن تقدم الفلسفة والفلك قديماً مالاقي اهتمام الفرسان الأوربيين ، لكنهم بشكل واضح لمساو تفوق مستوى الحياة في الشرق ، حتى إنهم في الجبل الثاني قد تقاربوا بظواهر الحياة مع الاصطاعين المسلمين .

١ - أبو شاهه - ١ ، ص ٣٠٠ . عن هذه الكتب كتب أسامه في كتاب المعصا . انظر :

Derenbourg H., Le Vie d'Ousama, p.563  
Hitty, ph., History of the Arabs, p. 563

- ٢

هذا كان بالضبط ذلك الوقت الذي بدأ فيه أسامة بن منقذ حياة نشيطة في الأمور السياسية . في مؤلفاته - كما سنرى فيما بعد - سنعثر على الكثير من المعلومات الثيرة التي تجدد وتصف العلاقة بين المسلمين والصليبيين ، وتلك الروح الصبورة نسبياً ، التي وجدت فيها بينهم بعض النظر عن الحرب المستمرة . عن هذه الروح الصبورة قد كتب مؤلف اسلامي آخر ، معاصر لأسامة وهو ( ابن جبير ٥٣٩-٦١٤/١١٤٤-١٢١٧ ) :

( د وكل من وقفه الله بهذه الحيات من الزباء للانفراد بلتهم، إن أحب، ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعس المال ، وينشال المنز عليه من أهل الضيعة ويلتزم الامامه أو التلم أو ما شاء ، ومضى ستم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فيلقى بها المريدن المنقطعين إلى الله ، عز وجل ، فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف إلى حيث شاء . و ومن العجب أن النصارى الجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ، ويقولون : هؤلاء من انقطع إلى الله عز وجل فنجب مشاركتهم ... وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض . و اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك . وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض . ولا نصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم من الأمنسة على غاية . وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين على مسلمهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب . وخرجنا نحن إلى بلاد الافرنج وسيهم بدخسل بلاد المسلمين ونأهبك عن هذا الاعتدال في السياسة . ورحلنا من

[تبيين] ، درها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعماير منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون . وهم مع الافرنسج على حالة ترفيه ... (١) .

وهذا فان العصر الذي عاش فيه أسامة إنما هو عصر الظلم الاقطاعي ، والاستغلال الوحشي للطبقة الكادحة ، عصر المنازعات الاقطاعية والحملات الصليبية . لقد لعب هذا كله دوراً ليس بالقليل في تكوين المجتمع الثقافي والسياسي والشعور الوطني والقومي ، ومفاهيم عدة كـ مفهوم «الوطن» ، «دحم» و «دم» ، «جيشنا» و «جيش اجني» و «ارضنا» و «ارض غريبة» ، «ودشرق» و «دغرب» . في هذه الظروف وفي هذا الجو والوسط نشأ أسامة وترعرع في هذا الواقع العاصف الذي أعطاه إمكانية التعرف على أنواع مختلفة من البشر ، وحدد آفته الواسع ، وفهمه وشجول نظراته التي لا تمتد على معطيات مسقة وأحكام ذاتية غير مستندة الى الواقع . بهذا الشمول وهذه النظرة الواقعية الصحيحة تميزت جميع مؤلفاته.

أدب هذا العصر - عصر الحروب الصليبية - لم يدرس بالشكل الكافي وبصورة خاصة في سورية ومصر لأن اهتمامات البعثة المعاصرين ، بما فهم العرب ، كانت موجبة بشكل رئيسي للعصرين الاموي والعباسي ، [ العصر الذهبي للادب العربي ] .

١ - ابن جبير ، الرحلة ، ص : ٢٣٧ ، ٢٨٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

ترقي  
عن (الشيخ الفقيه)  
(سكنه الله الفردوس)

المجلة الأدبية

حياة أسامة وآثاره الأدبية

٤٨٨ - ٥٨٤ / ١٠٩٥ - ١١٨٨

## الفصل الأول

حياة أسامة بن منقذ :

أسامة بن منقذ فارس وقائد حربي ، رجل سياسة وحكم ، شاعر وعالم عاش حياة طويلة مملوءة بالأحداث المثيرة ، وكان الشغل لألفية الاقطاعية الحاكمة في سورية . أثر في الوضع السياسي المتفرد للشرق الأدنى في القرن الثاني عشر ، هذا الوضع الذي حاولنا تحديد مميزاتة في الدخول .

عائد ، في حالات دراسة الحياة الخاصة للناس الذين عاشوا في عصور قديمة تواجه الباحث صعوبة عدم كفاية مادة الدراسة ، لكننا مع أسامة تقع على حالة جداً موفقة وسعيدة ، ذلك ان أسامة على مسدأ حياته كان قد شغل بالأنفيلت الأدبية ، وأخرج الوجود فكرتين موفقتين : جمع في مؤلف واحد « في ديوانه » تقريباً جميع أشعاره ، وكتب - من أجل إعطاء المظهر للاجئين - كتاباً من تجربته الحياتية الخاصة . لقد حفظ كلا الكتابين الى وقتنا الحالي وأصدرا ، كما أنه يمكننا المشور في

مؤلفاته الأخرى على نبد من حياته الخاصة ، إضافة إلى هذا فإن نشاطه السياسي والعسكري والحربي ، انعكس في السجلات التاريخية لذلك الوقت كما أن آثاره الأدبية لم تغفل من قبل الناقدين وواضعي المجموعات المختارات .

ولذا ، وبصورة أساسية ، بفضل هذه الأوضاع - ( شهرة شخصيته ، وغزارة المادة ) - كانت قد غدت سيرة حياة أسامة في أماننا مادة لمجموعة من الدراسات والأبحاث .

لقد كان المستشرق الفرنسي الكبير ( أواخر القرن التاسع عشر ) هرتفونغ درنيورغ الباحث الاساسي الاول لأسامة وآثاره الأدبية إذ قد طبع عدة أبحاث ومقالات ونبد عن حياته . والأعمال اللاحقة عن أسامة - ترجمات بعض مؤلفاته الى اللغات الأوروبية ، ومقالات ودراسات عنه قد اعتمدت كلها على أعمال درنيورغ . أما في الاتحاد السوفياتي فقد طبع المستشرق الكبير الاكاديميك كراتشكوفسكي إ . ي . أعمالاً قيمة جداً عن أسامة : مقدمة وخاتمة للترجمة الروسية ، لسيرة حياة أسامة والاعتبار ، ومقالة عن كتاب « المنزل والديار » وغيرها .

ولقد صدرت في البلاد العربية مجموعة من النبد والمقالات عن أسامة إذ كان أول عمل عن شيزر وآل منقذ مقالة ط . النصافي ، التي قرئت في المجمع العلمي العربي بدمشق وطبعت في عام ١٩٢٩ حيث اعتمد النصابي على مصادر العصور الوسطى العربية فقط . ويقيم من هذا أنه لم يكن معلماً على أعمال درنيورغ ( هذا ما يدل عليه فقدان الاقتباس والاستشهاد من مؤلفاته ) .

ثم إن ف . حتي - العالم ذا المنشأ العربي قد اشتغل مع مذكرات أسامة : ففي عام ١٩٢٩ ترجم كتاب « الاعتبار » إلى الإنكليزية ، وبعد عام ، في ١٩٣٠ ، وبالاعتدال على مخطوطة كتاب « الاعتبار » الموجودة في الأوسكرال في أسبانيا أصدر مجدداً النص العربي للمخطوط . لقد تعرض فليب حتي في المقدمة لعمله المطبوع هذين الحيات العامة لأسامة ، ولأهم الحوادث في حياته ( المقدمتان بالضمون متشابهتان ) . وبعد عدة سنوات بدى في الوطن العربي بإصدار مؤلفات أسامة .

كان أ . شاكراً أول من أصدر كتابه « لباب الآداب » في القاهرة عام ١٩٣٥ . وفي عام ١٩٤٦ ، وفي القاهرة ظهرت دراسة ل : م . أ . حسين عن حياة أسامة هذه الدراسة التي تحتوي على استشهادات من أعمال درنيورغ ، لكن بالمقارنة معها تعطي شيئاً جديداً قليلاً . فبا بعد ، عام ١٩٥٣ أيضاً في القاهرة أصدر أ . بدوي ح . عبدالحيد « ديوان أسامة » ، وبعد سبعة أعوام من هذا ، في ١٩٦٠ أصدر وكتاب الديق ، وفي المقدمة لهذه الإصدارات كان قد أعطي من قبل المؤلفين مختصر عن حياة أسامة . وإضافة إلى هذا فإن أ . بدوي في عام ١٩٥٤ في محله « الحياة الأدبية .. » و ج . م . بلشا في أطروحته للدكتوراه « أدب الدول المتتالية » كان قد خصص مقالين مختصرين لأعطاء المصنفات العامة لحياة أسامة كشاعر من شعراء القرن الثاني عشر . أما آخر الأعمال العلمية العربية عن أسامة فتعود إلى عام ١٩٦٨ . هذه الأعمال تعيد المعلومات العامة المعروفة عن سير حياة أسامة في الدراسات السابقة حتى أنها لا تورد حقائق جديدة عن حياته - وكمثال على هذه

الاعمال يمكن الاشارة إلى عمل أ. زكي في « سلسلة أعلام العرب »  
و م. حجازي في مقدمته لكتاب « النازل والدار » الذي قام بتحقيقه.  
إن معظم هذه الاعمال مرتبطة بإصدارات مؤلفات أسامة ولهذا فانه يشار  
إليها حكماً في نهاية هذا الفصل . ومن الطبيعي أنها جميعاً قد دخلت  
عندنا في فهرست التابع لهذا العمل .

إن الأهتمام الاساسي في دراستنا موجه إلى نشوء وتطور الشاعر  
الوطنية في الشعر العربي بالاعتدال على كتاب « النازل والدار » لأسامة  
بن منقذ ، وثبات مستوى مفهوم الوطن عنده ، كما أننا نهم بدراسة  
أسامة الممثل للشعر والنثر [ من خلال شعره ونثره ] في أواخر النصف  
الثاني من العصر العباسي .

سيرة حياة أسامة في عملنا ليست هدفاً وحيداً ، أو بحثاً مستقلاً  
لكن تجاوزها - في رأينا - غير ممكن ولا وارد . ولهذا سنحاول  
بشكل عام دراسة وتحليل حياة وأثر أسامة بحداثة معتمدين من  
أجل تحقيق هذا الهدف - لأول مرة بهذا الحجم - ديوانه ، وعدد من  
المصادر القديمة التي لم تستعمل بشكل كافٍ . وفي طريقنا ، وفي طريقنا  
وبعد تعرفنا على جميع الاعمال الادبية عن أسامة ، قد استلطنا ،  
وبشكل دقيق مجدد أن نجيب على عدد من الاسئلة التي بقيت طيلة الدة  
السابقة بدون جواب ، وإن نشير إلى عدد من اخطاء الدارسين في أحكامهم  
ونماذجهم ، وإلى العدد من المعلومات الخاطئة التي أوردوها ، وأن نكتشف  
حقائق جديدة عن حياة أسامة . كما حاولنا جاهدين في دراستنا أن  
نوضح علاقة أسامة بالوطن ، وتصوره عنه ، ومستوى مفهومه عنده .

#### أسامة ونسبه :

لقد سموا أب أسامة ، مرشد ، وجده ، علياً أما جده البعيد  
فمنقذاً ، ولهذا فقد دعوا أسامة غالباً : أسامة بن منقذ ، والتسهيل :  
ابن منقذ . وكل عشيرته : بني منقذ ، أو المنقذيين . أما تسميته الكاملة  
فهي أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ إلى انتهاء  
نسبه إلى كنانة [ الكنانة ] ، وفيما بعد إلى الجد الاساسي لجميع القبائل  
العربية الجنوبية - إلى قحطان ومنه إلى الأب الاول - آدم<sup>(١)</sup> . نسب  
آل منقذ وبني كنانة ( شجرة العائلة ) توجد في المصادر المختلفة مع  
اختلافات غير اساسية<sup>(٢)</sup> لا نرى ضرورة للتطرق لها في دراستنا .

أشهر كنية لأسامة - أبو المظفر (ابن هذا الاسم - على ما يبدو - لم يكن عنده)،  
هذه الكنية موجودة عند ياقوت وفي مصادر أخرى . ويوردون أيضاً - بالحرف<sup>(٣)</sup> ،

١ - عماد الدين الاسفهاني ، الجريدة ، طبعة دربورغ > XIX

ص ٢

٢ - انظر مثلاً ياقوت . معجم الادباء . > II ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛

ابن خلكان ، وفيات الاعيان . > III ص ٨٨ - ٨٩ ؛ ابن

الصاوي . تكملة . ص - ١٧٧ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ؛ الذهبي ، سير

أعلام النبلاء . ص ٩٠٢ . الداملي ، اعيان الشيعة > XI

ص ٧ - ٢٦ .

٣ - التميمي ، المدارس في تاريخ المدارس .

وأبنا الفوارس<sup>(١)</sup>، وأبنا أسامة<sup>(٢)</sup>، ومن ألقابه يذكر الذهبي وابن الأثير: « مؤيد الدولة » و« ياقوت » وجد الدولة وابن الجوزي<sup>(٣)</sup>: « مؤيد الدين » . ف . حتي في « تاريخ بيروت » وجد لقب لأسامة « عز الدين » ، والشمس يدعو « مجد الدين » أما ابن خلكان فيورد نسب أسامة - الكناني ، الكلي والشيزي ، ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الألقاب منفردة أو مجمعة يثر عليها في مصادر أخرى .

### - شيزر وبني منقذ -

لقد ظهر بنو منقذ على الساحة التاريخية ، وسما مجدهم في فترة وجودهم القصيرة ، حتى إنهم تمكنوا أن يؤسسوا سلالة حاكمة مستقلة لم تسم طويلا ، وذلك بسبب ( تراشيديا ) وقتلهم وفنائهم جميعا في الكارثة المؤلمة التي آلت بشيزر ودمرتها ولم تبق منها إلا آثارها وأطلالها ، التي لا تزال شاخنة تذكر عجدها النار . ولقد كانت فترة سيادة بني منقذ في شيزر أشهر مرحلة من مراحل حياتها وتاريخها ، ولا عجب بعد ذلك أن تقرر شيزر بني منقذ وأن يقرنوا م بها ، حيث كان لشيزر وبني منقذ الدور البارز في تاريخ البلد ومواطنيه في هذه الحقبة العسبية من حقبة صراع الغرب والشرق .

ويجنى ٦ يدعون شيزر من مدن سورية القديمة . إنها تذكر في النصوص الصرية القديمة باسم « سنزار » و « سنزارا » وسماها الاغريق « سنزارا » أما البيزنطيون « فيزار » . وبصادف اسم المدينة في مدينة « شيزر » في أثمار الشعراء العرب الجاهليين مشملا في أشعار امرئ القيس ، وعبيد الله بن قيس

- ١ - احمد محمد شاكر ، مصدر كتاب « ليل الآداب » ، وجد هذه الكنية على صفحة العنوان لكتاب أسامة « البديع في نقد الشعر » ، الذي سنتكلم عنه فيما بعد ، من الممكن انهم قد نسبوا له كنية أليه ( انظر فيما بعد ) .
- ٢ - هذه الكنية واردة عند ياقوت ، ربما خطأ ، حيث ليس من عادات العرب الآن إعادة الكنية باسم ذات الشخص .
- ٣ - مرآة الزمان ص ٢٤١ .

الرفيات<sup>(١)</sup>، أما المؤلفون اللاتينيون فقد خلطوا بين دشير و «دشيرة» وسماها مؤرخو الحملات الصليبية «نيزاريا» أو «قيسرية»، حيث من هذه التسمية الأخيرة تشتق التسمية العربية الثانية «قيسرية»<sup>(٢)</sup>.

١ - باقوت، معجم البلدان، ١١١٣ ص (ليرينغ) (١٩٦٨).  
قال امرؤ القيس :

تقطع أسباب اللبانه والهوى عشية جاورنا حماة وشيزرا  
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا  
فقلت له لا تيك عينك إنما تحاول ملكاً أو تموت فتعذرا  
وقال ابن قيس الرقيات :

قفوا وانظروا بي نحو قومي نظرة فلم يقف الحادي بنا وتمشعرا  
فوا حزنا إذ فارقونا وجاوروا سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا  
بلاد تعول الناس لم يولدوا بها وقد غنيت منها معاناً ومحضراً

٢ - درنبرغ وزكي أحمد ومصطفى حجازي يرون أن الآثار الباقية من حصن شيزر مشهورة تحت تسمية «سيجر»، لكن في عام ١٩٧١ زيارتي المدينة وبقايا الحصن تأكدت من أنها تسمى «دشيرة» وقد علوت الزيادة في عامي ١٩٧٣ ، ١٩٧٥ .

تعد شيزر بين الحصون المبنية على شفاف نهر (أورنت)، (الأرند) أي العاصي ذلك النهر الذي ينبع من جبال بعلبك في لبنان ويتابع مسيره شرقاً ثم شمالاً في الاراضي السورية ماراً بعلبك وحمص وحماه وشيزر والمضيق وأقلية<sup>(٣)</sup>. تقع شيزر إلى الشمال الغربي من حماة على بعد ٢٨ كم على تلة مطلة على الشاطئ الجنوبي الغربي لنهر العاصي حيث يسير النهر هنا من الشرق إلى الغرب. التلة الصخرية مع القلعة (الحصن) المحيطةتان بالنهر من ثلاث جهات يذكران بشبه جزيرة متصلة من الجهة الشمالية - حيث تقع الطريق المؤدية من حماة إلى أقالية - بجسر حجري مئين ومليد. الحصن على أعلى التلة بشبه «عرف الديك» وعند عدد من المؤرخين العرب هذا التشبيه استعمل مكان التسمية<sup>(٤)</sup>.

لقد كان حصن شيزر في تلك الاثناء صعب المنال. حسب قول أحد آل منقذ: «نظرت الى هذا الحصن فرأيت أنه ينسج ثلاثة آلاف رجل بالاهل والمالك ويمكن ان تحسكه خمس نسمو».

لقد تألفت شيزر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الحصن الخراس أو «القلعة» يتصل به «البلد» ومن مدينة «الجسر» على شفة النهر.

كان للقلعة ثلاث بوابات: شمالية، تقود إلى الجسر، وغربية كان

١ - مصطفى حجازي (ص ٣٢) خطأ عد أقالية والمضيق حصناً واحداً.  
٢ - محمد الدمشقي، النص العربي، ص (٢٠٥)، الترجمة الفرنسية، ص (٢٧٩).

استعملها أكثر وذلك لانها توجه الى المدينة ، وبوابة متصلة بالدلهيز تحت الارض التي يقود إلى النهر حيث توسعتها كان السكان يجلبون ماء الشرب ، وفي بعض الاحيان استعملت في الاوقات الحربية والصدام كما يخبر عن ذلك أسامة<sup>(١)</sup> .

الارض المجاورة لشيزر ، واتصلة بها ، خصبة ، صالحة للاعمال الزراعية ، ولعمل السكان ، وقد أعطت انتاجاً من الحبوب والفواكه آمن للمدينة حياة اقتصادية مستقلة ، وانتشر عليها عدد من المناطق السكنية والقرى ، من بينها : كفر بؤذا ، وينترقتسين في الشمال ، وممرزف في الجنوب .

لقد كان دور شيزر في القرون الثلاثة الاولى - على ما يبدو - قليل الأهمية لانها تذكر في المصادر العربية بشكل نادر جداً . أما في

١ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار دربورغ . ص ٦٨ - ٦٩ : الترجمة الروسية ص ١٦٦ : إصدار حتي ص ٩١ . قال أسامة : وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الأفرنج ، لعنهم الله ، زلوا علينا بالقلاوس والراجل ، وبيننا وبينهم الماصي وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا ولا تقدر نحن نحوز إليهم ، فزولوا على الجبل بغيرهم وزل منهم قوم إلى البساتين ، وهي من جانبهم فتجرد شباب من رجالة شيزر وخلصوا ثيابهم وأخذوا لسوقهم وسبحوا إلى أولئك النيام فقتلوا بعضهم ، وتكاثروا على أصحابنا فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا .. .

الرابع الهجري / المائتين الميلادي ، فقد كانت منطقة شيزر مسرحاً لهدامات المستمرة بين الحمدانيين والبيزنطيين ، وأيضاً الفاطميين ، وذلك بسبب أهمية موقعها الجغرافي الاستراتيجي ، إذ كانت شيزر مفتاحاً إلى قلب سورية ، وكان حكمها سجالاً بين العرب والبيزنطيين إلى أن استولى عليها الامبراطور فاسيلي الثاني في ٣٩٠ / ٩٩٩ ، بقيت تحت سلطة بيزنطة إلى عام ٤٧٤ / ١٠٨١ .

لقد استولى بنو منقذ على شيزر في عام ٤٧٤ / ١٠٨١ وأسسوا فيها إمارة مستقلة امتد نفوذها لعام ٥٥٢ / ١١٥٧ ، وتمكنوا من المحافظة على امتلاك المدينة بغض النظر عن أن جيرانهم الأقوياء : الحكام المسلمين ، والفرنجية كانوا يحاولون باستمرار الاستيلاء عليها وضربها إلى ملكيتهم . وقام بنو منقذ في مدة حكمهم بمجموعة من التحصينات الدفاعية حول شيزر . وهكذا - حتى قبل استيلائهم على المدينة - كانوا قد بنوا بوابة حصينة على الضفة الغربية للماصي مقابل جسر شيزر ، وسميت « بحصن شيزر » . والجسر بذاته دعى فيما بعد « جسر بني منقذ » رغم أنه - ربما - كان فقط مدعماً ومصلحاً في الأهم . كما أقيمت التددعات أيضاً من جهة المدينة وعلى موازاة الجسر ، ومن الخلف ، من جهة القلعة ، في الجنوب الغربي كان قد حفر خندق في الصخر للدفاع عن شسيزر . وعلى ما يبدو فإن « مدينة الجسر » كانت قد بنيت بشكل كامل في أيام بني منقذ<sup>(٢)</sup> .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دربورغ ، ص ١٠٩ ، إصدار حتي ، ص ١٢٩ : « ومن إقدام النساء أن جماعة من الأفرنج الحجاج حجروا وعادوا إلى رفنية وكانت ذاك الوقت لهم . وخرجوا منها يريدون أقمية . فهاولوا الليل وجاءوا إلى شيزر وهي إذ ذاك بغير سور » .

المصادر تضمنت ولائم شيشا من المعلومات عن البناء ضمن البلد والحسن ، لكن ماكس برشم - فقط - كتب عن الآثار الاسلامية ( الارخيتكتورا ) في شيزر<sup>(١)</sup> . ولذا يمكن الافتراض بان هذه الآثار عائدة الى أيام بني منقذ .

في عام ١١٥٧/٥٥٢ كانت شيزر قد تهدمت من الزلازل التي أصابت القسم الشمالي من سورية . ورغم ان نور الدين الزنكي حاول اعادة بنائها في نفس العام لكن المدينة لم تنهض ثانية . إذ إننا لا نجد الآن منها إلا خرابتها الباقية فقط . وفي عام ١٩٢٩ وجد طاهر النمساني نقوداً وكتابات عربية على أحد جدران القلعة<sup>(٢)</sup> ، ووصفها هكذا :

« كانت في عهد بني منقذ عامرة بقطانها ومحصولاتها الزراعية وفواكهها الطيبة ، يخرج منها خمسة آلاف مقاتل ، وفي اليوم لا يكاد يوجد فيها خسون مزارعاً ، موبوءة ، أمراضها فتاكه بغرب بها النمل لهوائها الفاسد فيقال : « أوحش من شيزر ، ، ويقال : « تقبل كذا ، وتقال كذا ، وتقول شيزر وخمة<sup>(٣)</sup> » .

أما في عام ١٩٧١ فقد بدت لنا شيزر هكذا : الحصن القديم ( القلعة ) حيث لا يمش هناك احد ( يمكن رؤية مشهد في الصورة رقم ١ ) ، في القسم السفلي الغربي من القلعة ، وعلى الطريق السائرة من حماه الى أطاميا تقع قرية حديثة متصلة بسهل فسيح أصبح من أخصب

١ - N. Eliasseeff , Nur ad — Din , P. 223 — 224 .

٢ - في عام ١٩٧١ لم أتمكن من العثور على هذه الكتابات .

٣ - النمساني ، أسامة ، ص ٧ .

المناطق الزراعية المنتجة في سورية ، وذلك بعد تخفيف مستنقع الشاب الذي كان يؤرث للأمراض والأوبئة ، وفي هذه القرية مدرسة ابتدائية يئتها الحديث .

بعد عام ١٩٥٨ طبق هناك الإصلاح الزراعي فأبقت الأراضي التابعة لآل الكيلاني ووزعت على الفلاحين . أما وراء القلعة ، وعلى بعد قليل ، على نهر الماصي ، فيقع سد محردة الذي يملك أهمية اقتصادية كبيرة ، حيث يروي معظم سهل الغاب المجفف .

★ ★ ★

## امتهرك آل منقذ شيزر

إن المصادر تعطينا روايتين عن امتلاك آل منقذ شيزر ، ولانظرة الأولى تبدون متناقضتين . الرواية الأولى لاسانها ابن الاثير ثم اعتمد عليه فيها مؤرخون آخرون (١) وتفيد ان القائد العربي صالح ابن مرداس (٢) الذين استولى على المنطقة بين حلب وعانة قام باقطاع شيزر إلى آل منقذ .

أما الرواية الثانية فترجع في الاصل إلى ابن خلكان الذي يحير بان شيزر كانت مأخوذة بالقوة في عام ١٠٨١ وذلك بفضل الرجال الجليليين الاقوياء من بني منقذ الذي حاصروها لمدة طويلة .

والواقع زى بان الروايتين متفقتان ، إذ ربما استلم آل منقذ إقطاعهم من ابن مرداس اسمياً ، أما بشكل فعلي فقد كان مع البيزنطيين ، أو منطقة مختلفاً عليها ، ولا بد من الحرب لامتلاكها .

١ - أبو شامة ، I ، ص ١١١

٢ - مؤسس السلالة المرداسية التي انتقلت في بداية القرن الحادي عشر من منطقة الحلة في العراق إلى حلب وشمال سورية ، وتمركزت هناك من ١٠٦٤/٤١٤ إلى ١٠٧٩/٤٧٢ .

عن المنقذي الاول الشهير تاريخياً - جد جد أسامة - مقلدين نهر ابن منقذ يكتب ابن خلكان ما يلي : « كان رجلاً نبيل القدر ، سائر الذكر ، رزق السعادة في بنيه وحفدته وكان ينزل في جماعة كبيرة من كمن أهل بيته مقيمين بالقرب من قلعة شيزر ، عند جسر بني منقذ المنسوب اليهم ، وكانوا يترددون إلى حماه وحلب وتلك النواحي ، ولهم بها الدور النفيسة والاملاك الثمينة . وذلك كله قبل ان يلكوا قلعة شيزر . وكان ملوك الشام يكرمونهم ويحولون أقدارهم ، وشعراء عصرهم يقصدونهم ، ويعيدونهم وكان فيهم جماعة اعيان رؤساء اجلاء (١) .

لقد كان مقلد زعيم بني منقذ عندما استلموا الاقطاع من المرداسي الحالي ، ذلك الاقطاع الذي لم تمكن مساحته محددة وحدوده معروفة - على ما يبدو - منذ البداية . وفي نهاية عام ١٠٤١ نجد ان مقلدا قد وسع سلطته حتى على كفر طاب ( القرية الجبلية ) الى الشمال من شيزر - وربما في عهده قد بني حصن الجبر - رغم ان خلفه أكد بأنه هو الذي بناء (٢) . ويصف أسامة جد جده هذا بأنه تمتع بنفوذ كبير في حلب ، وخدم عنده الطبيب الشهير ابن بطلان ورجف امامه خوفاً

١ - ابن خلكان ، وفیات الاعيان . II ، ص ١٧٣ - ١٧٦ ؛ و I ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤ .

٢ - انظر فيما بعد .

لقد ملك مقلد المنطقة الواقعة على طرفي الناصي من كفر طاب إلى شيزر ، لكنه لم يتمكن حتى نهاية حياته ( مات في عام ١٠٥٨/٤٥٠ ) من التمرکز في شيزر ذاتها . كما لم يتمكن من ذلك أيضاً ابنه ووريثه علي إلا في أواخر أيام حكمه وحياته . وكان مقلد هذا خلفاً قسرياً مسمى جاهد الاستقلال السياسي ، وتاور بعدهاء مع الرداسيين والفاطميين (٢)

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دنيورغ ، النص العربي ، ص ١٣٩ ؛ إصدار حتي ، ص ١٨٤ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٣٧٧ .

قال أسامة : « وكان ابن بطلان ملازماً لخدمة جدي الأكبر أبي التتوج مقلد بن نصر بن منقذ فظهر في جدي أبي الحسن علي بن مقلد بن منقذ - رحمه الله - ، وضع وهو صبي . فألقب ذلك أباه وأشفق عليه من البرص . فأحضر ابن بطلان وقال له : « ابصر ما قد ظهر في جسم علي ، فنظره وقال : « اريد خسارة دينار حتى أداويه وأذهب هذا عنه » فقال له جدي : « لو كنت داويت علياً ما كنت رضيت لك بخسارة دينار » . فلما رأى الغضب من جدي قال : « يا مولاي ! أنا خادمك وبيدك وفي فضلك . ما قلت ما قلته إلا على سبيل المزح وهذا الذي بعلي بهن الشباب وإذا أدرك زال عنه » .

٢ - لقب « خلع الدولة » تلقاه من الخليفة الفاطمي كتقدير لمواقفه إلى جانب الجيش الفاطمي في سورية .

في نضالهم لامتلاك سورية . فيه قال الشعراء شعراً . فابن خلصان ورد مرثية ابن أبي حصين التي ألقاها في موت خلع الدولة - مقلد . ثم لا بد من ذكر اسم الشاعر ابن سنان الخفاجي في عداد الشعراء الذين مدحوه ، كما أنه قال مرثية في موته وموت أخيه أبي الفيث منقذ بن نصر ( مات عام ١٠٤٧/٤٣٩ ) .

أما خلفه علي بن مقلد والذي لقب « سيد الملك » فقد أقبسع سياسة أبيه إلى أن تمكن في النهاية من امتلاك شيزر والسيطرة عليها . ولهذا يجب الاعتراف بأنه المؤسس الأساسي لامارة شيزر المستقلة ، ولحكم سلالة بني منقذ . هذا هو حديثه الشخصي عن حوادث عام ١٠٨١ كما أورده ابن خلصان :

« شيزر حماها الله تعالى وقد رزقني عز وجل » من الاستيلاء على هذا المقفل العظيم ما لم يأت مخلوق في هذا الزمان . نظرت إلى هذا الحصن فرأيت أنه يتسع لثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال ويسكه خمس نسوة ، فعمدت إلى تل بينه وبين حصن الروم ويعرف بالخراس وأخذته بالسيف من الروم ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت اليهم وأكرمتهم ولم أكلفهم إلى ما يجزون عنه وخلطت خنازيرهم ببنيهم ، ونواقيسهم بأصوات الآذان . فرأى أهل شيزر فعلي فأنسوا بي ووصل إلي قريب نصفهم فبالت في إكرامهم ووصل اليهم مسلم بن قريش فقتل من أهل شيزر ، نحو عشرين رجلاً فلما انصرف مسلم عنه سلخوا الحصن إلي » .

أما ابن الفلاني فيكرر إيراد هذا الحديث ذاته مع بعض اليبارات

المنيرة ويشير في النهاية كلام سيد الملك : « وحضرت فيه ومعي سبائة رجل من بني عمي ورجالي وأعطيهم مالا له قدره وقمت باعياهم ونواقيسهم وصلواتهم وخنازيرهم وسمع بذلك أهل برزة وعين قاب فجاءني رسالهم ورغب كلهم في الضم إلي »<sup>(١)</sup> .

هكذا الشكل ، في نشال مرير حاد مع البيزنطيين وقواد حلب العسكريين أخذ سيد الملك شيزر مستملا الحرب والسياسة ، وتصالح مع أهلها ، وحصل بفضل هداياه الرملة إلى حلب على اعتراف حكام حلب بإمارته في شيزر بعد أن فكوا حصارهم عنها في ٢٨ صفر ١٠٨٢/٥٧٥ . وانتقل طيلة فترة حكمه في نهاية ذلك العام بتنظيم أمور الإمارة التي ضمت وقتها أقاميا ، كفر طاب واللاذقية .

لقد كان سيد الملك داخية قلبا ، حاد الذكاء ، كما كان أيضا شاعرا حتى أن ابن خلكان قد أورد في كتابه أحسن تبيين شعريين له<sup>(٢)</sup> ، وكذلك فإنه يمكن العثور على سيرته حياته ومختارات من شعره في خريطة العصر<sup>(٣)</sup> .

١ - ابن القلايسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣ .

٢ - ابن خلكان ، ص ١ ، ص ٥٢٤ .

٣ - الخريطة ، ص ١ ، ص ٥٥٢ - ٥٥٧ .

أن اشاره الخاصة<sup>(١)</sup> وبعض المصادر<sup>(٢)</sup> تصنف سيد الملك بأنه شخص هادئ ، صبور ، مترو ، حازم ، ثابت ، وطيد عندما تتطلب الظروف ذلك ، ورجل سياسي ، ذكي ، لطيف ، مقدر للظروف عندما يجي ذلك<sup>(٣)</sup> . ويبلغ تلك المرتبة من الجِد والنزوة بفضل معرفته وذكائه الحلي ؛ وبهذا كان موصوفاً من قبل العديد من الشعراء ، كأبن الخطاط<sup>(٤)</sup> وابن الخفاجي<sup>(٥)</sup> .

١ - النازل . ص ٣٣٩ . قال جدي سيد الملك ذو الناقب :

ولست بمجيار العزبة إن جرت عليه رياح الخطب وهي زعازع  
يكر على الأوطان طرفاً موزعاً يلين لها طوراً وطوراً يمانع

٢ - انظر مثلاً ، ياقوت ، معجم الأدباء . ص II ، ص ١٨٧ ؛ وابن خلكان . ص I ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤ .

٣ - انظر رقم (٢) .

٤ - أبو عبد الله بن محمد بن علي بن يحيى الشمالي ، الشهور بابن الخطاط الممشقي الكاتب ، شاعر مشهور توفي في دمشق ، عام ٥١٧ هـ .

٥ - الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن يحيى الخفاجي ، الذي عينه محمود بن مرداس حاكماً على حصن اعزاز وسمه بقطعة خبز بسدون ذب (٤٦٦ هـ) لقصد تبادل الراسلات الشعرية مع علي بن متقد .

د لم يعرف أسامة جده علي بن مقلد في حياته ، لكنه شمره بأنه مرتبط معه برابط روحي داخلي . لقد كانت عند الخليل تماماً تلك الروح الحية المضطربة ، بأمل ، وتطلعات متنوعة ، ومحبة كبير للشعر والأدب<sup>(١)</sup> .

خلف سديد أنذاك في حكم شيركان ابنه عز الدولة أبو المرحف نصر ، الذي استطاع باخلاص وحب للسلام أن يحفظ استقلالها في حمأة الهزات العنيفة ، والاحداث المأسفة ، والزاعات الاضطالية التي اجتاحت سورية وقتها . وبسبب الأوضاع المصيبة التي وقعت بها سورية كان مضطراً أن يتنازل عن الاذقية وأقلية وكفر طاب د الى ملك شاه السليجوقي ، متناعاً بذلك سلاماً مؤقتاً . ونالم يكن عنده وريث من صلبه (ابن) ، كان لا بد من أن يخلفه أخوه بعد الدين أبو سلامة مرشد - أب أسامة ( ٤٦٠ - ٥٣١ / ١٠٦٨ - ١١٣٧ ) ، لكنه امتنع عن تسل السلطة ، وخلفها إلى أخيه الأصغر - د سلطان - قائلاً : د والله لا وليتها ، ولأخرج من الدنيا كما دخلتها<sup>(٢)</sup> .

لقد كان والد أسامة ، كما تروي ذلك المصادر ، (٣) تقياً ورعاً ،

١ - Derenbourg, H. Le vie de Ousama, p. 16. - ١

٢ - أبو شامة . د I ، ص ١١١

٣ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبرغ ، ص ١٣٩ وغيرها ، وياقوت معجم الأدياب ، د II ، ص ١٩٠ .

لم يرد أن يغير طريقة حياته وعاداته ، فابتعد عن تمت الرقاسة وأعيان الحكم . خير وصف لحياته قول أسامة : د فأما ما كان بشير [ من أخبار الصيد . و . ط ] فكان مع والده ، رحمه الله . وكان مشغولاً بالصيد لهجاً به ويحيي الجوارح ، وما يستكثر ما يفرمه عليه لفرسته . فانه كان زهده . فليس له شغل سوى الحرب وجهاد الأفرنج ونسخ كتاب الله عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه . وهو ، رحمه الله ، صائم الدهر مواعظ على تلاوة القرآن . فكان الصيد كما جاء في الخبر د روحوا القلوب تمي الذكر . فإ رأيت قط مثل صيده وتربيته<sup>(١)</sup> ويذكر السمعاني أنه رأى مصحفاً بخط والد أسامة كتبه جاء الذهب على الطاق الصوري<sup>(٢)</sup> ، ويقول عنه ما يلي : د مارأيت ولا أظن أن الرايين رأوا مثله ، قد جمع إلى فضائله حسن خطه ، وتقدم بحسن تديره على ردهله<sup>(٣)</sup> . فليس من العجب ، والحال هذه مع والد أسامة بصفاته وطبيعته ، أن ينتج عن الامارة ، ويسلها إلى أخيه الأصغر د سلطان . ويشير أسامة في مذكراته إلى شجاعة والده وصلاحه وهدوء أعصابه

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص الغربي ، ص ١٣٩ ؛ إصداراتي ، ص ١٩٢ ؛ الترجمة الروسية ص . ٢٨٤ .

٢ - بمعنى أنه محضر بصور .

٣ - نقل ياقوت عن السمعاني هذه العبارة في معجم الأدياب : د I ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، في تعريفه بوالد أسامة . [ طبعة دار النامون ، ١٩٣٦ ] . أو معجم الأدياب . د II ، ص ١٩٠ ( الطبعة الممتدة من قبلنا ) .

وصيره في المارك حيث يقول : « وكان الوالد رحمه الله كثير المبصرة للحرب وفي بدنه جراح هائلة . ومات على فراشه » (١) .

« وكانا [ رحمه والدة ، و . ط ] ، رحمه الله من أشجع قومها » (٢) .

لقد كان قوي الجسم ، عتيقاً ، يتحمل الألم تحمل الفارس المقاتل : « فظن ، رحمه الله ، في ذلك اليوم فارساً وأحرف حصانه وفي يده برعه وجذبه من الظمون . فحدثني قال : « حسست شيئاً قد لدغ يدي ، فظننته من حرارة الجوشن . إلا أن رمحي سقط من يدي ، فردتها فإذا قد طمنت في يدي ، وقد استرخت لتقطع شيء من الأعصاب . ... » فحضرت ، رحمه الله ، وزيد الجرائحي يداوي جرحه ، وعلى رأسه غلام واقف : فقال : « يا زيد اخرج هذه الحصة من الجراح » . فلما كمل الجرائحي . فماد فقال : « يا زيد إما تضر هذه الحصة ؟ وما تزيلها من الجرح ؟ » فلما أضجره قال : « أين الحصة ؟ هذا رأس عصب قد انقطع ، وكان بالحقيقة أبيض كأنه حصة من حصا الفرات » (٣) .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٣٨ ؛ إصدار حتى : ص ٥١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٤ .

١ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، النص العربي . ص ٤١ ؛ إصدار حتى ، ص ٥٥ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٨ .

٣ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٣٩ ؛ حتى ، ص ٥٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٥ .

ورغم أن مرشد قد امتنع عن الامارة ، إلا أنه طوال حياته كان الساعد الأمين لأخيه سلطان ، آزره في تسير أمورها في ذلك الوقت العصيب ، حيث قالت على شيزر الهجمات الدورية لقيلة « كلاب » بحلب ، والحشاشين ، والبيزنطيين ، والافرنج . وإضافة إلى حذقه ومهارته كان طبيب القلب (١) ، وعلاوة على كل هذا كان عرافاً بالنجوم والفلك (٢) . قدم إليه الشعراء من الخاء عدة ليقولوا الشعر في عزه وكرامته ، متخزين به ومادحينه . وكان نفسه شاعر (٣) ، عبر في شعره عن عاطفته الأنوية

١ - مثلاً : رعى أسرة أحد من قلم في لحظة غضب ( الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، ص ٨٦ ) .

٢ - انظر : الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٤١ ؛ إصدار حتى ، ص ٥٦ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٩ .

« وكان ، [ أب أسامة . و . ط ] ، رحمه الله ، له اليد الطولى في النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وثلاوة القرآن . وكان يحرصني على معرفة علم النجوم قاني وامتنع . فيقول : « فاعرف أسماء النجوم : ما يطلع منها وبئرب » . فكان يرزني النجوم ويرفني أسماها » .

٣ - معجم الأدباء ، ج I ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ ؛ المنازل ، ص ٣٦ . انظر غونجاً من شعره . يقول أسامة : قال والذي مرشد :

تجاه أبنائه ، وبخاصة تجاه أسامة . توفي يوم السبت ، رمضان ٥٣١ هـ (١) وبعد وفاته غادر ابن أؤد شيزر حسب مشيئة عمهم أبي المسافر سلطان ، ولم يبد معظمهم بعد ذلك أنها .

لقد استلم عز الدين أبو المسافر سلطان إمارة شيزر من عام ١٠٩٨/٥٤٢ إلى عام ١١٥٤/٥٤٩ ، وكان رجلاً شجاعاً ، سياسياً ومحارباً عتيقاً ، إذ إن شيزر قد تعرضت في عهده للهجمات الحربية العنيفة كما من جانب البيزنطيين ، كذلك من جانب الصليبيين ، لكن شجاعته ، ودعم جميع بني منقذ له من جهة ، وحذاقته وسياسته من جهة ثانية ، كل هذا ساعده على الدفاع عن شيزر ، وحفظها كامارة مستقلة . لقد كانت علاقاته مع أخيه مرشد وأولاده ، وبصوره خاصة مع أسامة ، جيصة ، حيث كان يرى في أسامة أمير شيزر المفضل . لكن ما أن رزق ولد ذكر حتى تغيرت جميع علاقاته مع أخيه وأولاده ومع أسامة خاصة ، التي جلبت له نجاحاته وانتصاراته الشهرة والمجد ، وجعلت منه المنافس الأول

→ ظلم أبيت في الظلم إلا التأييد وفي الصدد والمجران إلا تناهيا  
وقلت أخيراً برعى بني وأسرتي ومحفظ فيهم عهدتي وزمانني  
فإلك لما أن حنا الدهر صعدني وتلم مني صارماً كان ماضياً  
تكررت حتى صار برك نسوة وقربك منهم جفوة وتناسيا

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٣٩ .

والجدي لأولاد عمه ، والهدد الوحيد مستقبلهم .

وكان عز الدين محارباً خبيراً ، تمتع بالعرفه والمهارة والروية في حل الامور . نجدتنا أسامة في اعتباره عن حادثة اكتشف فيها عز الدين خبث العدو الحربي ، ونجا من الكمين المبر له (٢) .

أما ألبم حكمه في شيزر فتشير الفترة الذهبية في تاريخها . ونفسه انخر بأنه لم يوفر شيئاً من أجل شيزر والدفاع عنها ضد الزوم ، والافرنج ، والترك ، والبداء . ودافع عنها بكلمته ، وبكل شجاعة بسيفه . أما في الفترة الاخيرة من حياته فأخذ يتم بمسير أبنائه الذين

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٤٢ ؛ حتى ، ص ٥٧،٥٨ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١١٠  
قال أسامة : « رأينا سرية من الافرنج ... جاؤا الى باب المدينة قبل أن يفتح . فقالوا لبواب « أي نية اسم هذا البلد ؟ » ... قال : « شيزر » . فرموا بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم نخب بهم . فركبنا فكان عمي ، رحمه الله ، أول راكب وأنا معه ... فقلت لعمي : « على أمرك آخذ أصحابنا وأتيهم وأظلمهم وم غير بعيدين » . قال : « ولا » ، ( وكان أخير مني بالحرب ) في الشام افرنجي لا يعرف شيزر ؟! هذه مكيدة و ... ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابن وقال : امضيا اكشفا نل ملح ، وكان مكتملاً للافرنج . فلما شارفا خسر علبها عسكر انطاكيا جميعه !!

قلق على مستقبلهم ، وخاف عليهم من تجارب الحياة . وكل هذه الصعاب التي قاساها وعانها في سبيل حفظ السلطة في الإمارة ظهرت عنه بتعبيرات شعرية ، حيث قال القصائد في هذا ، وهذا ما يثبت قدرته الشعرية ، وعبقريته الادبية كفرد من آل منقذ<sup>(١)</sup> .

توفي أبو العساكر عام ٥٤٩ / ١١٥٤ ، فخلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد - آخر حكام شيزر من بني منقذ ، حيث في أيام

١ - ابن الأثير ، الكامل . ج ١ : ص ١٤٥ ، ٢٧ ، هذا ما تزكده قصيدته التي اخترنا منها ما يلي :

قال عز الدين أبو العساكر سلطان :

أيي لست بعالم ما أصنع بكم أجمع شملكم أم أصدع  
ما قطع الأرحام جاهلكم بما أبداه بل كبدي بذاك تقطع  
أصبحت أعمى بل أصم بكل ما أوسيت أنظر منكم أو أسمع  
وأبوكم من ليس ينكر أنه النذب الكمي الألعى الأروع  
ذاد الجيوش برأيه وبسيفه عن شيزر فتمزقوا وتصدعوا  
قد رد عنها الروم والافرنج والأتراك والأعراب حين نجحوا

ولايته حدثت الزلازل المدمرة التي دمرت فيها دمرته شيزر فخلطت وأوحشت وأقترت بعدها .

نثر في المصادر الادبية والتاريخية على ذكر عدد آخر من رجالات بني منقذ ، الذين عاشوا في بعد عن شيزر ، لكنهم كانوا - أيما وجدوا - من القواد والحكام ، وتركوا آثاراً جيدة وذكرنا حسناً<sup>(٢)</sup> .

فمنند الدولة أبو القوارس مرهف أحمد ابنه أسامة ، بقي على قيد الحياة لفترة متأخرة ، وعاش في مصر أميراً د في أيام حكم الأيوبيين ، وكان مقرباً من صلاح الدين وساعده الامت حتى صار جلسسه ، ونديمه ، وأتيسه<sup>(٣)</sup> . التقى به ياقوت عام ٦١٢ / ١٢١٥ حيث كان له من العمر ما يقارب ٩٠ عاماً ، وكان مقعداً لا يقوى على التي . يصنفه ياقوت بأنه شيخ هرم صبور خلد كبير ، جشاعة للكتب .

١ - انظر زاباور ، معجم الانساب . ج ١ : ص ١٠٥ .  
( القاهرة - ١٩٥١ ) ؛ وابن خلسكان . ج ١ : ص ٥٢٣ -  
٥٢٤ ؛ ج ٢ : ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛ معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

٢ - ياقوت ، معجم الادباء . ج ٢ : ص ١٧٥ .

ولد أبو الفوارس في عام ٥٢٠ / ١١٢٦ وتوفي ١٢١٦/١١٣ .

يمكننا القول بشكل عام : أن بني منقذ جميعاً كانوا من السادة  
الاجواد ، والفرسان الشجعان والشعراء الباقرة . كان الشعر فيهم مليقة  
عند الرجال كما عند النساء .

\* \* \*

رَفَعُ  
عبد الرحمن (المعرجي) (المعرجي)  
(أسكنه الله الفردوس)

أسامة بن منقذ

أبام طفولته وصباه

ولد أسامة يوم الأحد في ٢٧ جمادى الآخرة لسنة ٤٨٨ هـ / ٣ تموز عام ١٠٩٥ في شيزر . ساعة ميلاده تبقى على الدوام بالنسبة له الأمل والبارق ، والعضو السيد في حياته ، رغم أنه منذ ميلاده بدأ يقاسي ، ويتمذب ، فكانت صفحة حياته - حسب تمييزه - قناعاً قائماً من المغموم والشاعب تسطع في وسطها ساعة ميلاده برفاة مضيق<sup>(١)</sup> . ومن الواضح يمكن أن ولادته كانت مرغوبة ، تلقاها أهل الفرح والبهجة ، وعاش طفولته بسعادة وفرح . ترعرع وربي في أسرة يسيطر عليها نظام الآوة بشكل زائد ، محاطاً برعاية وعناية الأهل والأقرباء والخدم . مربيته كانت « لؤلؤة » ، التي خدمت عند جده ، وربت كذلك أخته . وكان لجدي سيد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمه الله ، جارية يقال لها لؤلؤة ربت والذي عبد الدين أبا سلامة مرشد بن علي ، رحمه الله ، فما كبر وانتقل عن دار والده انتقلت معه . فرزقي فرزقي تلك المجوز الى ان كبرت وزوجت وانتقلت من

١ - أسامة الديوان ، ص ٣٤٧ ، الخليفة ، ص ١٢٤ . قال أسامة وهو في سن الأربعين :

قالوا نهته الأربعون عن الصبا وأخوال المشيب يحجور تحت يدي  
كم ضل في ليل الشباب فذله وضج المشيب على الطريق الأقصد  
وإذا عدت سني ثم تقصتها زمن المغموم فتلك ساعة مولدي

دار والدي ، رحمه الله ، فانتقلت مني . ورزقت الأولاد فربهم . وكانت من النساء الصالحات صالحة قولمة ... وعاشت حتى قارب المائة سنة<sup>(٢)</sup> .

العائلة الاقطاعية ، بأجبالها الثلاثة ، والتي ملكت يدها السلطة ، وحافظت على استقلال المقاطعة غير الكبيرة - شيزر ، اهتمت على الدوام بترية ونشئة ورثتها المكور بشكل رجولي كي يكون الواحد منهم قادراً على السلطة والحكم والدفاع عن الإمارة . ومن المحتمل - في عداد هذا - أن أسامة قد ربي كورث للعرش والسلطة في بني منقذ ، وربي كأمير . ولهذا فإن كلاً من أبيه وعمه قد حاول أن يربي فيه صفات الفروسية : القوة البدنية ، القدرة على ركوب الخيل بباردة ، المهارة الفائقة باستعمال كافة أنواع الأسلحة [وقتها] ، وبشكل رئيسي ، الرجولة ، البطولة الصبر ، الحزم ، هدوء الأعصاب ، التروي والتفكير ، وضبط النفس .

في تربية أسامة كرجل وكأمير ساعد والده وعمه مثلهم الشخصي في البطولة والرجولة ، والشجاعة ، التي كانت حتى من صفات لسامشيزر . وإضافة إلى هذا فقد ساهم كل من التجربة الحياتية ، والظرف التاريخي في تربيته تربية الفروسية هذه . ولقد هيأت له والدته وجدته وأخضه جواً خصباً من المهبة والاخلاص والتضحية .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دربنورغ ، ص ١٣٧ ؛ إصدار حتى ، ص ١٨٦ .

لقد كان لأيام طفولة أسامة وقوته - كما يرى هذا من مذكراته وشعره - الأثر الحاسم في تكون شخصيته ، وصفاته وطباعه ، حتى إنه دخل الحياة - حياة ذلك العصر - كفارس للإسلام ، أدب ، وشاعر ، وسياسي مجرب خبير ماهر .

الثلث العربي يقول : « الرجال يشبهون عصرهم أكثر مما يشبهون آباءهم » . والمفارقة بين صفات أسامة وصفات أبيه كانت أقوى من الحوادث الكبيرة التي تميزت بها بداية القرن الثاني عشر في سورية . مع الاحترام الكامل للأدب ، والاعجاب الشديد به ، قد كسب منه أسامة التبعية للأعمال الحربية أكثر من التبعية للزهد ؛ لقد كان عدواً للأفرنج أكثر من كونه خطافاً ؛ رجل حرب وحمل وتأثير وحزم وبنات ، أكثر من زاهد وناسخ للقرآن . ربه أبوه تربية حرية قتالية ، وأشبهه بروح البطولة والرجولة :

« وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهائي عن قتال ولا ركسوب خطر مهما كان يرى في وأرى من إشفافة وإثارطي » . فركب حمي وأبي ، رحمه الله ، ووقفنا ، وكل من يصل إليها قد سيرا من خلفهم [ خلف الأفرنج ، و . ط ] ، وجئت أنا ، فقال لي أبي : « اتبهم بن مأك ، وارموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم » . فبتهم وأفرقهم بعد ركض أكثر النهار ، واستخلصت من كان معهم وأخذت بمسح خيل حمص . وعجبت من قوله : « ارموا نفوسكم

عليهم » (١) .

نعم ! إن الأب لم يمنعه ويوقفه أيضاً عندما أراد قتل أضي ، رغم أن أسامة كان وقتها صغيراً جداً : « ومرة كنت معه [ مع والده . ط ] . وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على أفريز رواق القناطر التي في الدار . فوقف يصورها . فجعلت سداً كانت في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت إليها ، وهو يراني فسلا بنهائي ، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطها وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة ، وبين وجهي وبينها دون القراع ، وجعلت أحز رأسها - وأخرجت الفت على يدي - إلى أن قطعت رأسها وألقيتها إلى الدار وهي ميتة » (٢) .

والوالد وهو يراني فيه الشجاعة والأقدام ، طلب منه الحذر وتماسك الاعصاب ، وهكذا فقد لام أسامة مرة عندما هجم على الأسد في لحظة حرجة : « ففرايته نهائي عن قتال غير ذلك اليوم » (٣) .

لقد ملك الأمير الفتي قلباً لطيفاً طلياً ، ورأساً حامية عاصفة . وهو طفل قد آزر ضد الظلم والاحتقار . لكن وجدت حوادث ، انتهت

- ١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دنيورغ ، النص العربي ، ص ٧٦ ؛ إصدار حتى ، ص ١٠٣ ، الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .
- ٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دنيورغ ، النص العربي ، ص ٧٦ ؛ حتى ، ص ١٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .
- ٣ - انظر . هناك أيضاً .

به فيها هذه التوراة المضافة إلى القساوة والظلم ، حتى إنه مرة ، لكي يدافع عن غلام ميان ، يجثم في البيت ، قبل خادماً (١) .

لقد كان حيويًا ضالًا منذ الطفولة ، يدرس برغبة فائقة وحسب منقطع النظر ، وكان محبًا للمعرفة والاطلاع بشكل مدهش عجيب . أخذته أبوه ذات مرة مع أخوته الثلاثة للصيد ومطالبتهم في الطريق بقرأة القرآن : « يوم خروجه [ خروج آية . و . ط ] إلى الجبل لصيد الحجل وهو يريد من الجبل يقول لنا إذا خرج إلى طريق الجبل : « تفرقوا . كل من عابه قرأه بقرأه » . ونحن أولاده حفظ القرآن . فغترق وقرأ حتى يصير إلى مكان الصيد بأمر من يستدعينا فيسألنا كم قرأ كل واحد منّا . فاذا أخبرناه يقول : « أنا قرأت مائة آية أو نحوها » (٢) .

لقد حفظ أسامة عن ظهر قلب ما يقارب (٢٦٠٠٠) بيت من الشعر لشعراء مختلفين .

لا يمكن للاهل أن يكونوا معلمين قساة مع أولادهم ، ولقد وعى والد أسامة هذه الحقيقة ، ولذا حاول ، وبسرعة ، أن يجد لابنه معلمين آخرين . فاستقدم من أجل تربيته الأدبية العالمين الشيخين : أبا

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٧ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٤٦ ; الترجمة الروسية ، ص ٢٩٦ .

عبدالله [ ابن النير ] ، وأبا عبدالله [ الطليطي ] - عالم القواعد . لقد درس أسامة مع الأخير القواعد لمدة عشر سنوات ، وكتب عنه : « وكانت في النحو سيوبه » (١) زمانه . قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار العلم بطرابلس فلما أخذ الافرنج (٢) طرابلس فقد الوالدواهم ، رحمهما الله ، استخلصا الشيخ أبا عبدالله هذا « ويأس ، الناسخ . وكان قريب القطمة في الخط من طريقة ابن البواب » (٣) . فقد أسامة واحترم معلمه الطليطي ، الذي عرف وقتها ، حفظاً عن ظهر قلب ، عدداً من كتب القواعد الشهيرة أكثر . لكن الطليطي - كما يصفه أسامة في كتابه الاعتبار - كان مشغولاً بنفسه وعمله أكثر مما كان مشغولاً بطلابه ، في حين أن ابن إمبر غي في أسامة حب الأدب ، والبلاغة ، والبديع ، والشعر ، وعلاوة على هؤلاء فقد كان بيت آل سقذ مكاناً لتقاء الأدباء والشعراء الذين جاؤوا إلى هنا مباحين بيت الأمراء ، طالبين منهم الرعاية والنفاية والنوازة ، واجدين عندهم ، وعلى الدوام ، كرم الضيافة والهدايا .

١ - سيوبه : رجل القواعد العربي الشهير [ توفي حوالي ٧٩٦ ] .

٢ - حدث هذا في عام ١٩٠٩م

٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٥٣ ; حتى ، ص ٣٠٨ . لقد أخطأ I. sehen عندما أكد أن أسامة أمضى عشر سنوات في طرابلس دارساً القواعد العربية عند الطليطي . انظر :

Journal of Semitic studies, Vol. XVII, No 2, 1972, p. 221.

كث حاض القلب ، ما أدهشك القتال ، (١)

كان عم أسامة سعيداً جداً عندما يتمكن أسامة من ضبط نفسه ،  
ومن الهدوء في وقت المعركة والقتال ، فأناً بالتصالح الحكيم الكبير .  
واستطاع أسامة أن يلين طباعه ، مما كان حكماً في صالحه هو أكثر  
من غيره .

إن النسوة المحيطات بأسامة ، ومنذ الصغر ، قد رين فيه الرجولة  
والبطولة ، حيث إن أوضاع النساء في شيزر وقتها أعطتهم سلطة كبيرة  
في تربية أبنائهن .

أما الأزواج فكان يستقبل في شيزر بإحفاال كبير ؛ ولادةالأطفال،  
وبخاصة الذكور كانت بالنسبة لآل منقذ كأنها هبة من الله ودلالة على  
رضائه ورحمته . عن أمه وجدته كتب أسامة ما يلي : « ولعمري إنهن  
أمهات الرجال » . وكانت الزوجة مثال الفروسية والبطولة والاحترام  
والثقة ، ومحاطة بكل مظاهر الاحترام والانتباه . أما أسباب الطلاق في  
شيزر فقد انحصرت على السلوك الشاذ وعدم الخصب والانجاب .

وكان الحدث الهام في شيزر عندما تلد الزوجة ولداً ذكرًا ،  
أكثر من مرة - في أصمب الأوقات وأحرجها - جدة أسامة لأبيه ،

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دربنورغ ، النص العربي ، ص ٧٥ ؛  
الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .

لم يتمكن «سلطان» من إعطاء تربية أسامة - ابن أخيه الكثير  
من وقته وانتباهه ، ذلك لأنه كان مشغولاً بأعماله الحربية الدفاعية ،  
لكنه رغم هذا - لم يكن مرتاحاً لتضييع أسامة وقته في تربيته  
القواعد - قواعد اللثة ، وفي الشعر [ والناحية ] فإن الشعر بالنسبة  
لسلطان كان مقبولاً كتناسية بيد الممارك الحربية [ ، إن  
وجود القلم مكان السيف في يدي أي شاب صحيح الجسم معاني من  
بي منقذ كان بالنسبة للأمير سلطان علامة سقوط الامارة . وبالإضافة إلى  
هذا فإن طبيعة أسامة الحارة الحركية لم تقنم وترتوي فقط تلك الضربات  
التي يضرها زيد لعمري : [ مثل القواعد الكلاسيكي المشهور : ضرب  
زيد عمراً وغيره ] ، وكذلك فإن السيد ، وأهتام أسامة به ، لم يكن  
التنفيس الكافي لجميع نشاطه وجوئته .

تقد قرر العم ، وهو عالم بمقدرة أسامة وإمكانياته وطبيعته ، أن  
يوجه الوجهة الحربية ويبد في نفسه تمثيلاً هذا الاتجاه . كان أسامة -  
الطل الفتي محتاجاً وبصورة أساسية إلى النصيحة الهادئة الصبورة . لكنه  
افقر إلى إمكانية ضبط نفسه وحماسه ، إلى إمكانية وعي واستيعاب  
تكتيكات أساليب هجوم الأعداء . « قلت : كان عمي عز الدين ...  
يتفقد مني حضور فكري في القتال ، ويتجني بالمسألة . فنحن يوماً في  
بعض الحرب ... فقال لي عمي : « نفذت تقول لي ؟ » قلت :  
« نفذت أقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم » فقال : « مع من نفذت  
إلي ؟ قلت : « مع رجب المبد . قال : « صدقت . ما أراك إلا

البالغة من العمر مئة عام أيمت عنه الخطورة ، ونجته من الضلال وأعطته الحكمة والفضة . وبين الحبة الزائدة ، ويمدق ومهارة فتحت عينيه على نوايا حمة مجاهده ، وعلى الإخطار المحيطة به<sup>(١)</sup> . ولقد فضله ، وعلى الصوامع على ابنها ، من صلبها - سلطان . أما أمه وأخته فقد شاركتا في الحرب ، كي يرضا من حمة الحاربيين ، ويحماهم ، ويدبوا في نفوسهم الشجاعة والافتداهم .

بعد واحد من هجوم الاجتماعييين على شيزر عام ١١٠٨ ، عاد

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دنيورغ ، النص العربي ، ص ٩٣ ؛ إصدار حتي ، ص ١٢٦ .

قال أسامة : « وحملنا الأسد ودخلنا البلد المشاء ، وإذا جيلني لأبي ، رحمه الله ، قد جاءني في الليل وبين يديها شمعة - وهي عجوز كبيرة قد قربت من العمر مائة سنة . فما شككت أنها قد جاءت تهنيئاً بالسلامة وترفيي مسرتها بما فعلت . فلقيتها وقلت يدها فقالت بئيط وغضب : « يا بني ، أيش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكر سلاحك ويزداد قلبك محك منك وحشة وضوراً ؟ » . قلت : « يا بستي ، إنما أخطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرب إلى قلب عمي » . قالت : « لا ، والله ، ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بدءاً ويزيده منسك وحشة وضوراً » . فسلمت أنها ، رحمه الله ، نصحتني في قولها وسدقتني . ولمعري إبن أمهات الرجال » .

أسامة إلى البيت ، وهو يبحث عن محاربيه والأسلحة ، ليرى أخته وأمه يرقبان المركبة من الشرفة . لقد كانت أمه قد صممت أن تلقى ابنتها من أعلى الشرفة لتموت ، كي لا تراها أسيرة في يد العدو :

« في ذلك اليوم فرقت والدي ، رحمه الله ، سيوفي وكراغنداني . وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن وقالت : « البسي خفسك وإزلارك » . فلبست وأخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق أجلسها عليه وجلست إلى باب الروشن . ونصرنا الله سبحانه عليهم . وجئت إلى داري أطلب شيئاً من ملاحي ماوجبت إلا جيازيات السيوف وعيب الكراغنداني . قلت « يا أمي ، أين سلاحي ؟ » . قالت « يا بني ، أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا . وما ظننتك سائلاً » . قلت : « فأخسني أي شيء تعمل هاهنا ؟ » قالت « يا بني ، أجلسنا على الروشن وجلست برأ منها . وإذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » . فشكرتها على ذلك وشكرتها الأخت وجزتها خيراً . فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال<sup>(٢)</sup> . « وتلثت في ذلك اليوم عجوز من جولي جدي الأمير أبي الحسن علي ، رحمه الله ، يقال لها فنون . فالتفت سيقاً وخرجت إلى القتل ومازات كذلك حتى صعدنا وتكاثرتا عليهم . وما ينكر

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دنيورغ ، النص العربي ، ص ٩٢ ؛ حتي ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

لنساء الكرام الأئمة والنخوة والاصابة في الرأي<sup>(١)</sup> .

حياة النساء هذه ، الموصوفة باعتجاب مدهش من قبل أسامة ، كانت وكأنها انطباعات منذ الطفولة عن الحياة ، مما ترك في ذاته أثراً كبيراً ، ونفى في نفسه التعلق بالأهل ، وبمسقط الرأس (وطنه) في جميع مراحل حياته .

إذا كان نشاط أسامة وحيويته ، طباعه وصفاته ، مستوى تفكيره واتساعه ، إذا كان كل هذا - في الغالب - قد تطور بتأثير الأب والعم ، فإن قلبه ومنذ الطفولة تنعم بلطافة أشمة حب نساء شيزر له ، وخاصة لطافة ورقة الأمومة . لقد كانت لأسامة طليعة حية وقية ؛ كان يقفز في أيام الطفولة على الجدران ، يسلمها ، والسكل تشابه في الاعتقاد بأنه أكثر الأطفال حيوية ونشاطاً . وكان - غالباً - شاعر عيانت للذخائر العائلية التي جلبت له تصورات كبيرة تفوق عمره الزمني .

في عام ١٩٩٩ ، عندما عاد الخيالة من الصيد ، وأخبروا بقرب قدوم الافرنج ، وجلس الجميع من آل متقذ يفكرون برويسة في الامر ، فجأة ، في قلب هذا الصمت المفكر صرح صوت أسامة قائلاً ما معناه : دعوا التفكير بهذا ، دعوم بأقوا فالتنا سنقطيم .

٢ - أسامة ، الاختيار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٩٢ : إصدار حتي ، ص ١٥٢ .

لقد سئم أسامة البقاء مدة طويلة في مكان واحد ، وحاول الرحيل إلى جبة ما ، لكن شيئاً ما غير معروف كان يشده إلى شيزر رغم أحلامه بالعيش في أرض جديدة ، وبالتعرف على أناس جدد . نقطة البداية في عذابه ومشاكله الحياتية كانت تتمثل في امتناع أبيه عن الامارة ورئاسة شيزر ، وانتقال هذه الامارة إلى عمه وأبناء عمه . ولذا غدا تالياً لعمه ، وكثيراً ما عانى من هذه التبعة . تشقهه الحسد وكبرياؤه لم يقتنما بتلك النجاحات التي كان يبرزها في الصدمات الحربية . رغم إن هذه الصدمات في الواقع قد أوجدت متفناً لبعض حيويته ، التي كانت متجسدة على الدوام ، ودفنته ، وبستمسار الطمأنينة والتوثب .

حاول أسامة أن يلا الحياة الفارغة في شيزر والوحدة ، بالأعمال والأبحاث الأدبية ، ففقد وصلت إلينا بعض محاولاته للشعر الأول ، التي ، وبإهتمام بالغ قد اصطنعها واختارها . لكن الفضل في مجده الأدبي الخالد إنما يعود لأعماله ومؤلفاته وهو شاب ناضج .

لقد حافظ أسامة على نشاطه وجهه للحياء في كل شيء : في الصلوات في الحملات الحربية والمبارك ، في التلب على المناسبات واللقاءات ، على الآلام والتعب . وكان قوي النفس والجسم ، نادراً ما مرض (هكذا في إشفاله إلى شيزر أصيب بالزكام ومرض)<sup>(٢)</sup> ، وبسرعة يشفى بدمرته .

١ - أسامة ، الاختيار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٣٧ .

والروح الأبية الشائخة لم تنامره لآخر حياته الطويلة ( عاش ٩٣ سنة شمسية ) .

أسامة - فارس شيزر الشجاع ، « شمس زمانه الساطعة » (١) ، كان طويل القامة (٢) فارعا ، مستقيم الجسم ، جميل المشية ، رائع القوام . جبرته بيضاء ، رغم وجود ما يشير إلى أن بعض أبناء كنانة كان أسود البشرة (٣) . وبالإضافة إلى هذا لا توجد أدلة على أن أحداً من بني منقذ المنجدين من كنانة كان أسود البشرة . إن ب . لا جلود يشير في عمله المبني إلى أن أسامة كان رجل نكتة وذكاهة ، كثيراً ما تحضره البهجة ، ويسرع إلى التشبهات المضحكة ، والنكتة الذكية (٤) .

هذا هو الجو التربوي الذي أحيط به أسامة ، وترعرع ، وترى :

١ - من شعر ابن القيسراني عن أسامة .

٢ - ابن القيسراني يرى أنه كان يمثل القامة .

٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ١٠٧

٤ - درنبرغ يقتبس من .... Cotingische

د من صفات أسامة استقباله اللطيف الرقيق لتهيء المضحك .

و « شموه الفكاهة الذي يظهر في الألفاظ المفردة والتراكيب ،

وفي الصورة الكاملة » فد لاحظته إ . ي . كراتشكوفسكي .

انظر . المقدمة لكتساب الاعتبار ، الترجمة الروسية ، الإصدار

الثاني ، ص ٣٨ .

من رعاية الأب والعم ، وتربية الأساتذة الذين استقدموا خصيصاً لتثقيفه على عادة الأمراء آنذاك ، ومن جو نسائي شجاع كريم بذر فيه بسنور الشجاعة والاقدام ، وخوش الحاطر ، والتفكير بالمواقف ، والمزعة والاباء . أضف إلى كل هذا الجو الأدبي والحربي في شيزر - الذي كان المدرسة الكبرى والأعم والأشمل التي تخرج منها أسامة ، مدرسة الحياة التي ربت فيه ، وطورت ، ومنذ الصغر ، الحب إلى الوطن - إلى شيزر .

★ ★ ★

## هياة أسامة في سبزر

( ٤٨٨ - ٥٣٣ / ١٠٩٥ - ١١٣٨ )

التحضير والتمرن على الأعمال الحربية ، الصيد مع الأب على الحيوانات الوحشية المفترسة ، والتعلم ، بكل هذا كانت مفعمة حياة أسامة - د فارس الاسلام (١) - في سبزر . شارك في المعارك وهو فني يافع ، ولم يخش مرة الصعاب والمخاطرة . نفسه يتذكر هذا ويسجله قائلاً : « فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخيل ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي أوضح معبر . فسكن لقيت من الأهوال ، وتقمعت المخاوف والإخطار ، ولانقت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيف ، وطلعت الرماح ، وجرحت بالدهام والجروح - وأنا من الأجل في حصن حصين - إلى أن بلغت سن التسعين . لقد حاربت من سن الخمسة عشر إلى سن التسعين » (٢).

إننا لا ندرى التاريخ الأكيد لمشاركة أسامة في المعارك ضد الصليبيين . ففي مكان من كتابه الاعتبار يكتب : « ومثل ذلك ما جرى لي على أطلالهم ، فإن نجم الدين بن إيلغازي بن أرئق ، رحمه الله ، كسر الأفرنج على البلاط ، وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة [ ١٤ ب ١١١٩ . و . ط ] وأفانم وقتل صاحب

١ - أمين . أ . ، فارس كناية ، ص ١٢ .

٢ - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ٥ ، ص ٢٣٠ : الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٦٣ .

انطاكية روجار وجميع فرسانه . فصار اليه عمي عز الدين ابو الماسكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والذي ، رحمه الله ، في حصن شيزر ، وقد اوصاه أن يسيرني الى أقدية بن معي بشيزر من الناس ... وممرت في نفر قليل ما يلحق عشرين فارساً ... ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فوئوا وأنا غر في القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك ...<sup>(١)</sup>

وفي مكان آخر يقول : « وجاءت دنكري »<sup>(٢)</sup> ( تانكرد ) في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة ، وأنا صبي<sup>(٣)</sup> ، وهو أول يوم رأيت فيه القتال<sup>(٤)</sup> .

وربما كان من المحتمل هنا أن أسامة يريد أن يقول بأنه منذ عام ١١١٠ شمساراك في الماراك ، وفي عام ١١١٩ ولأول مرة ترأس

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دونبورغ ، النص العربي ، ص ٢٩ - ٣٠ ؛ إصدار حتي ، ص ٤٠ - ٤١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٨٨ - ٨٩ .

٢ - تانكرد - ابن أخت ييموند - حكم انطاكية من ١١٠٤-١١١٤ . وييموند أمير نورماندي شارك في الحملة الصليبية الأولى . توفي عام ١١١١ .

٣ - في ربيع ١١١٠ كان عمر أسامة (١٥) عاماً .  
٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار حتي ، ص ٦٦ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٢٥ .

مركة مستقلة<sup>(٥)</sup> .

في عام ١١١١/٥٠٥ وأسامة عمره ١٦ سنة كان في عداد (٥٠٠) جندي ، التي خرجت من شيزر ضد تانكرد . لكن دونبورغ يبدى شكوكه في صحة هذا الرقم : « هذه المبالغة المادية للرجل الشرقي لا توافق الواقع . إنني أعتقد بأن هذا الرقم لا يتوافق وعدد السكان في شيزر ، لكنه عدد السكان في أسفل الجبل وعلى شواطئه المسمى ( أوروونت )<sup>(٦)</sup> .

إن رأي دونبورغ هنا لا يمكن قبوله دون نقد ، ذلك لأن أسامة مشهور كمؤلف واقعي صادق موثوق ، يقول الحقيقة حتى في تلك الحالات ، عندما لا تكون الحقائق في مصلحته<sup>(٧)</sup> وزيادة على هذا فقد

١ - هذا ما يؤكد شعره ، حيث يقول أنه ركب حصان الحرب وعمره (١٥) سنة ( انظر . الديوان . ص ٢٠٩ ) :

لخس عشرة نازلت الكرامة إلى أن شبت فيها ، وخير الخيل ما قرحا

٢ - Derenbourg, H., Le Vie d'Ousama, p. 9

٣ - هذا ما يشير إليه مثلاً في الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٥٣ ، خسر رفقه لقله خبرته إذ يقول : « وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا . والسبب فيه نقاذ المشقة ثم قللة الخبرة بالحرب ... ونزلوا [ الأعداء . و.ط ] من الجانب الآخر بالغنية . وعدنا نحن

الشعر العربي م ٥

أشرنا سابقاً إلى أن علي بن مقلد قلابان سكان شيزر ٣٠٠٠ رجل مع عائلاتهم ، وبدور الحديث عن هذه ثلاثة آلاف الرجل في كتابه إلى الخليفة العتدي .

بعد عدة شهور من هذه الموقعة أرسل تانكرد إلى بني مغسند فارساً صليبياً كي يقضي بينهم بعض الوقت وهو في طريقه إلى وطنه . وكان هذا الافرنجي معجياً بأسامة ، بفروسيته ورجولته ، وببهارته في استعمال السيف والرمح .

عقد أسامة العزم على زيارة اطاكية بدعوة من تانكرد ، لكن ظروفًا غير منتظرة قد حالت دون تحقيق هذا التجمع .

لقد انقضت فتوة أسامة بسرعة ولكنها سحابت خفية قد تلتقي .

وقد قتل منا فارسان وأخذ منا فارسان وأخذ منا ثلثة حصن والمظلة . فبذنه تقرر لفة الخيرة بالمرح . وفي ص ١٤٤ يورد قصة الضربة التي آذنه ٠٠٠ . وهذا هو بروي قصة الافرنجي المدعو الذي يهزم أربعة مسلمين : د وكان بأفريقية فارس من كبار فرسانهم [ فرسان الانرنيج . و . ط . ] يقال له بدهوا ٠٠٠ فالتقت فرأى أربعة منا من ناحيته ٠٠٠ فحمل عليهم فهزمهم ٠٠٠ ودخل أولئك نفر إلى البلد فاقضوا واستخضعهم الناس ولا موم وأزروا بهم وقالوا : أربعة فارس يهزمهم فارس واحد !!! انظر . الاختبار ، إصدار حتي ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

إنه يتذكر بألم مرير الأيام التي قضاها بدون مئة ، وبأسف لها لأنه شغل فيها سعيًا وراء المال والأجناد ، فلم يتمتع بها كأترابه :

وما كنت منتبهاً بالشباب وهل كان إلا رداء معار  
ولكنني ساءني فقدته فواهاً له ، أي هم أثارا  
ومازلت منذ ترديته كخابط ليل أعاني العشارا  
أكابددهراً يشيب الوليد وهماً يشب بأحشائي ناراً  
فوجدني أني فارقتة ولم أبل ما يزعمون اختباراً (١)

بعد تأزم الموقف الشديد في العلاقات بين أبي أسامة وعمره قوسل بمساعدة الوسطاء عام ١١٣٠ إلى مصالحة فيها بينهما ؛ وعندئذ أسند العزم « سلطان » إلى أسامة قيادة فرسان شيزر . غدا أسامة قائد الفرسان والتفد النسر ذا الرأسين شعاراً له - وربما قلد في هذا البيزنطيين - ، وسافر إلى اطاكية ليتعرف العدو عن قرب ترفاً كاملاً .

لكن تمر الأيام لتوقمه في موقف حرج ، وحالة معقنة ، مسع كثير من المصاعب والتعاب . ويتلخص الموقف فيما يلي : حاكم حلب

١ - أسامة ، الديوان ، ص ٣٦٨ [أبولو:أخبر].

نيمور ثاني (١) استعان بمساعدة عمه سلطان ، ليكون وسيطه في الاتفاقية ، التي بموجبها كان على صاحب حلب أن يطلق سراح بلدوين (٢) ، الذي كان في الأسر عنده ، وعلى الأخير ، بالتقابل أن يتخلى لصاحب حلب عن بعض ممتلكاته .

تركزت وساطة سلطان في أن يرسل أسامة وإخوته كرهائن إلى حلب حتى تنفيذ الاتفاقية والوساطة . لكن بلدوين لم ينفذ شروط الاتفاقية . ولهذا فقد بقي أسامة في الأسر مدة ثمانية أشهر إلى أن عمد حاكم حلب الآخر إلى إعطائه حريته وفك أسر (٣) . كتب

١ - خليفة الأرتقي الرديني الزبي ، الذي استلم السلطة بعد وفاة بلق ، حيث كان هناك معتقل بلدوين ؛ لقد حكم منذ ٥١٦ - ٥٤٧ / ١١٣٢ - ١١٥٢ ، انظر : يوسف-ورت ، ص ١٦٦ .

٢ - بلدوين - حاكم (صاحب) عدد من الحصون في منطقة آسيا الصغرى ؛ واحد من جبابرة الصليبيين الأشداء - في عام ١١٢٣ كان قد أسر من قبل نور الدولة بلق ، وفي عام ١١٢٤ مات قتلاً .

٣ - زكي ، أ . ، في كلامه عن أسامة ، (ص ٦٣) يؤكد خطأ أن أسامة بقي في الأسر إلى أن استولى أن ستقار على حلب ، وأطلق سراحه . بالنسبة أن ستقار كان قد قتل عام ١٠٩٤/٤٨٧ . (انظر . أبو شامة . - ٢ ، ص ٢٦١ ) ؛ وأسامة كان في الأسر في عام ١١٢٤ .

أسامة بهذه المناسبة إشاراً يفخر فيها ببلاته ، ويشير إلى أن أعداءه يهابونه ويخشونه وهو أسير ، وأن السجون لا تحقر الرجل الحقيقي الإنسان ، القادر على أعمال البطولة والرجولة :

جسوك والطير النواصق إنما حبست لميزتها على الأنداد  
وتهبوك وأنت مودع سجنهم وكذا السيوف تهلب في الأعماد  
ما الجيس دار مهانة لنوي الملا لكنه كالغيل للأساد

ورغم أن عم أسامة قد امتنع من شعر الكبرياء والفخر هذا لكنه سكت على مضض ، ذلك لحاجته إلى أسامة ، وإلى خبرته الحربية في قتاله مع أعدائه . وازداد فخر العلاقة والجفوة بينهما ، فمقدار ما يحرز أسامة انتصارات يجشاه عمه . ورائنا ، قد لبس الوشاة دوراً كبيراً في زيادة هذه الجفوة بينهما ، ومن المحتمل أن حشدهم وحشدهم قد ازدادوا لسبب انتصارات أسامة الحربية ، وعلو شأنه ومكانته : « وأنهم الأفرنج الذين جاؤوا من أفامية ، فقال له ( لعمه . و . ط . ) بعض غلمانهم : بامولاي ترى ما فعل ؟ يعني . تخلف عدك ، وماسار معك لقاء جيش أفامية » (١) هذا ما يؤكد أنه أيضاً الذي يقبض قول ابن الأثير : « وسعى الفسدون بينها ففروا كلا منها على الآخر » (٢) .

- ١ - أشامة ، الاعتبار . إصدار درينورغ ، ص ١١٢ .
- ٢ - أبو شامة . - ٢ ، ص ١١١ .

لقد نصحه أبوه بترك أمر الجفوة مع عمه ، ذلك لأنه لم يشأ أن تكرر مأساة صراع عام ١١٢٠ ، وقالت له جدته : « ولده أولى منك بقلبه بأسامه » .

لقد تفجرت الأزمة عندما أعلن سلطان أن شيزر لا تتوسعب جميع آل منفذ . ونتيجة لهذا الإعلان كان على أولاد مرشد ، ومن بينهم أسامة ، أن يتركوا شيزر ويعيشوا في ضياعهم ، على أن يلوا دعوة المم للدفاع عن شيزر متى كان ذلك ضرورياً . حدث هذا عام ١١٢٨ . ونتيجة عاش أسامة عدداً من الأشهر في قريته ، في منطقة شيزر الزينية ، عيشة هادئة ، لا يتكلم عن القصر ، مشغولاً بنظم الشعر ، وبالتلخيص على « كتاب الدير » ، لأن المعز ، الذي قل عنه أسامة : « كان مؤلف هذا الكتاب عظيماً ولكن أهله ضيموه » ، وكأنه وجد في ابن المعز قريباً ونداً له للتشابه في مصيبتها .

وأخيراً ، كان أسامة مضطراً أن يفارق شيزر - وطنه الأم ، حيث أصبح يتأوه فيها لا يطاق ، وقضى (٩) تمنع سنسوات تقريباً [ ١١٢٩ - ١١٣٨ ] في بلاط عماد الدين الزنكي المهدي الوحيد ، والد الأول لسلطة الصليبيين ، يعمل تحت رايته ، ويشاركه في معاركه ، التي قادته إلى أبواب بغداد . إن تصميم الزنكي بالهجوم على سورية لتوحيد كل المنطقة ضد الصليبيين وجد صدق جيداً عند أسامة ، بأفكاره النضالية ، فبالأ أن تقع شيزر تحت سلطة الزنكي بهدف النضال الأكبر ضد الأعداء .

قبل سفر أسامة إلى عماد الدين الزنكي طلب نصيح أبيه بقصيدة شعرية مفعمة بالفخر بالاجداد ، والكبرياء ، وشكوى من الجفوة المنيه ، ومن علاقته بأقربائه ، راجياً من والده السماح له بالسفر بعيداً عن الحساد والوشاة ، عن « وطنه » الذي لا يفي فيه الازدراء والاحتقار :

دعني وقطع الأرض ، دون معاشر كل علي ، لغير جرم ، محنت  
تغلي علي صدورهم ، من غيظهم فتكاد ، من غيظ علي تحرق  
أعيا علي رضاهم ، فيست من إدراكه ، ما لنجم شي ، يلحق  
قد أفسدوا عيشي علي ، وعيشهم فأنا الشقي بهم ، وبني أيضاً شقوا  
فضل الاقارب برهم وحنوهم فاذا جفوني فالأبعدأ رفقي (١)

١ - أسامة ، الفيوان . ص ١٢٨ . لقد أخطأ مصطفى حجازي عندما أورد القصيدة في مقدمته لتحقين « كتاب المنازل والديار » ، مؤكداً بأنها قد كتبت بعد أن توجه أسامة وأخوته من شيزر إلى دمشق . في الحقيقة أنها كتبت عندما توجه أسامة إلى عماد الدين الزنكي في عام ١١٢٩ ، وعلاوة على ذلك فقد توفي أبو أسامة عام ١١٣١/٥٣١ ، ورحل أسامة إلى دمشق في عام ١١٣٨/٥٣٣ ، والواضح أنه لم يتمكن حينذاك من طلب السماح بالهجرة من أبيه . كذلك يرى حجازي أن أسامة قد وصل إلى عماد الدين في

لقد سمح له والده هجر شيزر ، فأركا أسرته تحت رعاية أخيه ، طالباً من عمه أن يعطيه بعض الفرسان من شيزر ، لأنه أبحى أن يقال إن إبا المساكرو وبني منقذ لم يشتركوا في تكوين الجيوش التي عليه أن يكسر الأفرنج تحت راية عماد الدين . ونظراً لأن العم قد شاء أن يبعد أسامة ، مها كان ذلك ممكناً ، فقد أعطاه ما طلبه .

موقف عمه منه ، موافقة الأب على هجره شيزر ، النقاؤه وعماد الدين وجهات النظر السياسية ، التي تقضي بالوحدة الإسلامية ضد المسلمين - كل هذا قد قاد إلى أن يتوجه أسامة إلى الزنكي في الموصل، ويعمل تحت قيادته في عام ١١٢٩/٥٢٣ .

لقد كانت علاقة الزنكي مع أسامة جيدة ؛ استقبله استقبالاً حاراً، وأقطعته إقطاعاً بالوصل ، وغدا منزله فيها موطناً للشعراء والكتاب . عندما عين عماد الدين صلاح الدين النسياني أميراً على كفر طاب ، بقصد إيمانه عنه ، حيث إن الأخير حسب قول أسامة :

الموصل عام ٥٢٩ هـ ، لكن أسامة في كتابه والاختيار [ص ١١١] يذكر أنه في هذا العام نفسه قد اشترك والزنكي والنسياني في حصار دمشق . ثم في عام ١١٣٠/٥٢٥ وهو موجود في الموصل ، قد شارك في التحضير لفتح أخرى ، وفي عام ٥٢٦ / ١١٣١ - ١١٣٢ شارك عماد الدين في الوقعة في تكريت .

« لا يخاف عماد الدين ولا يخاف الله »<sup>(١)</sup> : النسياني بدوره قد عين أسامة قائداً لجيشه ، رغم أنه شاركه في جميع المعارك ، كيلا يفوته شرف النصر . أراد أسامة أن يكون قريباً من شيزر ، وقضى حياته في هذه المرحلة بين الموصل وكفر طاب ، وشارك في حصار دمشق .

في كل مرة يمر فيها أسامة بالقرب من شيزر . يرجع بسوماً أو يمين على وطنه شيزر ، وخاصة على أبيه ، ثم يتابع طريقه ثانية . لقد أفسدت عليه حياته من قبل الوشاة الذين أوغروا صدر أبيه عليه<sup>(٢)</sup>. ولقد كتب أسامة بهذا شعراً ، محاولاً أن يبرر موقفه أمام والده :

وبعد مالي ، فاشفاقني يهددني بشوب رأبك بالتكدير والرتق  
وأن قلبك قد رانت عليه ، من الواشين بي ، جفوة، بها كالفسق  
أما كفاهم نوى دارى، وبعدك عن عيني، وفرة إخوان الصبا الصدق  
وأنتي كل يوم قطب معركة درينة السمير والهندية الدلق  
وموضعي منك لاسموالوشاة له ولا يغيره كيسي ولا حمقي<sup>(٣)</sup>

أسامة ، وهو في الغربة ، نلرة في سورية ، وأخرى في العراق ،

- ١ - أسامة ، الاختيار . إصدار درنيورخ ، النص العربي ، ص ١١٦
- ٢ - في تاريخ حياة أسامة لا توجد إشارة إلى الزناج والده منه .
- ٣ - أسامة ، الديوان . ص ١٢٩ .

يمن إلى أبيه ، ويرسل له التحيات والاحترام ، ويتبادل معه المراسلات الشعرية :

قال أسامة :

لا تفسدن نصيحتي بشقاق وأبيك ما السلوان من أخلاقي  
وأبلغ نية نارح قدفت به أيدي النوى في أسحق الآفاق  
قد كان بالشامي يعرف برهة من دهره ، والآن فهو عراقي  
ينزول ذكر أبي سلامة قلبه فيكاد يترق من حشاوصفاق (١)  
واهتفت به : ياخير من أرجوه للأواء (٢) أو أدعوه يوم تلاق  
في لوعتان عليك يعضف عنهما جلدي : من الاشواق والاشفاق  
فالشوق أنت بالعالم ، وغالب الا شفاق مما أنت في ملاق  
وإذا أخطأتك الحادثات ، فكل ما ألقاه محمول على الأحداق (٣)

فأجابه أبوه بقصيدة أولها :

- ١ - السفان ( كتاب ) : الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر ، أو ما بين الجلد والنصران . أو جلد البطن كله .
- ٢ - الأواء : الشدة .
- ٣ - أسامة ، الديوان . ص ١٣١ .

أظن أني بعد بمدك باقي أجزئي عن الأشواق بالأشواق

يقول فيها :

أبا المظفر دعوة تشفي الظما مني ، وإن أضحي بها إحرافي  
لم أستكن أبدا لطلب نازل إلا لبعدي ، فهو غير مطاق  
فاذا أطلعت الوجد فيك أعطيني قلبي ، ويبدى إن عصيت ، شقافي  
فاذا ذكرت لك خلتي أني شارب ثمل ، سناه من المدامة ساق (١)  
إن شعر الاب ملوه بكل مشاعر الشوق والحنين ، وثم الفراق للابن .

لقد حارب أسامة تحت راية عماد الدين الزنكي إلى أن كانت مضطراً للعودة إلى شبر ، ليدافع عنها ضد جيوش بيزنطة والصليبيين المتحدتين في عام ١١٣٨/٥٢٣ .

تابع الامبراطور البيزنطي جاك كومنينوس (١١١٨-١١٤٣) سياسة سلفه الكسيس كومنينوس التوسيع رقعة سلطنة بيزنطة في آسيا وسمى لأخذ كيليكيا من الارمن ، وانطاكية من الصليبيين . فمهد انصاره في كيليكيا وجه اهتمامه إلى انطاكية ، لكنه لما لم يتمكن من امتلاكها سلبيا ، قرر أخذها عنوة بالقوة . ولذلك هاجمها في آب ١١٣٧ ،

١ - أسامة ، الديوان . ص ١٣٣

فوجه حاكمها ريموند دي بوانيه لطلب المساعدة من « فولك » ، حاكم بيت المقدس . لكن فولك لم يتمكن من تقديم المساعدة له لأنه كان مشغولاً بالقتال ضد عماد الدين زنكي . ولم يبق لريموند غير عقد هدنة مع الإمبراطور البيزنطي . لقد نصت اتفاقية الهدنة بينها على أن تهاجم بيزنطة سورية لمساعدة ريموند ، وبمساعدة الأمراء الأوروبيين الصليبيين الأخرى ، لأخذ شيزر من بني منقذ ، وحمص - من صاحب دمشق ، وحلب - من عماد الدين ؛ ومقابل حكم ريموند لهذه المناطق بعبد الاستيلاء عليها ، يجب أن يتنازل عن انطاكية لبيزنطة .

لم يقدر عماد الدين خطورة هذا الاتفاق ، وتابع قتاله مع دمشق ، فاجتمع المتحدون قرب شيزر ، وهاجموها . واضطر سلطان بن منقذ أن يطلب مساعدة عماد الدين ، واندفع أسامة للدفاع عن وطنه - شيزر . لقد كانت قوى المتحدين كبيرة جداً ، لذا لجأ عماد الدين إلى الخدعة ، فقرر أن يوقع بين البيزنطيين ، والفرنجة والصليبيين . وكان له النجاح في هذا فقرر امبراطور بيزنطة التراجع . هذا ما يصفه أسامة مفصلاً في كتابه والاعتبار. (١)

ترك عماد الدين شيزر تحت سلطة سلطان بن منقذ ، أما أسامة فقد حار في أمره : أتابع النضال تحت لواء عماد الدين ضد الصليبيين؟ أم يبقى مع أولاده وزوجته الذين حرموا من رعاية أبيه ، حيث كان قد توفي منذ قرابة عام [١١٣٧/٥٣١]؟ لكن القرار في مصلحة المائتومسقط

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٨٣ .

الرأس قد غلب الشاعر الوطنية ( القومية تجاوزاً ) ، والنضال ضد الصليبيين . وقرر ترك عماد الدين والبقاء في شيزر ، شاعلاً وقته في صيد الأسود ، آملاً أن تمكنه بطولاته وانتصاراته من أخذ حب عمه ، متناسياً ما قاله جدته سراً عن عمه ( انظر . أعلى ، ص ٧٠ ) (٢) .

ورغم صعوبة فراق مسقط الرأس كان أسامة مضطراً فيا بعد أن يترك شيزر . لم يعلم في البدء إلى أين يتجه : إلى الموصل ؟! إلى عماد الدين الذي كان قد هجره منذ عام ؟! أم إلى أمة جبة أخرى ؟! وأخيراً قرر السفر إلى دمشق ، وبوصوله دمشق تبدأ عنده مرحلة حياة جديدة .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٩٣ .  
أبو شامة . ( ١ ، ص ١١٢ ) يقول اعتياداً على كلام ابن الأثير : أن هذه الألفاظ قالتها والدته ؛ وأن انتصارات أسامة الصيدية كانت سبب خروجه من شيزر إلى الابد .

يصف أسامة قدومه الأول إلى دمشق على الشكل التالي: «فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق ، ورسلا أناياك [ عماد الدين . و . ط ] يتردد بطلي إلى صاحب دمشق . فاقعت فيها غاني سنين<sup>(١)</sup> ، وشهدت فيها عدة حروب ، وأجزل في صاحبها<sup>(٢)</sup> ... العطية والأفطاح ، وميزني بالتقريب والاكرام - يضاف ذلك إلى اشتغال الأمير معين الدين<sup>(٣)</sup> برحمه الله علي ، وملازمتي له ، ورعايته لأهلي<sup>(٤)</sup> » .

قدم أسامة إلى دمشق في أواخر عام ١١٣٨ هـ - ب.ت كان الحاكم الاسمي لها شهاب الدين محمود البوري ، الذي استلم السلطة بعد أن قتل الاسماعيليون أباه ( وهو نفسه فيما بعد كان قد قتل من قبلهم في عام

## أسامة في دمشق

( ٥٣٣ - ٥٣٩ / ١١٣٨ - ١١٤٤ )

- ١ - في عام ٥٣٣ هـ لما حاصر جان كومينوس شيزر كان أسامة فيها ، وفي عام ٥٣٩ هـ نجده في مصر ؛ لما علينا أن نفترض أن إقامته في دمشق لم تمتد أكثر من (٧) سبع سنوات قمرية .
- ٢ - شهاب الدين محمود - أناياك دمشق من سلالة البوريين ، حكم من ١١٣٧ - ١١٣٩ .
- ٣ - الأمير معين الدين أنشُر (أنشُر . في ديوان أسامة ) - أول وزير بنوي . مات عام ١١٤٩ .
- ٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درينبورغ ، النص العربي ، ص ٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٤٦ .

١١٣٩ ) . لكن الحاكم الفعلي كان الوزير معين الدين أرتغر<sup>(١)</sup> . وبعد وفاة شهاب الدين انتقلت السلطة إلى أخيه جمال الدين ، وبسرعة إلى مجيد الدين . وفي هذه الأثناء كان عماد الدين قد استولى على بلبك في ~~نحو~~ عام ١١٤٠ ، وهدد دمشق . لقد كان أثر سياسياً لامتاً . فبدأت مشاورة مع أسامة قرر أن الطريق الوحيد للدفاع عن دمشق ضد عماد الدين - هو الاتحاد والاتفاق مع الصليبيين وبشباط وحماش دخل أسامة في النضال ضد عاد الدين - صديقه القديم . كان على أسامة مهمة عقد الاتفاق (الاتحاد) مع الفرنجة ، فسافر لأجل ذلك إلى فولك الخامس - ملك القدس ، الذي أصبح رئيس المملكة بعد وفاة حمير<sup>(٢)</sup> . ( أب زوجته ) بلغوين الثاني<sup>(٣)</sup> في ١١٣٩ ، للتفاوض في إمكانية إقامة اتحاد ضد الزنكي .

لم ينس فولك الخامس الخدمة التي أداها بنو منقذ لمحبه سابقاً ، ولهذا بحماسة ، كان قد استقبل أسامة الذي استطاع بفضل هذا أن ينفذ المهمة التي كلف بها بنجاح . أعطى أسامة صورة عن الموقف في دمشق ، مؤكداً أن في يد الزنكي الموصل ، حلب ، حمص ، حماة ، وبلبك ، وإذا استولى على دمشق فسيكون هذا تهديداً كبيراً لفرنجة ، ذلك لأن سلطة عاد الدين في سورية ستعظم . لقد عقدت الاتفاقية لصالح الطرفين ، وجاء فيها ما يلي : الفرنجة يقدمون قوة حربية ، ودمشق تدفع لهم

- ١ - في الترجمة الروسية « لكتاب الاعتبار » ، وفي مقدمة ديوان أسامة يسمى ( أئثر ) .
- ٢ - زوجة فولك الخامس كانت ابنة بلغوين الثاني .

مقابل ذلك ( ٢٠ ألف يزنط شهرياً ) ، ويقوتها القاذية بحمل بانياس<sup>(٤)</sup> ، وتأخذها من الزنكي . كان الاتفاق من وجهة نظر حكام دمشق مريحاً ، أما أن يكون الاتفاق صحيحاً أو غير صحيح فهذا شيء آخر . وبعد البدء بتنفيذ الاتفاقية تمكن الممشتقيون من دحر جيش الزنكي ، الحاصر لدمشق في رمضان ٥٣٤/١١٤٠ ، وأخذوا منه بانياس ، وأعطوها للفرنجية . أما أسامة ، فبفضل جهوده السياسية ، قد علا نجمه عند أهالي دمشق والفرنجية معاً . وتنقل أحياناً بحرية كاملة مع الوزير أرتغر<sup>(٥)</sup> في مدن الأفرنج كطبرية ، وعكا ، وبانياس ، متعرفاً على حياة وعادات الفرسان الفرنجة .

ثم أُرسل أسامه أيضاً من قبل معين الدين أرتغر لعقد الاتفاق مع وزير مصر - رضوان الوظلي<sup>(٦)</sup> ، الحارث من مصر ، والمفتش عن ملجأ في صلخد<sup>(٧)</sup> ، والذي يرغب في طلب النجدة من عماد الدين الزنكي .

- ١ - بانياس - مدينة في الاطراف الجنوبية من لبنان ، عند منبع نهر الاردن .
- ٢ - انظر . الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٤٢ .
- ٣ - رضوان السيد الأجل<sup>(٨)</sup> الملك الأفضل . كان وزيراً في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ من ١١٣٧ - ١١٣٩ .
- ٤ - صلخد - مدينة في حوران إلى الجنوب الشرقي من دمشق .

ان إتحاد رضوان وعماد الدين - فيما لوحدت - بجهد صديق أسامة معين الدين أثر . فكان على أسامة أن يفتح رضوان - بمسهم الدخول في هذا الاتفاق ، والامتناع عن تنفيذ الوعد بالسفر الى عماد الدين<sup>(١)</sup> ، وتم الاتفاق على أن يذهب رضوان إلى دمشق ، ويقرض هناك [٣٠.٠٠٠ دينار]<sup>(٢)</sup> ؛ نصفها دواهم ، ونصفها الثاني منتجات زراعية ، ويملأه دار القيسي ، وإمكانية تأسيس ديوان لأصحابه . لكن رضوان خان ذلك ، وعاد إلى مصر ، آخذاً معه جنداً من صلخد .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دربنورغ ، النص العربي ، ص ٢٢-٢٣؛ الترجمة الروسية ، ص ٧٦-٧٧ ويذكر أسامة في « الاعتبار » أن أمين الدولة تكشكين كان في صلخد وقتها ، لكن الإنشباك تكشكين - مؤسس السلالة البورية في دمشق كان قد توفي عام ١١٢٨ ، ولهذا فإنه يوجد في حديث أسامة عدم دقة . من الممكن أن الذي وجد وقتها هناك جوموشكين لا تكشكين .

٢ - حسن إبراهيم حسن في كتابه « تاريخ الدولة الفاطمية » ( القاهرة ، ١٩٥٨ ) يخطئ عندما يكتب « عزل رضوان » ففر إلى الشام وطلب من زكي أتابك الموصل مساعدته ، وكان رضوان ينوي غزو مصر ، ولم يثنه عن ذلك إلا أسامة الذي أوفد اليه من القاهرة ، واسترضاه بثلاثين ألف دينار فدخل عن ذلك « . ذلك لأن لقاء أسامة مع رضوان كان قبيل سفر أسامة إلى مصر .

وعندما بلغ مصر خانه الجند الأتراك ، فالتقى به المحافظ<sup>(٣)</sup> في السجن . لقد صادق أسامة في دمشق معين الدين أثر ، وآزره ونال على ذلك هدايا ثمينة ، حيث يكتب عنها في شعره :

معين الدين ، كم لك طوق من بجيدي مثل أطواق الحمام  
يعبدي لك الاحسان طوعاً وفي الاحسان رق للكرام  
فصار إلى مودتك اتساي وإن كنت العظامي العصامي  
ألم تعلم بأنني لاتساي إليك رمى سوادي كل رام  
ولولا أنت لم يصحب شماسي لقسر دون إعدار الحسام  
ولكن خفت من نار الأعادي عليك فكت إطفاء الضرام<sup>(٣)</sup>

لكن الظروف فيما بعد قد تغيرت ، إذ ظهر منازعوت ومتنافسون لعين الدين منهم أبو الفوارس المسيب بن علي بن الحسين المشهور بابن الصوفي ، الذي فازع معين الدين على سلطته ومكانته ، وبدأ يحرك ضده المؤامرات ، وبدر الفتن والعصيان ، وسمى جاهداً ليصبح وزيراً مكانه . ولهذا فقد

١ - المحافظ لدين الله - لقب الخليفة الفاطمي أبوالمجيد (١١٣٠-١١٤٩).

٢ - عندما توجه أسامة إلى مصر ، كان رضوان لا يزال في السجن.

٣ - أسامة ، الديوان . ص ٢١٩ ،

كان معين الدين بحاجة إلى رجل ، يعرف أكثر عما يعرف أسامة عما يحاك ضد الوزير في الخفاء . إضافة إلى هذا فإن أسامة ذاته قد ملك حسداً ، وأمثاله لا يعدمون مثل هؤلاء الحساد ، الذين حاولوا الإقصاع بينه وبين معين الدين . لقد سمى به الواشون عند معين الدين مما سبب انحراف قلبه عن أسامة ، وصبت على أسامة الحياة في دمشق ، وثبت به السام « أبو الدار بالكریم » حسب كلام العباد الأصمغاني .

أخطر أسامة إلى الرحيل مع أهله إلى مصر ، فودع معين الدين بقصيدة مملوءة عتاباً وشكوى ، شبيهة - من حيث مضمونها - بقصيدة المتنبي - في أيامه - التي كتبها في سيف الدولة عندما قرر السفر عنه بعيداً إلى مصر - إلى كافور ، مع تشابه بين المناسبتين . حتى كانت قصيدة أسامة معارضة لقصيدة المتنبي ، مشيراً فيها إلى الوشاة الذين كان معين الدين قد اعتمد على آرائهم في حكمه على أسامة ، مادحاً معين الدين ، ومذكراً بتلك الحوادث ، التي كان فيها خلاصاً له ومؤيداً لومداً . ثم ينتقل بعد كل هذا ليصور الخطر المحدق به وبجائلته من وقوع في يد الأفرنج ، ويشير إلى أنه لا بأسف على رحيله عن بلد لا تقدره ، لكنه بأسف بألم على فراقه معين الدين ، ويطلب له الصحة والسعادة ورعاية الحياة :

ولوا ، فلما رجونا عنكم ظالموا ، فليتهم حكموا فينا يا علموا  
وبعد ، لو قيل لي : ماذا تحب ، وما هناك من زينة الدنيا قلت : هم

بليغ أميرى: معين الدين، مألوفة  
هل في القضية يا من فضل دولته  
تضييع واجب حقي بعدما شهدت  
وما ظننتك تنسى حق معرفتي  
ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من  
لكن تقانك مازالوا بنشهم  
هنا جئنا ذنوباً ، لا يكفرها  
ألقيتهم في يد الأفرنج متبعماً

من نازح الدار، لكن وده أمم  
وعدل سيرته بين الورى علم  
به النصيحة، والاخلاص، والخدم  
وإن المعارف في أهل النوى ذمم  
وإن أجلب الأعداء، ينصرم  
(حتى استوت عندك الأنوار والظلم)  
عذر، فيما ذجنى الإطقال والحرم  
رضاعداً بسخط الرحمن فعملهم (١)

وهكذا كان أسامة مبعداً<sup>(١)</sup> ، فانتقل من دمشق إلى مصر  
[ القاهرة ] ، وربما لم يكن بتقدير معين الدين أن يتنزه من الرحيل ،  
ويحتفظ به .

« ثم مرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر . فضاغ من حوائج  
داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله . وفرطت في أملاكي ما كان نكبة  
أخرى<sup>(٢)</sup> . كل ذلك والأمر بمعين الدين ... محسن مجمل كثير التأسف  
على مفارقتي مقر بالحجز عن أمري ، حتى إنه أفض إلى كاتبه الحاجب  
محمود المسترشدي ... قال : « والله لو أن نصف الناس معي لضربت بهم  
النصف الآخر ، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين ، وما فارقناك .

## أسامة في مصر

( ٥٣٩ - ٥٤٩ / ١١٤٤ - ١١٥٤ )

١ - عمر موسى باشا في كتابه « أدب الدول المتتابعة » ، يخطئ إذ  
يكتب [ ص ٢٧٥ ] أن أسامة إنفا رحل عن دمشق عندما  
شاهد حاكمها يريد عقد اتفاقية مع الفرنجة ضد الزنكي . والحقيقة  
أن أسامة ذاته عقد هذا الاتفاق باسم حاكم دمشق .

٢ - إن المصيبة الأولى عند أسامة ، كما عدها هو ، حدثت في حصار  
شيزر من قبل البيزنطيين والفرنسيين ١١٣٨/٥٣٢ ( الاعتبار ،  
إصدار درفبورغ ، النص العربي ، ص ٣ ؛ الترجمة  
الروسية ، ص ٤٥ ) .

لكن الناس كلهم قد قتلوا علي ومالي بهم طاقة . وحيث كنت فالتى بيننا من الودع على أحسن حاله ... فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلثين وخمس مائة [ ٣٠ تشرين ثاني ١١٤٤ هـ . ط ١ ]<sup>(١)</sup>.

قدم أسامة القاهرة مع أمه ، وزوجه وأخيه محمد . واستقبله الخليفة بكل مظاهر الاحترام والتقدير ، وأتاح له فرص الحياة المنيشة على خير ما يكون :

نلت في مصر كل مايرتجى الآمل من رفعة مالي وجسام<sup>(٢)</sup>

إنه لمن المحتمل أن يكون رضوان الوطحي قد تحدث عن أسامة في قصر الخليفة مع رجال القصر الكبار ، ولهذا من الممكن أن يكون الجميع في مصر قد رأوا فيه ممثلاً لسورية بقادتها العسكريين ، والتجاهها السياسي .

عاصر أسامة في مصر خليفتين فاطميين : عث في أواخر أيام

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، ص ٣٤٤ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٤٧ - ٤٨ .

٢ - أسامة ، الديوان . ص ٣٦٣ .

الخليفة الحافظ<sup>(١)</sup> ، وعاصر خلافة الخليفة الطاهر .

لم تكن الأحوال السياسية في مصر وقتها مثبته مرضية ، فخلال على أشده بين الخلفاء ووزرائهم ؛ كل منهم يحاول جاهدًا نكاته الآخر ولهاهم . المؤامرات المتلاحقة الدائمة بمشاركة الجيوش قادت إلى إضعاف الاقتصاد في مصر ، مما أدى إلى أن قلب السكان الكثير من هذا .

لم يشارك أسامة في البداية في هذه الأحداث الانقلابية . ونعتقد أنه كان حذرًا ، لم يرد المشاركة في أعمال لم يعرف نتائجها . فرغم قربيه ومكانته عند الخليفة الحافظ لم يحرك ساكنًا لتخفيض عن رضوان الوطحي ، الذي قله الخليفة ، بعد أن حلول الفرار من السجن . ربما أن أسامة قد أراد مقتل رضوان ، ذلك لأنه قد أخذ بشروط اتفاقه معه في سورية .

وحدث بعد ذلك انقلاب عسكري ، مات بعده الخليفة الحافظ ، وغدا خليفة البلاد ابنه الأصغر أبو منصور اسماعيل - الطاهر بالله<sup>(٢)</sup> ،

١ - يكتب ابن خلكان [ ص ٨٨ - ٨٩ ] عن قدوم أسامة إلى مصر في عهد الخليفة الحافظ الذي قدره وقدم له إمكانية العيش الهادئ ، لكنه يؤكد - خطأ - أن أسامة قد نظم مؤامرة ضد هذا الخليفة .

٢ - لقد كان لهذا الخليفة الفاطمي ( ١١٤٩ - ١١٥٤ ) من العمر وقتها ثمانية عشر عامًا فقط .

الذي عين وزيره نجم الدين بن مصال ، فلم يرق ذلك للأبى سيف الدين أبي الحسن علي بن السلاار وإلى الاسكندرية ومنها ، الذي دخل القاهرة بجنده ، واستولى على قصر الوزير ، وقرب منه أسامة ، وأمسكه في بيته . وتمكن بمساعدة ابن زوجته<sup>(١)</sup> عباس وابنه [ ابن عباس ] ناصر الدين وأسامة أن ينهي ابن مصال ، ويستلم من الكليفة منصب الوزير<sup>(٢)</sup>.

## أسامة سفير إلى سورية

عندما غدا ابن السلاار وزيراً وجه على اهتماماته للوقوف بوجه الافرنج ، الذين بدأوا يهددوا مصر . لقد سمى لتوحيد مصر وسورية الحاربة الافرنج وتقاتلهم في فلسطين ، وانما في حيايه على الاحتمالات العسكرية والديبلوماسية . فأرسل أسامة إلى دمشق ؛ إلى نور الدين الزنكي مع اقتراح بالطلب من الزنكي مهاجمة الافرنج في طبرية<sup>(١)</sup> ، على أن يهاجم المصريون في ذات الوقت غزة لأن الافرنج بدأوا يهددها ، ثم التوجه لحاصرة عسقلان<sup>(٢)</sup> .

سافر أسامة ليعمل على تنفيذ مهمته سفارته في عام ١١٥٠ ، آخذاً معه [ ٦٠٠٠ دينار مصرية ] بأوامر ان يطعها إلى نور الدين ، فيها إذا هاجم طبرية ، أما إذا لم يتمكن من مهاجمتها ، فقل أسامة أن يجمع

١ - مدينة في شالي فلسطين .

٢ - في هذه الفترة كانت عسقلان في الحكم لا تزال تابعة للخلافة الفاطمية ، وكانت آخر حصن للحكم الاسلامي في فلسطين . ووقعت تحت سيطرة الصليبيين لأول مرة عام ١١٥٣ ، في عهد حكم بلدوين الثالث ، حاكم بيت المقدس .

١ - أم حاكم بليس - عباس [ بلارة ] في زواياها الثاني كانت زوجة ابن السلاار .

٢ - عن هذه الحوادث انظر ( أسامة ، الاعتبار . ص ٦ ) .

جيشاً تحت إمرته ، ويتقدم به إلى عسقلان ، منتظراً أوامر ابن السلالر .

وصل أسامة إلى بصرى<sup>(١)</sup> بعد أن تعرض في طريقه إلى عذاب شديد كاد يؤدي بجميع المال الذي معه ، والتقى هناك بأسد الدين شيركوه<sup>(٢)</sup> .  
- قائد جند نور الدين ، ثم سافرا بعد ذلك إلى دمشق لأجراء المعاهدات مع نور الدين . لكن جواب نور الدين على مقترحات مصر الذي قاله لأسامة كان : « فقال لي : يا فلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج<sup>٣</sup> أعداء ، ما آمن منها إذا دخلت بينها » . عندئذ طلب أسامة من نور الدين السماح : « بأن أدين من عرومي الجند قوماً أخذهم وأرجع ، ونفذ معي رجلاً من أصحابك في ثلاثين فارساً ليكون الاسم لك » . وتلقى موافقة نور الدين التالية : « قل : « أفضل » . فديوت إلى الاثنين الآخر ثمان مائة وستين فارساً وأخذتهم ، وسرت في وسط بلاد الافرنج<sup>٤</sup> نزل باليون وزحل باليون<sup>(٥)</sup> . توجه أسامة بعدها إلى عسقلان ، وأمضى هناك أربعة شهور محارباً الافرنج بمساعدة أخيه عز الدولة أبي الحسين<sup>(٦)</sup> .

١ - مدينة قديمة في حوران إلى الجنوب من دمشق .

٢ - قائد جند نور الدين الزنكي ، وعم صلاح الدين الأيوبي المشهور عند الأوروبيين باسم «صلاح الدين» .

٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دوتنورغ ، النص العربي ، ص ١٠ ؛ حتي ، ص ١٤ - ١٥ .

٤ - هو الأخ الأكبر لأسامة ، كان قد ترك شيرز معه وعاش في دمشق ، ومنذ عام ١١٤٤ في عسقلان ، حيث قتل هناك عام ١١٥٢ .

وجنسه ، الذين قدموا معه من دمشق . وانضباعاً لأوامر ابن السلالر غادر أسامة عسقلان عائداً إلى مصر ، تاركاً فيها أخاه ، حيث عاش أسامة بعد ذلك خمس سنوات في مصر / ٥٤٤ - ٥٤٩ / ، مشتركاً في الشؤون السياسية ، والانقلابات العسكرية ، التي عانت منها مصر كثيراً في تلك الفترة .

حسب رواية ابن ميسر قام أسامة بمبادرة بتجريس عباس<sup>(١)</sup> على علم أن يستخدم منزلة ابنه ناصر الدين نصر لكونه عشيق الخليفة<sup>(٢)</sup> . وبعد حصول ناصر الدين على موافقة الظافر ، بشكل خياني دخل إلى بيت ابن السلالر : « احتز رأسه ، ومضى به إلى الظافر بالقصر<sup>(٣)</sup> » . كان هذا - حسب رواية أسامة - يوم الخميس في ٦ محرم لعام ٥٤٨ هـ . وبعد سبع عباس بقتل ابن السلالر ( المائل ) دخل القاهرة وأصبح وزيراً فيها .

يضم من هذه الرواية أن أسامة إنما أقنع وحرض عباساً على قتل ابن السلالر واحتلاله مكانه . وعلاوة على هذا فإن الظافر لم يحب ابن

١ - لقد كان حاكم بليس ، المدينة الرئيسية في المنطقة الشرقية إلى الشمال الشرقي من القاهرة ، حيث كانت هناك المراكز البرية الأساسية للدفاع عن مصر ضد الصليبيين .

٢ - ابن إيس ، تاريخ مصر ، ٦٥ .

٣ - ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص ٩٢ .

السلار كما قال ذلك أسامة :

« كل ذلك والظافر منحرف عنه [ عن ابن السلار . و . ط ] ،  
كارمله ، مضمر له النحر ، فعمل على قتله ، وقرع مع جماعة من صبيان  
الخاص وغيرهم من استمالتهم وأنفق منهم أن يهجموا داره ويقتلوه » (١) .

ويرى ابن الأثير أيضاً في كتابه « الكامل » أن أسامة هو  
ذلك الرجل الذي زين لباس مقتل العادل زوج أمه . وهذا ما يقوله  
ابن خلكان مع التشديد على اشتراك أسامة بهجرته على قتل  
ابن السلار (٢) . أما أسامة ذاته فلا يعترف بأي شيء من هذا في حديثه  
عن هذه الحادثة . إنه يتحدث ملفياً التهمة على نصر الذي دبر هذا  
بالاتفاف مع الظافر ، ولا يشير أبداً إلى معرفته بهذا أم لا (٣) .

إن آراء ابن ميسر ، وابن الأثير عن أمراء مصر واستيشارهم  
أسامة بعد مقتل ابن السلار متفقة ، إذ يفترضان أن أسامة لعب دوراً  
رئيسياً في مقتل ابن السلار ، حتى إن ابن ميسر يجيز بأن أمراء مصر  
قد أخذوا بأمره بقتل أسامة ذاته .

ويؤيد أسامة في برأته بعض البجاة العرب المعاصرين كصطفى

- ١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٦ .
- ٢ - ابن خلكان . ١ ، ص ٥٢٨ .
- ٣ - أسامة الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٠٣ .

حجازي (١) ، وأحمد شاذلي (٢) . ونعتقد - نحن شخصياً - أن أسامة  
كان قد شارك في مقتل ابن السلار بلا شك ، وأكثر من هذا ، كان  
أسامة قد فقد تماماً ثقة وزراء مصر بعد سفره منها إلى سورية (٣) .

اتفق الجميع على أن نصراً قد قتل ابن السلار . وبعد قتله  
ابتد كل الأمراء عن نصر وقطعوا علاقتهم به إلا أسامة الذي - خلافاً  
لهم جميعاً - تابع صداقته معه كما يكتب عن ذلك هو نفسه قائلاً :  
« وأنا مع ابن عباس ( نصر . و . ط ) لا يفسح لي في الغيبة عنه  
ليلاً ولا نهاراً : أئتم ورأسي على رأس عنقه » (٤) .

ومن جهة أخرى فإن جند أسامة بالسفر إلى سورية ، تاركاً  
عائلته في مصر ، إنما هو دلالة أكيدة على أنه قد خشي تأثر الأمراء ، غير  
عارف كم سيأتي صديقه طالع في السلطة . هذا يجعل ما يدغمنا لتأكيد  
على مشاركة أسامة في المؤامرة والقتل .

بعد مشاركة أسامة في قتل ابن السلار ، يشارك في مؤامرة

- ١ - المنازل ، ص ٤٦ . يرى حجازي أن ما يؤكد براءة أسامة هو  
المراسلات الشعرية بينه وبين ابن رزيك ، والاحترام المتبادل بينهما .  
[ انظر فيما بعد ، ] .

- ٢ - باب الآداب ، المقدمة ، ص ٢٣ .

- ٣ - 6 Nikita Eliseeff, Nur ad-Din, p. 577.

- ٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٤ .

أخرى ضد الخليفة الظافر . ويثير ابن ميسر بأن أسامة قال لبياس :  
« كيف تصبر على ما يقول الناس في ولدك ، واتهامهم له بأن الخليفة  
يفعل به ما يفعل بالنساء »(١) . وبالفعل كان ابنه نصر ملازماً للخليفة ،  
ومعاشراً له(٢) .

حسب إخبار ابن ميسر وابن الأثير كان عباس قد طلب نصحاً من  
أسامة ، وهذا أشار عليه أن يقتل الخليفة الظافر بمساعدة نصر . لكن  
أسامة لم يورد شيئاً عن دوره في القتل ، مورداً بعض الظروف التي  
لا إشار إليها في المصادر التاريخية الأخرى . إنه - بقصد تبرئة عباس -  
يقول بأن الظافر نفسه كان قد أقنع نصرًا بقتل أبيه ، ووعدته بمنصب  
الوزارة لقاء ذلك . ونصر بدوره حدث أسامة عن هذا ، لكن أسامة  
أجابته : « فقلت ( مخاطباً نصرًا ) . و . ط : ، يا مولاي ، لا يستترك  
الشیطان وتنخدع لمن يترك . في قتل والدك مثل قتل المادل . فلا تفعل  
شيئاً تلحق عليه إلى يوم القيامة . فأطرق ، وقاطعني الحديث . وغشا .  
فأطلع والده على الأمر ، فلامفه ، وأستله ، وقرر معه قتل الظافر »(٣) .

١ - ابن ميسر ، أخبار مصر . ص ٢٢ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دريبروغ ، النص العربي ، ص ١٤ ؛  
ابن إلبس ، تاريخ مصر ، ص ٦٥ .

٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دريبروغ ، النص العربي ، ص ١٥ ؛  
حتى ، ص ، ١٩ - ٢٠ .

هذه هي رواية أسامة عن الحادث ، وبهم منها أن مقتل الظافر  
إنما كان بتدبير عباس وابنه بدون مشاركة أسامة في الأمر . لكن ابن  
تقري بردي ( توفي عام ٨٧٤ / ١٤٦٩ - ١٤٧٠ م ) يؤيد رأي ابن  
ميسر وابن الأثير عن اشتراك أسامة في هذا القتل .

لقد قتل نصر الظافر يوم الخميس ليلة ٥ هـ ، وألقاه  
في بئر في دار القصر واتهم عباس أولاد الخافظ في مقتل الظافر ، وبدأ  
بقتيلهم . فاقسم الجيش إلى أحزاب ، وبدأت بالقتال فيما بينها . أما بنات  
الخافظ فقد كاتبن طلائع بن رزيك(٤) ، ملايات منه الموت . فاستعد  
عباس لهذا وخرج من القاهرة ، لكن جيشه قد عصاه ، ووقف ضده ،  
ووقعت معارك حامية فاسية في شوارع القاهرة بعضها أسامة هكذا :  
« وقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة : خيالتهم تقتلنا في الطريق ،  
ورجالهم يرموننا بالنشاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء والصبيان  
يوموننا بالحجارة من الطاقات . ودلم بيننا وبينهم القتال من ضحي النهار  
إلى العصر . فاستطاع عليهم عباس وفتحوا أبواب القاهرة وانزمووا . وحقهم  
عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره

١ - ابن تقري بردي ، النجوم الزاهرة . إصدار دار الكتب ، ج ١ ،  
ص ٢٨٨ - ٢٩٦ .

٢ - في هذه الأثناء كان حاكماً لشمرية ، في الدلتا العليا ، بالقرب  
من القاهرة .

ونبيه<sup>(٩)</sup>.

لقد وعى عباس حقيقة أساسية وهي أن جميع من في مصر يكن له البنفس والحقد ، فلهي ألا يبقى فيها . ولذا فقد عزم على السفر إلى سورية لطلب مؤازرة نور الدين الزنكي . أما أسامة فقد كانت له صداقة قديمة قوية مع ابن رزيك ، وفي هذه الاثناء تبادلوا الرسائل ، وبث له ابن رزيك رسالة تشييه عن السفر ، طالباً منه البقاء في القاهرة ، راثياً في أن يكون أسامة مساعده .

ولا بد من الإشارة الى أن ابن رزيك لا يعتبر أسامة مشتركاً في مقتل الطائر ، بل على العكس يبرئه . فبعد أن يكلم في قصيدة شعرية له عن عباس وابنه ويجرمها في قتل الطائر ، متشفياً بقتلها ، بعد هذا يقول ميراثاً أسامة :

وحاشاكم ، ماختمتم العهد مثله ولا لكم فيما جرى منه من ذنب  
ومن مثل ما قد نالكم من دنوه يحاذر أن تدنو الصحاح من الجرب

إننا زى أن في هذين البيتين الدليل الآخر أيضاً على اشتراك أسامة في قتل الطائر ، أو في التحريض على ذلك القتل : التلث العربي

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دربنورغ ، النص العربي : ص ١٦-١٧ ؛ إصدار حتي ، ص ٢٢ .

يقول : « لا دخان بلا نار » ، « والذي لا يأكل ثوماً لا يظهر رائحته ».

فمحاولة ابن رزيك تجربة أسامة إنما تدل على أن القصر على اطلاع كامل على أعمال أسامة ، وفيه تكلموا كثيراً عن مشاركة أسامة . ولقد أكد ابن رزيك - من حيث لا يدري - خوف أسامة من القصر ، ذلك لأن القصر يعلم عن أسامة أكثر من ابن رزيك الذي لم يكن فيه وقت تلك الأحداث . وعلاوة على هذا فإن أسامة قد دعم عباساً ، وساعده حتى كان قد أودى بحياته في المعارك التي حدثت نتيجة قتل الطائر في شوارع القاهرة .

حتماً ، لقد كان عباس عالماً بلاقة أسامة بابن رزيك - علاقة الصداقة ، فأراد استخدام هذه الصداقة في أخرج الأوقات صعبة . وعندما قرر السفر إلى سورية ، صمم على أخذ أسامة معه معها كفه ذلك ، وعلى أخذ عائلة أسامة أيضاً كيلا يبقى له اتصال بمصر . وأقنع أسامة بالسفر ، فخرجا من القاهرة ، ولكن عندما وصلا إلى بلبس شاهد أسامة الطريق محفوفة بالمخاطر ، ولذا أعاد عائلته إلى ابن رزيك ، الذي استقبلها استقبالا حاراً راثياً ، فأسكنها القصر ، وقدم لها كل ما تحتاجه في الحياة الجديدة .

وخرج عباس وابنه وأسامة مع قسم من الجيش إلى دمشق في عام ١١٥٤/٥٤٩ . كان زاماً عليهم أن يمروا بمنطقة واقعة تحت نفوذ الافرنج : « وسراً إلى يوم الأحد ثالث وعشرين ربيع الاول . فصبحنا

الافرنج في جميع على التويلج<sup>(١)</sup> . قتلوا عباساً<sup>(٢)</sup> ، وابنه حسام الملك ، وأسروا ابيه ناصر الدين وأخذوا خزانته وحرمه . وقتلوا من ظفروا به<sup>(٣)</sup> . لقد أخذوا في الاسر أيضاً أخا أسامة نجم الدين أبا عبدالله . أما أسامة نفسه فقد هرب طيراً وادي موسى<sup>(٤)</sup> ، وبلغ دمشق ، لكن ابن تيري بردي يخبر بأن أخت الظاهر كانت الافرنج في عسقلان، وأعدة إياهم بكمية كبيرة من المال إذا قتلوا عباساً ، فقتلوه وأخذوا هذه الدراهم؛ بعد ذلك طلب ابن رزيك من الافرنج أن يعطوه نصر بن عباس وأعطاهم

١ - مستنقض ( مستنقذ ) بين سحراء سيناء ومرقعات السعودية .

٢ - هذا يخالف اخبار ابن إياس في كتابه د بدائع الزهور ، (ص٦٦) حيث يقول :

« كان للفاخر من العمر ٦ سنوات عندما ولاء عباس الخلافة بعد أن قتل أبيه . هرب عباس إلى الشام ، وفي أثناء الطريق خرجت عليهم طائفة من الافرنج فألصقوه ، وأرسل طلائع إلى طائفة الافرنج الذين أسروا الوزير عباساً بطلبه منهم . فأرسل الافرنج عباساً وولده نصرًا إلى طلائع وهما في الحديد فأمر الفاخر بأن يعصب الوزير وولده نصر على باب القصر فصلبا » .

٣ - الاعتبار . إصدار حتي ، ص ٢٧ .

٤ - وادي موسى واد في شبه الجزيرة العربية .

على هذا كمية كبيرة من الدراهم<sup>(١)</sup> . وقلم نساء الظاهر بغيره بالقباب والوزرايل أيضاً ، وقلمن لجه وأعلمنه يله إلى أن مات ثم صلب<sup>(٢)</sup> .

وهكذا زى أن حياة أسامة في مصر كانت هادئة في البدء ، بعيدة عن الصراعات السياسية ، ثم غدت - بالتدريج - أكثر تنقيداً وصراعاً . حتى شارك في مؤامرات القصر التي كانت تؤدي بجهاته ؛ نهت داره ، وعاش حياة قاسية ، وقضى الكثير من الصعوبات ، ولذا قرر السفر من مصر حتى لا يعود إليها بعد ذلك . لقد جاء في شعره ما يلي :

هب أن مصر جنان الخلد ما اشتبهت إلا نفوس فيها من اللذات موجود  
ماذا انتفاعي إذا كانت زغاريفها موجودة ، وحبيب النفس مفقود  
وما الحياة لمن بانت أحتبه رضا ، ولا هو في الأحياء معدود  
ويكتب في مكان آخر أيضاً :

١ - يقول نيكيتا ليبييف بأن ابن رزيك أعطى الافرنج (٦٠٠٠٠) دينار ، انظر :

Nur ad - Din, p. 497

٢ - ابن تيري بردي ، النجوم الزاهرة . ص ٣١٠ - ٣١١ .

خمسون من عمري مضت، لم أتمتع فيها ، كأني كنت عنها غائبا  
وأنت عليّ بمصر عشر بعدها كأت عظمت كلها وتجاربها  
شاهدت من لعب الزمان بأهلها وتقلب الدنيا الرقوب عجائبا (١)

## اقامة أسامة الثانية في دمشق

( أسامة ونور الدين )

( ٥٤٩ - ٥٥٩ / ١١٥٤ - ١١٦٤ )

لقد دخل أسامة دمشق يوم الجمعة (٥ ربيع الثاني ٥٤٩/ ١٦ حزيران ١١٥٤)<sup>(١)</sup> ،  
بعد أن قطع مع بعض مرافقيه طريقاً شاقاً صعباً . أما دمشق فقد عاشت  
حينئذ حياة هادئة تحت ظلال سلطة نور الدين ، الذي وحده جميع  
سورية ؛ فلم تمد هناك المداوات بين الأمراء الكثر ، وضعفت كثيراً  
التوترات السياسية ، كما ان الكثير من أولئك الذين هاجروا في عهد  
الحكم السابق عاد إلى دمشق في عهد حكم نور الدين<sup>(٢)</sup> ؛ وبين أولئك  
المائدين كان أيضاً أسامة ، الذي عاد بعد عشر سنوات غياب في الغربة  
وهو الآن في الستينات من عمره .

لقد استقبل أسامة نور الدين استقبالاً حاراً ، وأُسكنه قصره . لم

١ - أسامة الاختيار . إصدار دربنورغ ، النص العربي ، ص ٢١ .

N. Eliseeff, Nar ad-Din, p. 487

١ - أسامة ، الديوان . ص ٢١٥ . [الرقوب : التي لا يعيش لها ولود] [ولد] .

يكن الآن ابن الصوفي ( توفي في ربيع الأول ٥٤٣ / ١١٥٤ )  
منفص أسامة في عهد أنور . لكن ابن رزيق ، مستخدماً الصداقة  
القوية بينه وبين أسامة ، تابع مساعيه في إقناع أسامة بالعودة إلى مصر ،  
أما إذا « كان لا يرغب في حياة القصر » فقد وعده بإعطائه حكم أسوان .  
لقد حدثت أسامة بهذا نور الدين ، فصرحه هذا بأن يبقى بعيداً عن  
مصر ، مذكراً بأنه بصومية شاقة قد نجح من صعوباتها وشاكلها ، وحفظ  
حياته ، ووعدته بأن أخذ له من الأفرنج السلاح بنقل عائلته من مصر  
ضمن أراضيه . وعندما فقد ابن رزيق الأمل بعودة أسامة إلى مصر  
أرسل له عائلته رغم محاولات الأمراء لابقائها كرهينة ، كيلا يحاول  
أسامة بعد توجيه نور الدين ضد مصر ، ولتبقى عائلة أسامة ورقة رابحة  
يد الأمراء ضد أسامة .

وصلت عائلة أسامة وأقرباؤه معها ، وجميعهم خمسون شخصاً ،  
إلى ميناء عكا<sup>(٢)</sup> الذي كان حينئذ في يد الأفرنج . حطمت السفينة التي  
انقلوا عليها - بأوامر ملك الأفرنجية - ، وسلب كل شيء كان معهم ،  
حيث بلغت قيمته التقريبية ( ٣٠٠٠٠ ) دينار ، بما في ذلك مكتبة  
أسامة المؤلفة مما لا يقل عن ( ٥٠٠ ) مجلد ، تاركين لهم فقط ( ٥٠٠ )

- ١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٢٥ .
- ٢ - ميناء إلى الشمال من إفا ، مشهور في الوثائق الأوربية بـ  
«Sen-Jan d'Akr»

دينار ثم وجوههم إلى دمشق .

لقد كان أسامة ، في هذه الأيام ، مع نور الدين في أرض  
المسعودي<sup>(١)</sup> . وكتب أسامة بمناسبة هذه الحادثة ما يلي : « وكنت إذ  
ذاك مع الملك المسائل في بلاد الملك مسمود رعيان وكيسون .  
فرون علي سلامة أولادي وأولاد أخي . وجرمنا ذهب ما ذهب من المال ،  
إلا ما ذهب لي من الكتب ، فلما كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب  
الفاخرة . فان ذهبها حرازة في قلبي ماعشت<sup>(٢)</sup> » .

وكتب الشعر التالي بهذه المناسبة أيضاً :

إلى الله أشكو فرقة دهميت لها جفوني وأذكت بالهموم ضميري  
تمادت إلى أن لاذت النفس بالنسي وطارت بها الأشواق كل مطير  
فأما قضى الله اللقاء تعرضت مساءً دهرى في طريق سرورى<sup>(٣)</sup>

- ١ - على الحدود بين كيليكيا وبلاد الرافدين . ومسمود هذا من السلالة  
التي تدعى « السلاجقة الروم » ، التي حكمت عدة مناطق في آسيا  
الضخمة ( تقريباً حتى ١١٥٦ ) .
- ٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٢٦ ؛  
إصدار حتي ، ص ٣٥ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٨١ - ٨٢ .
- ٣ - أسامة ، الديوان . ص ٧٦ .

قرر أسامة - وهو في دمشق ، غير بعيد عن شيزر - زفارة وطنه أيام بعد فراق دام قرابة ثمانية عشر عاماً . وحضر فيها تنويع ابن عمه على العرش - ناصر الدين محمد بن سلطان ، وأعداده قصيدته التي يدونها بقوله :

يا ناصر الدين، يا ابن الأكرمين ومن يغني ندي كفه عن وابل الدم<sup>(١)</sup>

ويطلب فيها من ابن عمه أن يفتدي أخاه نجم الدين من الفرنج ، لكن ناصر امتنع عن هذا مما أدى إلى توتر العلاقة بينها ، رغم جميع محاولات أسامة أن يبقى في صداقة مع ناصر الدين والمقرين منه ، ذلك لأنه كان مؤمناً على الدوام ، بالمحافظة على علاقات قوية متينة مع أصدقائه ، وبخاصة أقربائه .

لكن القدر كان قد خبأ له مفاجئة كبيرة ، ومصيبة فادحة ، حيث لم يمض عامان على وجوده في دمشق حتى حدثت الزلازل الممادية في عام ١١٥٧/٥٥٢ ، التي هدمت كثيراً من مدن سورية بما فيها شيزر ، وقضي تقريباً ، على جميع أقربائه .

لقد اجتاحت شمال سورية هزتان أرضيتان عنيفتان في مدة عشرة أيام من ٢٥ جمادى الأولى إلى ٤ جمادى الثانية . وبعد ٩ شعبان / ٢٧ أيلول ١١٥٦ أسابت الزلازل حلب ، وحوض نهر المصي . وبجسب

١ - أسامة ، الديوان . ص ١٤٩ .

إخبار ابن خلكان حدثت سبعة زلازل ، أضرها وأقواها دمر حلب وكفر طاب وأغلبا وشيزر وحماة وحمص . وبشير أيضاً إلى زلزال فوي حدث في رجب ١١٥٧/٥٥٢ .

في هذه المرة الأخيرة تحطمت وتهدمت جميع البيوت والقلاع والحصون الحربية التي كان قد أسسها الملب فقط في الزلازل السابقة . وتوفي معظم السكان أو هاجروا إلى القرى ، وأضر هذه الزلازل كانت في حماة وشيزر ؛ وفيها قتل أحد شعراء تلك الحقبة :

روعتنا زلازل حادثات بقضاء قضاء رب الساء  
هدمت حصن شيزر وحماة أهلكت أهله لسوء القضاء

كان في هذه الأثناء ، في حصن شيزر ، حفل عائلي : لقد اجتمع جميع بني متقذ لقيموا حفلة ختان ابن تاج الدولة محمد بن سلطانت . وكان أحد الحصن مربوطاً في مدخل القلعة ، فعندما بدأ الزلازل اضطرب الحصان ، وهاج . وفي هذا الوقت أراد أحد الضيوف الخروج فترك القاعة إلى الدهليز حيث الحصان الهائج ، فقتل بضربة من رجل الحصان ، وسد المخرج بالحصان والفتول<sup>(٢)</sup> ، اللذين علقا المنعمين في القاعة من الخروج . لقد قتل الجميع تحت الانقراض عدا الخاتون - زوجة

١ - أبو شامة ، ص ١٠٣ - ١٠٥ .

الأمير تاج الدولة التي أتت من تحت هذه الأقباش<sup>(١)</sup> ، وأولئك الذين كانوا خارج شيز مثل أسامة وابنه أبي الفوارس ، وأخيه<sup>(٢)</sup> ، وشرف الدولة ابن سلطان سهر الخاتون .

لقد كتب أسامة قصائده المصبوعة دماً ودموعاً ، يكي فيها النصاب والنكبة وفقدان الوطن والأهل ، الذين هلكوا دفعة واحدة . تاركين له الحزن والألم والأسى<sup>(٣)</sup> . لقد يجد في هذه القصيدة عزهم ،

١ - ابن خلصان ، فوات . ص ١٠٣ ص ٥٢٣ ؛ ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، VIII ، ٢٣٨ - ٢٢٩ ؛ الاعتبار ، المقدمة ، إصدار حبي .

٢ - نيكيتا بليسييف يخطئ ، إذ يقول : « لقد نجح فقط زوجة الأمير ، وصهرها شرف الدولة ابن سلطان وأسامة » . من المشهور أن ابن أسامة أبا الفوارس كان في دمشق قائداً عسكرياً عند صلاح الدين الذي حكمها فيما بعد .

٣ - أسامة ، الديوان . ص ٣٠٧ . قال أسامة :

قالوا : نأس ، وما قالوا : نحن ، وإذا أفردت بالرز ما أنفك أسوانا  
ما استدريج الموت قوماً في هلاكهم ولا تنخرتهم مثنى ووجداننا  
ما تواجعنا كرجع الطرف وانقرضوا هل مآرى تارك للعين إنساننا  
يقول بالظن إذ لم يدر ما خلقي ولا محافظتي من حان أوباننا :

وذكر مجدم القديم ، وأسف لحياته بعدهم ، إذ إنه يبحث عن الواساة ويدفع عن نفسه ظن من يظن ثنائه بأقربائه في هذه الكارثة ، ثم ختم القصيدة بالدعاء لهم .

ترك هذا الحادث المؤلم صدى قوياً في شعره ، فأقضى مضجعه ، وخلده شعراً بانساً حزيناً أسود ، تنبث فيه روح الحكمة والتصبر والواساة ، وكان بداية حزينة مؤلمة ، ودافعا أساسياً لانتاج أدبي قيم هو كتاب « التنازل والديار » .

أما صلة أسامة بالملك الصالح طلائع بن رزيك ، فقد بقيت مستمرة على أحسن حال ، وعندما قطع الأخير الأمل بقدم أسامة إليه ، إلى

أسامة لم يسوه فقد معشره كم أغروا صدره غيظاً وأضمانا  
وما درى أن في قلبي لفقدهم ناراً تلطسى وفي الأجفان طوفانا  
بنو أبي ، وبنو عمي ، دمي دمهم وإن أروني مناواة وشنا  
كانوا سيوفي ، إذا نازلت حادثة وجنتي ، حين التقي الخطب عرياننا  
سقى ترى أودعوه رحمة ملأت مثنوى قبورهم روحاً وربحانا  
[ الأسوان : الحزين ؛ تخريمهم : استأصلهم ؛ حان : هلك ؛  
الأضمان : جمع ضنن وهو الحقد ؛ الشنا : البغض ] .

مصر ، بدأ بكتابه رسائل شعيرة تنضح وداً مكينا بينها ، وأعجاب كل منها بصاحبه اكبر الاعجاب . فمضت قصائد الصالح إلى أسامة تدعوه إلى مصر حيناً ، وتغيب عليه إثارة البلد عنها حيناً آخر ، وتأخذ عليه أحياناً ، قلة مراسلاته . وكثيراً ما حدثته الصالح بمواقف من حروب مع الأفرنج ، وطالب منه أن يكون وساطته عند نور الدين كي يجتمعا على حرب الصليبيين . وشارك الصالح أسامة فيما نزل به من أحداث قلبية في حياته . وكان ممجياً بمواهب أسامة في الحرب والسلام ، يراه محارباً شجاعاً ، وشاعراً منلقاً ، وخطيباً بارعاً ، وحكيماً في إبداء الرأي . قال طلائع :

وجهاد العدو بالفعل والقول ، على كل مسلم ، مكتوب  
ولك الرتبة العالية في الأم ، مذكنت إذ شبت حروب  
أنت في الشجاع ، مالك في الطم ، ن ولا في الضراب يوماً ضريب  
وإذا ما حرصت فالشاعر في حما ، تقوله والخطيب  
وإذا ما أشرت فالحزم لا ينكر أن التدبير منك مصيب

بالإضافة إلى علاقات الصداقة والود بين ابن رزيك وأسامة ، فقد تركز هدف ابن رزيك السياسي أن يقوم أسامة بدور الوسيط يقنع نور الدين الزنكي بالانفاق معاً على حرب الصليبيين في وقت واحد حتى تنتشت وجنة الصليبيين ، وفي نظره أن أسامة خير من يعمل عبء هذه الرسالة :

والق عنا رسالة عند نور الدين ، ن ما في إلثائها ما يريب  
قصداً أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرتنا مضروب  
ويقول أيضاً :

فلو أن نور الدين يحل فعلنا فيهم مثالا  
لرأيت للأفرنج طرراً في معاقبها اعتقالا

لكن سياسة نور الدين في هذه الآونة كانت سياسة التريث ، وذلك لأنه كان منشغلاً بتبتيق وتوطيد سلطته في سورية ، والوقوف بحزم ضد الصليبيين ، وبخاصة في المناطق الشمالية منها . ففي انطاكية - مثلاً - كانت القوة الكبيرة للأفرنج ، لذلك فإن نور الدين لم يفكر في بيست القدس ، وفي مصر ، التي كانت بعيدة عن سلطته . وكانت وساطة أسامة عنده ، كما يرى بوضوح ، غير ناجحة ، لذلك فإن أسامة يتباطأ في الرد على مراسلات ابن رزيك ، الذي يشكو منه هذا التباطؤ ، وعدم التأثير على نور الدين . ويكتب ابن رزيك في هذا قافلاً :

قل لابن منقذ الذي قد حاز في الفضل الكمالا  
كم قد بعثنا محوك الأشار مسرعة عجالا  
وصددت عنها حين را مت من عاسنك الوصالا

هلا بذات لنا مقاً لا حين لم تبذل فعلاً  
مع أننا نوليك صبراً في المودة واحتلالاً  
فاجبه أسامة راداً على عتبه ، مشيراً إلى رغبته في الوحدة ،  
وحدة القوى السياسية والمسلحة<sup>(١)</sup> .

إن المصادر التاريخية لا تتحدث شيء ، ولا تشير إلى اشتراك  
أسامة في غزوات نور الدين ضد الصليبيين ، ولعل ذلك لأن أسامة في  
هذا الوقت كان قد ناهز السبعين . لكن أبو شامة ، معتمداً على اقتباسه  
من ابن الأثير ، يشير عن مشاركة أسامة في حصار حارم في نهاية عام  
١١٦٢/٥٥٧ ؛ وإنه ( أسامة . و . ط ) كان من الشجاعة التي  
لا مزيد عليها<sup>(٢)</sup> .

ويشير أبو شامة إلى أن أسامة وهو غائد من هذه الحملة ، دخل  
أحد المساجد في حلب ، وكسب على جدرانها الأشعار التالية ، التي  
تحدثت عن مشاركته في الحملة ، وزيارته لهذا المسجد في العام الماضي، وهو  
في طريقه إلى الحج :

- ١ - من أجل التفصيل في هذه المراسلات الشعرية ، انظر : أبو شامة ،  
ج ١ ، ص ١١٥ - ١٢٠ .  
٢ - أبو شامة ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

لك الحمد يا مولاي ، كم لك مثمة عليّ ، وفضلاً لا يقوم به شكري  
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً من الغزو، موفور النصيب من الأجر  
ومنه رحت العيس في عالمي الذي مضى نحويت الله ذي الركن والحجر<sup>(١)</sup>  
فأديت مفروعي ، وأسقطت ثقل ما  
تحملت من وزر السنين على ظهري<sup>(٢)</sup>

سن السبعين نقطة تحول خطيرة في حياة أسامة . إنه يصصف  
ضفة الشدبد فيها ، حيث إن السبعين لم تترك له أملاً في القتال ،  
وحطمت قواه وأوهنتها ، رغم أنه شهد المارك الفروس التي تمتدنى لو  
قتل في إحداها ، فكان ذلك القتل أفضل له من أن يعيش عاجزاً ،  
لأن القتال في المعركة أفضل للإنسان من أن يهرم وبشيخ .

عاش أسامة حياة طويلة مليئة بالحوادث والشجاعة والقوة وكانت  
سيفه دائماً الشاهد الأصدق على شجاعته في المارك ، والآن - في  
السبعينات - بكل أسف وألم ، يتذكر أيام الماضي المملوءة بالانتصارات  
والبطولات ، بالقوة والمجد والشهرة ، خلافاً لحالته الراهنة . إنه بشدة

- ١ - الحجر - مكان محدد في جامع مكة المكرمة الى الشمال الغربي من  
الكنية .  
٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

بقت شيخوخته ، لأنها قد سلبته قوته ، وغطت رأسه شيباً ، وقومت  
ظاهرة ، كما أضمت يديه ورجليه ، وأهانت أمام الناس :

لم تترك السبعون في إقبالها مني سوى مالا عليه معول  
حتى إذا ما عامها عني انقضى ووطئت في العام الذي يستقبل  
حطمت قواي وأوهنت من نهضي وكذا بمن طلب السلامة تفعل  
والقتل أحسن بالفتى من قبل أن يبلى ، ويفنيه الزمان ، وأجمل  
وأبيك ما أحجمت عن خوض الردى في الحرب ، يشهد بذلك المنصل (١)

وهو في السبعين يتحدث حديث حكيم تاركه الأيام ، ووعظته  
التجارب ، ثم ينتهي ليعظ غيره ، ويخاطب ابن السبعين الذي عاد إلى  
شرب الخمر (٢) بعد توبته ونسكه فأفقد بذلك دينه ، كما أن السبعين أقسدت  
دينه ، وغدا كالنخار الذي إذا تكسر لا تقع فيه . ثم يخاطب ابن  
السبعين الذي لم يقدم على التوبة بعد . ويطلب منه ألا تخدعه الإيماني  
فقد تحمل أوزار السنين ، وفعل المماهي ، وأشرف على الحرم والموت ،  
فأقل ربيعه ، ولم يبق منه إلا الحشيم ، حيث بعدت أيام الصبا ، وبقي  
له الشيب الشنيع :

١ - أسامة . الديوان . ص ٢٧٠ - ٢٧١ . [ المنصل : السيف ] .  
٢ - لم يعرف عن أسامة أنه شرب الخمر .

مأمع السبعين تسويف ، ولا يخذعك الأمل الواهي الخلدوع  
ثم أفضت مدة الشيب إلى هرم يعقبه الموت الشنيع (١)

وها هو في السبعينات قد غدا مرعى ذاوياً يست أنصاته وذلت  
وتناثرت أوراثة ، وخاتمه رجلاه قلن يقوى بعد على الركوب والقتال ،  
خلاقاً لما كان عليه سابقاً ، حيث كان أول المئين لدعاء القتال والوعى ،  
كاشفاً بسيفه الماضي ظلمة الوعى ونقمة ، منارلاً الأبطال الصناديد الذين  
يترامون من رعيهم قبل ضربه لهم . مرت هذه الأيام بخلفه فيه الصبر على  
المصاعب ، حيث لاقى الزاوا دافئاً بقوة وصبر ، وبزم صادق لم يخنه قط :

رجلاي والسبعون قد أوهنت قواي عن سعيي إلى الحرب  
وكنت ، إن ثوب داعي الوعى لبنيته بالطمع والضرب  
ما خاني عزمي ولا عزني صبري ، ولا ارتاح لها طلي (٢)

والأيام تأتي بالشيء العجيب ، فبعد قوته وشجاعته وجبروته  
اضطرت به بعد عامه السبعين وهو من اعتاد حمل السلاح والقتال ، اضطرت به

١ - أسامة الديوان . ص ٢٨٧ .  
٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٠٨ . [ الثوب : الداء ؛ عزني : يغلبني  
فلم يطاعني ] .

إلى حمل العصا للاعتماد عليها ، لانه لا يقوى على حمل ذاته . إنها خطيئة الموت الذي لم يعالجه ، وتركه حتى غدت حياته موتاً طليئاً :

فرجعتُ أحمل بعد سبعين العصا فاعجب لما تأتي به الأيام وإذا الجاهم أبى معاجلة الفتى فحياته ، لا تكذبُ بن حمام<sup>(١)</sup>

ثم يصف عصاه التي لازمته بعد عامه السبعين ، وتحملت ثقله تحمل المشكاره ، وقادته وكأنها انسان تمب عبي ، يحمل ثقلاً ووزراً كبيرين ، لا يقوى على النهوض ، مكبلاً بثمراته التلاحقة ، إن هذه العصا تعبت من ثقل ما آفاه الشباب عليه من الصاعب والتناعب :

حملتُ ثقلها بعدما شبت العصا فتحملته تحمل المشكاره ومشت به مشي الحسير بوقره لا يستقل ، مقيداً بمشاره<sup>(٢)</sup>

إن السبعين أضفت قواه ، ووضعت رأسه شيباً ، فتقوس ظهره ، وامتد البلاد إلى يده ، التي غدت في رجفان دائم ، حيث يتقوى على الكتابة ، فضله مضطرب . إنه عامه السبعون الذي أنقص من قيمته بين الناس ، وغير كبيراً من صفاته ؛ وما أجل الموت حيث يكون خلاصاً من أذى الحياة الضعيفة :

١ - أسامة ، الديوان . ص ٢٧٣ .

٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٧٥ . [ حسر : أعيا ، فهو - حسير ، والرق بالكرس : الحمل الثقيل ؛ يستقل : ينفض ] .

تكسستُ في الخلق ، وحطنتني السبعون لما أن عالتُ سني وغيرتُ خطي فأضحى كما ترى ، وكم قد غيرت مني والموت فيه راحة من أذى الدهن ، نيا ، فإأفغله عني؟<sup>(١)</sup>

لم ترق الحياة لأسامة في دمشق أكثر من ذلك ، لأن التغيرات الرسمية وواجبات القصر تتطلب منه خدمة السلطان ، والمشاركة في الحياة السياسية . إن أعمار هذه المرحلة عند أسامة لتدل على عدم وجود اتفاق كامل بينه وبين نور الدين ، كل منهما كان يحتفظ بوجهة نظره السياسية . فنور الدين لم يقبل وساطة أسامة التي كلفه بها ابن رزيك بشأن الوحدة بين مصر وسورية لاسترداد القدس . ولم يتم بهذه الخطة ، مما جعل التباين بينه وبين أسامة في ازدياد ، أضف إلى هذا أنه ربما قد انضمت المواقف العدائية التي كانت سابقاً بين أسامة وعماد الدين - والد نور الدين ، والملافة الوثيقة بين أسامة والأمراء الأتراك في دمشق ، الذين كانوا ضد عماد الدين ، تقول ربما انضمت كل هذه المواقف إلى أسباب زيادة التوتر بين أسامة ونور الدين . وعلاوة على هذا فقد كانت نور الدين زاهداً جداً ، لم يحب الشراء ، ولم يتهيج لمديهم ، لما علمه من زياد الشراء به<sup>(٢)</sup> ، والناس مثله قد زهدوا ، حتى غدت أيامه

١ - أسامة ، الديوان . ص ٢٧٤ .

٢ - أبو شامة ، ص ١ ، ص ٢٢٩ .

مثل شهر الصوم ، ليس فيها إلا الجوع والعطش :

أميرنا زاهدٌ والناس قد زهدوا له ، فكل على الطاعات ، متكديش<sup>١</sup>  
أيامه ، مثل شهر الصوم ، طاهرة من المعاصي وفيها الجوع والعطش<sup>(١)</sup>

كل هذه الأسباب مجتمعة قد أجبرت أسامة على قبول دعوة فخر  
الدين أرسلان<sup>(٢)</sup> صاحب حصن كيفا . لقد طلب أسامة من نور الدين  
السلاج له بالسفر ، فوافق له برغبة كبيرة<sup>(٣)</sup> . وبلغت أسامة حاله في  
دمشق بما يلي :

«وكدت أقول أن الزمان لا يبلّ جديدة ، ولا يجي شديدة ،  
وأنّ إذا عدت إلى الشام وجدت به أيامي كمهدي ، ماغيرها  
الزمان بعدي . فلما عدت كذبتني وعود المطامع ، وكان ذلك الظن كالسراب  
اللامع»<sup>(٤)</sup> .

١ - أسامة ، المبعوثان . ص ١٥٨ ، أبو شامة ، ص ٢٢٩ .

٢ - أمير حصن كيفا في ديار بكر في تركية بالقرب من الحدود العراقية  
السورية .

٣ - زكي ، أ . أسامة ، ص ١٥٨ .

٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٢٠ ،  
إصدار حتي ، ص ١٦١ : الترجمة الروسية ، ص ٢٤٨ .

## أسامة في حصن كيفا

( ٥٥٩ - ٥٧٠ / ١١٦٤ - ١١٧٤ )

إن تشليهاً كبيراً بين طبيعة ديار بكر وطبيعة شيرز ، حيث عاش  
أسامة في طفولته : أنه يعيش هنا في حصن مشابه لـ حصن شيرز ، مياه  
دجلة تذكره بمياه المعاصي ، والطبيعة تدعوه للصيد حيث يخرج اليه مع  
حاكم الحصن فخر الدين<sup>(١)</sup> . وربما اختار أسامة هذا المكان ليكون  
مبدأً عن قصر السلطان ، وليستخدم المكتبات المحلية الفنية . لقد كتب  
أبو شامة « وكان فيها ( آمد ) ، خزائن كتب فيها ألف ألف وأربعمائة  
كتاباً »<sup>(٢)</sup> .

إن المدن التي قضاها أسامة في حصن كيفا هي حقبة البحث  
والدرس والتأليف في التي خلدها قلباً في التاريخ ، إذ فرغ للتأليف

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٢٠ ،  
الترجمة الروسية ص ١٤٣ .

٢ - أبو شامة ، ص ١١ ، ص ٣٩ .

حين جاوز السبعين ، وبقي هذا همه أكثر من ٣٥ سنة ، انه هنا يدرس العلوم ويؤلف مؤلفاته الاساسية ، التي بفضلها أصبح مشهوراً لدينا كأديب وعالم .

يبقى غير واضح رأي أسامة وعلاقته بسمي فخر الدين أرسلان للاستيلاء على حصن آمد الحصن القوي ، الذي وصفه ناصر خسرو : « وقد رأيت كثيراً من المدن والقلاع في أطراف العالم ، في بلاد العرب والمجم والهند والترك ولكي لم أرفط مثل مدينة آمد في أي مكان على وجه الأرض ولا سمعت من أحد أنه رأى مكاناً آخر مثلها » .

لقد قرر فخر الدين أن يستولي على حصن آمد ، عندما كان أسامة فيه . والمصادر التاريخية تصمت عن دور أسامة في هذه الحملة ؛ إكان بعيداً عن كل هذا ؟ أم أنه شارك في محاولة الاستيلاء على الحصن ؟ أم حرص على ذلك ؟

لقد عاش أخو أسامة أبو النيث في هذا الوقت في آمد ، وغير مشهور أنه كان هناك اتفاق بين أسامة وأخيه في مساعدة فخر الدين . إن هذا السؤال يبقى دون جواب ، لأن المصادر تصمت عن ذلك ، رغم أن أسامة يحدث عن هذه الحوادث ، مشيراً إلى أن فخر الدين اعتمد على الأمير الكردي ، الذي عاش في آمد ، وبرزو فشل هذه الحملة إلى

١ - ناصر خسرو ، سفر ثامة ، ٨ - ٩ .

أن فخر الدين لم يثمد على الامراء الكبار<sup>(١)</sup> .

توفي فخر الدين في عام ٥٦٣ / ١١٦٧ ، وخلفه ابنه الذي لم تكن علاقته مع أسامة كعلاقة والده من قبله ، مما سبب الزعاج لأسامة ، فلما تجدد يسافر بين مدن شالي سورية يتقرب من الفقهاء والنسابة والزهاد ، ويتوضح عنده بشكل أكثر أنه لم يعد صالحاً لمعاينة الملوك والسلاطين . انه يكتب :

« أعجزني وعن السنين ، عن خدمة السلاطين . فنجرت مفشي أبولهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ، ورددت عليهم ما خولوني من نعمهم ، لئلي أن شعت الحرم لا يقوى على تكاليف الخدم ، وأن سوت الشيخ الكبير ، لا ينفق على الأمير ، وتزمت دارى ، وجعلت الجول شمارى . ورشيت نفسي بالانفراد في القرية ، ومفارقة الأماكن والترية ، إلى أن تسكن نقارتي عن مرارتها . وصيرت صبر الأسير على قبره ، والطمان ذي الفلة عن ورده » .<sup>(٢)</sup>

في هذا الوقت عندما كان لأسامة من العمر أكثر من ٧٤ عاماً ولدت له طفلة سبها فروة . لقد جلب لأسامة ميلادها الحزن والحسوم ، ذلك لأنه طول الوقت غدا يفكر بمستقبلها وإلتم الذي ينتظرها :

١ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، ص ٦٢ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، ص ١٢٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٥٢ .

رزقت فروة والسبعون تجربها أن سوف تبتعن من قرب، وتنعاني  
وهي الضميمة ماتتلك كاسفة ذليلة . تعترى دمعي وأحزاني

الذي كان قد سادته في بلاط نور الدين ، عن  
الدين ، الذي كان قد سادته في بلاط نور الدين ، عن  
التصاراته ، وتدعيم حكمه في مصر . سرّ بها ، وأرسل إليه القضاة  
الشعرية ، المقولة في تجيد هذه التصارات . وعبر فيها عن إعجابه  
بطولة صلاح الدين ، وماله بالهجوم على الأفرنج في سورية . لكن لم  
تكن أمثال هذه التطلعات حينئذ عند صلاح الدين ، ذلك لأن الفاطميين  
لم يتخلوا له بسهولة عن السلطة في مصر ، التي هوجمت أيضاً من قبل  
الأفرنج مما شغله عن التفكير بسورية .

لقد كان أسامة ينتظر دعوة من صلاح الدين للقدوم إلى مصر ،  
آمالاً بذلك ، للسكينة الرفيعة التي يشغلها ابنه مرهف ، الذي كان المرافق  
الدائم ، وقائد جند عند صلاح الدين . لكن صلاح الدين لم يدعه إليه  
للسبب التالية كما نفترض :

لقد عرف صلاح الدين بأن أسامة شخص غير مرضي عنه في  
مصر ، إذ يعرف موقف المصريين منه لاشتراكه في مقتل الخليفة  
الفاطمي ، فلم ير من حسن السياسة وهو حديث العهد بالحكم أن  
يدعو من اتهم بمقتل خليفة فاطمي سابق ، وكذلك فإن الفصلة بين أسامة  
ونور الدين لم تكن لتشجيع صلاح على إظهار العطف على أسامة ، وصلاح

الدين مدين لنور الدين بسلاطته في مصر ، أضف إلى ذلك أن أسامة  
قد بلغ الثمانين ولم يعد له من النشاط والقوة ما يمكن صلاح الدين من  
الاعتقاد عليه في ظروفه المعصية ، حيث خارت قواه ، وأخذ إلى السكينة،  
ولم يستطع حتى السير على عشاء ، والأمور تسير من سيء إلى أسوأ حتى إنه  
يضاطر إلى الصلاة وهو قاعد ، ويتمنر عليه السجود :

مع الثمانين عات الدهر في جلدي وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي  
إذا كتبت فخط لي جدم يضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد  
فأعجب لضعف يدي عن حملها قلماً من بعد حطم القناني لبنة الأسد  
وإن مشيت وفي كفي العصا ثققت رجلي كأنني أخوض الوحل في الجلد  
فقل لمن يتمنى طول مدته هذي عواقب طول العمر والمدد  
وقال أيضاً :

تناسنتي الآجال حتى كأنني دريئة سقر بالفلاة حسير  
ولما تدع مني الثانون منة كأنني أذارمت القيام كسير  
أؤدي صلاتي قاعداً وسجودها علي إذا رمت السجود عسير  
وقد أنذرتني هذه الحال أنني دنت رحلة مني وجانم مسير<sup>(١)</sup>

١ - العمد الاسمائي ، الحريدة ، ج ١ ، ص ٥٢٩ ؛ هذه القصيدة  
لم ترد في ديوان أسامة ، انظر أيضاً : الاعتبار ، إصداراتي ،  
ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

لقد تغيرت الظروف والاحداث ثانية ، بعد وفاة نور الدين ، فقد قدم صلاح الدين إلى دمشق ، ووجد سورية ومصر تحت سلطته يريدن جميع القوى ضد الفرنج . وبسمع أسامة بأن دمشق وطنه الثاني أصبحت بيد صديقه القديم صلاح الدين ، ويكتب ابنه أبا الفوارس بأن يسمى لدى صلاح الدين الدعوتة إلى دمشق وتصبح الامور مؤاتية كلها . فيرسل إليه صلاح الدين كتاباً يرحب به في دمشق كصديق قديم وأمر يعز به . ويقادر حصن كيفا إلى دمشق ليبش بقية حياته وليقضي نجه فيها .

\* \* \*

## اقامة أسامة الثالثة بدمشق

أسامة وصلاح الدين ٥٧٠ - ٥٨٤ / ١١٧٤ - ١١٨٨

يبدو من شعر أسامة أنه عاش في أواخر أيامه في ضيق مادي ، وهذا ما يرى في قصيدته التي أرسل بها من حصن كيفا إلى ابنه أبي الفوارس في دمشق شاكياً إليه الموز والفقر وعدم تمكنه من الكرم والطاء ، وشدة ألمه لذلك :

أبا الفوارس مالاً قيت من زميني أشد من قبضة كفني من الجود  
فعدت أن هزني جانٍ تعود أن يجني نداي رأني يأس العود (١)

لكن استدعاء صلاح الدين إلى دمشق وأهله بيتاً ، ووجهه هبات كثيرة ، وأقطعه قرية في النقرة ، التي كانت ، كما يقول أسامة ، من ممتلكاته سابقاً : « تقب عني في البلاد ودوني الحزن والسهر ، بمضية من الأرض لا مال لدي ولا أهل . فاستنقذني من آنياب النوايب برأيه

١ - الخريدة ، إصدار درنيورغ ، ص ١٢٧ .

الجيل ، وحائي إلى باب العالي بانعامه الفاسم الجزيل ، وجبر ما هاضه الزمان مني ، ونفق على كرمه ما كسد علي من سواه من علوسني . فتمرني بترائب الرغائب ، وأهوائ ، من إنعامه أهى الزاهب ، حتى رعى لي فائض الكرم ، ما أسلفت سواه من الخلم . فهو بعد لي بذلك وبرعاه ، رغبة من كآته شاهده ورآه . فطاب له تطرفي وأنا راقه ، وتسري إلي وأنا محتسب قاسد . فأنا من إنعامه كل يوم في مزيد ، وإكرام كثر كرمه الأهل وأنا أقل من العبيد . أمني جميل رأيته حدث الحادثات ، وأخلصف لي إنعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المحيفات . وأفض علي من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته ، من بعجز الأعناق عن حمل أيسر منته . ولم يبق لي جوده أملا أرجو نيله ، أفقي زمان بالنداء به نهاره وليسله . والرحمة التي تدارك بها البلاد ، وأحوى ببركاتها البلاد . هـ (٣)

لقد جالس أسامة صلاح الدين ، وتكلم معه على الأدب ، وأعطاه النصائح في الحوادث الهامة . كما أن صلاح الدين كاتبه إذا كان بعيداً عن دمشق في حملته ، خبراً عن نتائج معاركه . وقد كان دوماً معجباً بديوان أسامة ، يصطحبه ولو كان خراجاً للفزوات (٣) . وكان يلعب معه بالشطرنج في أوقات فراغه .

١ - أبو شامة ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

٢ - أسامة ، الاعتبار : إصدار دريورغ ، النص العربي ، ١٥٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

٣ - أبو شامة ، ص ٢٤٢ ؛ والنديمي ، البارص ، ج ١ ، ص ٣٨٤ .

لقد عاش أسامة في هذه اللمعة حياة زرف وغنى ، وبسداً يلقى دروساً في البديع .

ولمدم اشتراكه بالفزوات كان يوازي نفسه باشتراك ابنه فيها - الساعد الأمين لصلاح الدين ، وكذلك نظمه الشعر مفتخراً بمناسبات الانتصارات ، وعادته مع حماد الدين الأصفهاني . قال مادحاً صلاح الدين بقصيدة عساه ، مبيناً كرمه وجهاده وانتصاراته ، معلماً :

ياناصر الاسلام حين تغاذلت عنه الملوك ، ومظهر الايمان  
جردت سيفك في العدا لارغبة في الملك بل في طاعة الرحمن  
فضربتهم ضرب الغرائب واضعاً بالسيف مافعوا من الصليان

لكن علاقة أسامة بصلاح الدين أصيبت مع الزمن بالتفوق والبرودة، حتى إنه كان يجبراً على الاقافة المائقة في بيته ، وكاتب المهاد الأصفهاني ليكون وسيطاً بينه وبين صلاح الدين . ومن المحتمل أن يكون سبب هذا التفوق عائداً إلى الميول الشيعية عند أسامة ، التي غذتها حياته بين طرقات الخلافة الفاطمية في مصر ، والتي أثرت في أفكاره ومعتقداته الدينية ؛ وكان هذا التأثير واضحاً ايضاً في المحاضرات التي كان قد ألقاها في دمشق في ذلك الوقت . يقول ( الذهبي ) إن أسامة كان شيعياً إمامياً . وكذلك يذكر ( الماملي ) أن الأسماع التاليفة إنما تنسب إلى أسامة :

سلام على أهل الكساء هذاني ومن طالب عيائي بهم ومباني  
محبتي لي حجة وولاهم ألقى بها الرحمن عند وفاتي (١)

ومن المشهور أن صلاح الدين كان من مؤيدي المذهب الشيعي  
« نصير السنة ، ومحبي دولة أمير المؤمنين وسنة الخلفاء الراشدين » (٢) .

ولذا ازوى أسامة في بيته يترقب موته بعد أن أذاقه الأليم  
مرارة الاغتراب ، بعيداً عن وطنه ، وفي ألم كامل شديد :

أنا في أهل دمشق وهم عدد الرمل وحيد ذو اقتراد  
ليس لي منهم أليف وشجت بيننا الألفة أسباب الوداد  
يحسبوني إن رأوني وافداً قد أتاهم من بقايا قوم عاد  
واقترادي رشد لي والهوى أبداً يصرف عن سبيل الرشاد

وها هو يصف نفسه بعد أن صار له من العسر ما يزيد على  
السعين ، بالضنف العام وضنف السمع والبصر :

١ - العسالي ، أعيان الشيعة ، ج ٢ ، ص ١٣ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار حتي ، ص ١٦٤ .

لما بلغت من الحياة إلى مدى قد كنت أهواه تمنيت الردى  
لم يبق طول العمر مني مئة ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدا  
ضعفت قواي وخائني التفتان من بصري وسمعي حين شارفت المدى  
فإذا نهضت حسبت أنني حامل جبلاً وأمشي إن مشيت مقيداً  
وأدب في كفي المصابيح عهدتها في الحرب تحمل اسعرا ومهددا  
وأبيت في أين المهاد مسهدا قفلاً كأنني اقترشت الجملعدا  
والمرء ينكس في الحياة وبينما بلغ الكمال وتم عادكا بدا (١)

لقد قضى أسامة باقي أيام حياته الأخيرة في دمشق منتظراً موته ،  
ومات يوم الثلاثاء ، ليلة ٢٣ رمضان ٥٨٤ / « تشرين ثاني ١١٨٨ » .  
بعد أن عاش ٩٦ سنة قرية أو ٩٣ سنة شمسية ، ودفن في جبل قلسيون  
في سفحه المطل على دمشق ، . قال ابن خلكان : « وقد دخلت تربته  
وهي على جانب النهر يزيد الشامي ، وقرأت عنده شيئاً من القرآن وترجعت  
عليه » .

قبره كغيره من القبور هناك قد اندثر وقامت مكانه البنايات

١ - الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٦١ .

٢ - ابن خلكان ، فوات ، ج ١ ، ص ٨٨ ؛ ياقوت ، معجم  
الأدباء ، ج ١١ ، ص ١٧٤ ، أبو شامة ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

والدور الحديثة بطايقها الدعة .

إن أسامة نفسه رجل ذكي فوق العادة ، وموهوب ، وعالم ، لقد التقى بمختلف رجالات عصره ، قرأ لهم شعره ، وتحدث معهم وتناقش ، وكثير منهم أنشروا إليه من قبل ، ونذكر أيضاً أبا سعد السمعاني ، وابن عساكر ، والمعاد الصفهاني ، والمقدسي . ولقد حفظت حتى الآن عبارات تنقد أسامة وتقومه ، بعضها يعود إلى معاصريه ، وبعضها من قبل المؤلفين المتأخرين . وسنقتبس بعضها فيما يلي :

قال الذهبي في « تاريخ دول الاسلام » عن أسامة : إنه « أحد أبطال الاسلام ، ورئيس الشعراء الأعلام » . وقال أيضاً في « سير أعلام النبلاء » : « أسامة - الأمير الكبير فارس الشام »<sup>(١)</sup> . وقال ياقوت في معجم الأدباء :

« وفي بني منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن أسامة أشهرهم وأشهرهم »<sup>(٢)</sup> . وقال المعاد الصفهاني : « وأسامة كلمته في قوة نثره ونظمه »<sup>(٣)</sup> ، يلوح من كلامه أمارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضه عبارة العبارة ، حلو المجالسة ، جالي المساجلة ، ندي الندي بماء الفكاهة ، عالي

١ - الذهبي ، سير ( مخطوطة مصورة ) . > . XIII ، ص ٣٨ .

٢ - ياقوت ، معجم الأدباء ، > II ، ص ١٧٤ .

٣ - أسامة ، بالمرية تمني أحياناً « أسد » .

النجم في سماء البهاة معتدل التصاريف مطبوع التصانيف<sup>(٤)</sup> . وجاء في خريدة القصر : « هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء والسادة القادة العظماء ، وقد منته الله بالعلم وحاول البقاء ، وهو من الممدودين من شجعتان الشام . وقرسان الاسلام ، ولم تزل بنو منقذ ملاك شيوخ ، وقد جموا السيادة والنخز ، والمهم من الأجواد والأعاجاد ... وما فهم إلا ذو فضل وبذل ، وإحسان وعدل ، وما منهم إلا من له نظم مطبوع ، وشعر مصنوع ، ومن له قصيدة وله مقطوع ، وهذا مؤيد الدولة أغرفهم في الحسب ، وأغرفهم بالأدب » . وقال الصفهاني أيضاً : « اكننت قد طالعت مذيذ السماني ، ووجدته قد وصفه وقسمه ، وأنشدني المامري له باصفهان من شعره ما حفظه ، وكنت أغنى أبدأ لقاء ، وأشيم على البعد حياء ، حتى لقيته في صفر سنة ٧١ - بمشي ٥٧١ بدمشق »<sup>(٥)</sup> .

ويقول ابن عساكر : « اجتمعت به بدمشق وأنشدني قصائد من شعره سنة (٥٥٨) وقال لي أبو عبدالله محمد بن الحسن بن المحي : ان الأمير مؤيد الدولة أسامة شاعر أهل الدهر ، ملك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بليقة أبيه ، ليس يستغنى وصفه بملات ، ولا يعبر عن شرحها بلسان ، قصائده الطوال لا يفرق بينها وبين شعر ابن الوليد »<sup>(٦)</sup> .

١ - أبو شامة ، > I ، ص ٢٦٤ .

٢ - الخريدة ، > I ، ص ٤٩٨ .

٣ - مسلم بن الوليد ، شاعر مشهور من شعراء القرن الثامن اقطار :

El, V, III, p.758

ولا ينكر على منشدها نسبتها إلى لبيد ، وهي على طرف لسانه ، بحسن  
بيانه ، غير محتفل بطولها ولا يتمتر لفظه العالي في شيء من فضولها ،  
وأما القطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من النوم بعد السيد ، في كل  
معنى غريب وشرح عجيب <sup>(١)</sup> .

رَفَعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني  
الانوار الأدبية لؤسانه

١ - تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ج ١١ ، ص ٤٠١ .

كان أسامة منذ أيام الفتوة قد بدأ قرض الشعر ، ورافقه نظم الشعر طيلة حياته ، مسجلاً به ضربات قلبه ، والشاعر الوطنية وظروف الحياة في ذلك العصر الذي عاش فيه .

لقد كانت حياته في ديار بكر هادئة نسبياً ، إذ قد هزم ، وخففت شملته الحربية القتالية ، فأعطى كل مقدراته التأليف الأدبي . ولذا فقد كانت هذه الحقبة من حياته فترة نشاطه الأدبي والعلمي . واشتهر في عصر كاديب ، وكاتب ، ومؤرخ وشاعر . لقد صنف أكثر من ٢٠ مؤلفاً ، معظمها مفقود حتى الآن .

وإضافة من فن وحتوى مؤلفات أسامة ، ولسهولة دراستها دراسة نقدية فقد قسمناها على النحو التالي :

أولاً - المؤلفات ذات الطابع الأدبي لم التي تشكل القسم الأكبر والأشهر من مؤلفاته :

١ - « ديوان أسامة » وهو جميع الأشعار التي قلها أسامة في مدة عمره ، من أيام فتوته إلى آخر أيامه في شيخوخته ، ولقد قام بحممه بنفسه في الثمانينات من القرن XX . فرتبه بحسب الموضوعات الشعرية ، كما أشار إلى ذلك في المقدمة : « وقد جعلته مشتملاً على ستة أبواب :

الباب الأول : الغزل ، وينظم في سلكه شكوى الفراق ، ووصف الحنين والاشتياق ، ثم ما يجوز أن يلتحق به من مكاتبات الاخوات ومعاتبات الغلان ، وما يجذب هذا المعنى بأهدافه . الباب الثاني - الاوصاف . الثالث : النالج . الرابع - المديح ، وينتسب به القول في الفخر تتضمن مآثر الإنسان وخلالة ، ثم الحماسة ، الرجوع معناها إلى التمدح بالشجاعة والبراعة . الخامس - الأدب ، ويطلق بسببه الأمثال ، وما يجري مجراها ، أو يلاحظ مغزاها ، ثم وصف الشيب والكبر ، ثم الزهد من تأمل واعتبر ، السادس - المراثي . وكل باب من هذه الابواب المذكورة مرتب على حروف المعجم ، فمثلاً فصلاً ، يقرب تناول ما يقصد منه (١) . لكن من المؤسف أن القصائد غير مؤرخة .

وتجدير الإشارة إلى أنه في الديوان لا يوجد فصل للهجاء . وذلك لأن أسامة قد اعتبر الهجاء فناً حقيراً ، لم يكتب فيه ، وأسامة يؤكد هذا في المقدمة : « على أنني بحمد الله ما فئت برفث ولا هجاء » (٢) . لكن يفهم من شعر أسامة أنه بصوبة قد انحرف عن هذا الفن لوجود أسباب كانت تثير في نفسه شعور الهجاء :

ظلمت شعري ، وليس الظلم من شعبي يطعنني حين أدعوه وأعصيه  
يهم أن يذكر القوم اللثام يا فيهم فأزجره عنهم ، وثانيه (٣)

- ١ - أسامة ، الديوان ، ص ٤٤ - ٤٥ .
- ٢ - أسامة ، الديوان ، ص ٤٣ .
- ٣ - أسامة ، الديوان ، ص ٢٤٣ .

لكن الملاح المجانية<sup>(١)</sup> لشعره إنما تظهر في فصل « الملح » .  
نعم ولكن هذا الفصل غير كبير الحجم ( ٥ صفحات ، من صفحة  
١٥٦ - ١٦١ ) ، في الوقت الذي يتل فيه الهجاء مكاناً واضحاً كبيراً  
في دواوين الشعراء العرب .

لقد نظم أسامة في فن « الملح » لكن للأجل الطايا والحيات :  
« ولا مدحت أطعم ولا رجا » ( ديوانه ، ص ٤٣ ) . ومدح تلك  
القلة ، التي كانت قريبة إلى نفسه ( أثراً وطلائع وعباساً وابنه نصرأ  
ونور الدين وصلاح الدين ) ، ومن المريب أنه لا تعرف قصيدة واحدة  
في عماد الدين الزركي ، ربما أن هذه القصيدة قد وجدت لكن أسامة  
لم يوردها في « ديوانه » عندما جمعه .

واقترع بني منقذ ، ومدحهم ، ومدح نفسه وشجاعته وإقدامه ،  
وصموده أمام حوادث ونكبات الزمان . وهو في هذا يذكرنا بالثني ؛  
فكلاهما ينطلق من اعتقاده بأنه لا يقل مجداً ورفعة ورجولة عن  
مجدوحه .

ويكاد أسامة في « رثائه » شر أئم ، فهو يرثي الأقرباء والأصدقاء ،

١ - أسامة يمزج وينكت على الأخرج ( ديوان ، ص ١٥٩ ) . إن  
هذا يذكر بهجاء ابن الرومي للأحباب .

وخاصة ابنه أبا بكر عتيق<sup>(٢)</sup> ، الذي شغل رثاؤه تقريباً  $\frac{1}{3}$  من رثاء  
أسامة . ثم إن فقدان الوطن والأقرباء والأعزاء قد طبع شعره بطابع  
الحزن والألم .

أما أسلوب وصور أسامة في التسيب ، فتشابه مع أسلوب وصور  
الشعراء الجاهليين ، لكن شعره في هذا المجال يتميز بالخلوص أكثر  
وعاطفة صادقة مجروحة ؛ إذا عبّر عن آلامه العميقة ، ومشاعره  
الشخصية .

إن أكثر الحوادث الهامة في هذا العصر ، وحياء أسامة الشخصية  
قد لاقى صدى وانعكاساً في شعره ، الذي يسجل الحوادث التاريخية  
والمعارك وطولات أبطال عصره المسلمين في صراعهم مع الفرنجة . فأشعاره  
تصور جميع مراحل حياته ، ويفضلها يمكننا أن نجتمع حقائق هامة عن

١ - يبدو من شعر أسامة [ ديوانه ، ص ٢٩٧ ] أن ابنه عتيق ،  
الذي كان له من العمر سبع سنوات ، قد مات عندما كان  
أسامة من العمر أكثر من ثمانين ، وبني هذا أنه ولد بعد فروة :

رمتني في عشر الثمانين نكبة . . . . .

رزئت أبا بكر ، على شغفي به فيالافتنا، ساذا جنى الحادث البكر

لسبع، مضت من عمره، غاله الردى وكنت أرجي أن يطول به العمر

هذه الحياة ، وعن آلامه في غربته ، وحنينه إلى وطنه وأهله :

- أهلكذا أنا ، باقي العمر مقرب  
ناء عن الأهل والأوطان والسكن  
لا تستقر جياذي في معرسيها  
حتى أدوعها بالشدة والطعن  
- أين السرور من المروع بالنوى  
أبدا ، فلا وطن ، ولا خلاق  
عيد البرية موسم لمويله  
وسرورهم فيه له أحزان  
واذا رأى للشمع الجميع نزاحت  
في قلبه الأموات والثيران<sup>(١)</sup>

وأسامة كثيرة من فحول شعراء الرية السابقين ، أعاد النظر في  
في شعره مخلصاً مشدداً ، وحذف تلك الأشعار التي لم تعجبه وتقصه  
وهذه :

كلما رددت في شعري النظر  
بان ضعف العي فيه ، وظنير  
فأجبل الفكر في تقلبه  
فإذا قلّ اختصرت المختصر

وأشعار « الديوان » التي ظم أسامة بشكل اعتناء بتقريبها وجمعها  
في آخر حياته معبرة ، حقيقية المأخذ ، جيلة المباراة ، قرية الفهم ،  
عميقة الفكرة ، وخلافاً لأكثر شعراء ذلك العصر ، لم يمع أسامة إلى

١ - أسامة ، الديوان ، ص ١٠٤ .

التزين اللفظي الذي كان الميزة الفنية للشعر حينئذ ، فاستعمل الطباق  
والجناس والتعاقب والاستمارة لم ينته به إلى التلاعب اللفظي ، الشغل  
الشاغل لمفظم معاصريه .

إن تراكيب شعر أسامة بعيدة عن التعقيد ، تميز عن أفكاره  
بكل عمن وسدث وإخلاص . ولقبح شعره لا تحتاج إلى المناجم فكان لان  
اللفظة عنده واضحة مقبومة سهلة بسيطة . وتتابع أفكاره بسهولة  
وسلاسة . لقد كتب قصائد قصيرة ، وطويلة أيضاً ؛ فبعض قصائده  
يتألف من تسعين بيتاً تقريباً<sup>(٢)</sup> . وكان يقبض أحياناً بعض أبيات من  
أشعار الشعراء الآخرين<sup>(٣)</sup> ، أو كان القرآن الكريم ، معبراً بهذا عن  
معرفة رائعة بشعر الشعراء الجاهليين والكلاسيكيين . ويبدأ قصائده في  
أغلب الأحيان - جريباً وراء التقليد - « بالنسب » وأحياناً أخرى ينظم  
الشعر في النثر الرئيسي مباشرة دون مقدمات غزلية أو طغلية ، خاصة  
إذا كان غرض القصيدة مدحاً أو « فخر » . ( انظر . الديوان ،

١ - انظر قصيدته [ من نور الدين الزنكي إلى طلائع بن رزيك ] ،  
الديوان ، ص ٣٠١ - ٣٠٦ .

٢ - يظهر هذا بوضوح في قصيدته « البومة » ، [ ص ٤٠ و ١٤٦ -  
١٤٨ ] ، حيث يقبض أشعاراً من شعر المتنبي ؛ وفي الرائية  
( ص ٧٢ و ١١٩ ) - من أشعار أبي فراس . وربما كان اقتباسه  
من أشعار هذين الشاعرين لأعجابه بهما ، ولأنه كان قريباً منها  
بنموذج حياته .

ص ١٧٠ ) . ويصير أسامة بحق واحداً من أولئك الشعراء الذين أعادوا للشعر قوته ، وفوقه ، وأسلوبه الرقيق في أحسن ظروفه ، وعصير ازدهاره .

ويصنف قصائده في « الديوان » حسب موضوعاتها ، مما يخلط جواً واحداً للقصائد ذات الأول الواحد ، ويسهل دراسة فن الشاعر : طريقته ومنهجه في كل غرض من أغراضه . لكن كان من المفيد جداً لو قام أسامة بتأريخ قصائده ، والإشارة إلى مناسبتها لبزك الجو الذي أحاط به عند تأليفها .

ولا بد من الإشارة إلى أن أسامة لم يجمع جميع أشعاره في ديوانه . ففي مؤلفاته الأخرى : [ الاعتبار ، والمصا ، ولباب الآداب ، والمنازل ] يكثر على أشعار لا يمكن العثور عليها في « الديوان » ، ففي « كتاب المنازل والديار » ، مثلاً ، يكثر على ( ٢٩ ) مقطوعة ، تشتمل على ( ١٢٧ ) بيتاً<sup>(١)</sup> لم ترد في « الديوان » . وعلاوة على هذا فإن مقطوعات من أشعار أسامة توجد في مؤلفات مؤلفين آخرين : في « الخريدة » لمعاد الدين الأصفهاني ، و « الروضتين » لأبي شامة ، و « تاريخ الإسلام » للذهبي ، و « شذرات الذهب » لابن عماد الحنبلي ، و « سيرة أنساب العرب » لأبي التمام الشيرازي ، و « مسالك الأبصار » لابن فضل الله

١ - أسامة ، المنازل ، ص ٢٦ - ٢٩ ، ٧٦ - ٧٨ ، ١٩٣ ، ٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٣٠٣ - ٣٠٦ ، ٤١٩ .

العمري ، و « معجم الأدياء » لياقوت ، و « دوايات الأعيان » لابن خلكان ، وحل « الديوان » من هذه الأشعار لا يدل على عدم جودها . وكان أحمد بن حنبل ، وحامد بن الجهم قد كتبوا في المقدمة لإصدار « الديوان » ( ٩ ) ، عن تصنيفها على جمع أشعار أسامة التي لم يوردها في « ديوانه » ، لكنها ، على ما يبدو ، لم يحققوا هذه الفكرة . ولذا فإننا نقترح : إما إصدار « الديوان » ثانية ، بعد تضمينه جميع أشعار أسامة ، أو جمع كل الأشعار التي لم ترد في الديوان ، وإصدارها في ملحق خاص .

و « الديوان » مخطوطة واحدة<sup>(٢)</sup> مشهورة ، محفوظة في دار الكتب في القاهرة تحت رقم ١٦٨٧٧<sup>(٣)</sup> ، تقع في [ ٣٩٠ ] ورقة ، قام

١ - لقد أشار عبدالمالك السيد إلى وجود مخطوطة أخرى « الديوان » ، كانت محفوظة في بغداد عند عبد الرحمن صالح الراوي ، فأخذها المازني بقصد إصدارها بمحققها . لكن المازني لم يحقق هذا الهدف . وكتب عبدالمالك السيد بأن المخطوطة تقع في ( ٤٠٠ ) صفحة - على ما يذكر - ، وكانت مكتوبة قبل أكثر من ( ٦٠٠ ) سنة ؛ أي في عام ( ١٣٤٧ ) . انظر . مجلة « الكتاب » ، كانون الثاني ، ١٩٤٧ ، مجلد III ، ج . III ، ص ٥٠٦ .

٢ - هل المخطوطة التي ذكرها السيد هي نفسها تلك المخطوطة المحفوظة في دار الكتب ، أم أنها غسيريها ؟ إن هذا السؤال يبقى قائماً ينتظر الإجابة الصحيحة .

بشيخه العزيز بن أحمد المعجمي عام ١٢٨٨/١٢٨٩ ؛ وحققها ، وقدم لها  
أ . بدوي ، وح . عبدالحيد ، ووضعا ونشرنا الكلاص الصعبة ،  
ووضعا فهارس الأعلام ، والقوافي ( حسب الموضوعات الشعرية )<sup>(١)</sup> .

## ٢- كتاب الديرع :

يتميز هذا الكتاب من أوائل مؤلفات أسامة ، وربما كان أولها ؛  
فقد كتبه عام ١١٢٨ ، عندما عاش في إحدى قرى شير ( أنظر أعلى ،  
ص ، ٧٠ ) . وليس للكتاب أهمية كبيرة ، ذلك لأنه مشابه لكتاب  
آخر في « الديرع » بفصله وعتواه . ولانجد فيه مادة أدبية ، كما  
تقع على ذلك في مؤلفات أسامة الأخرى . وجاء في مقدمة الكتاب مايلي:  
« وهذا كتاب سمعت فيه مانقر في كتب العلماء الأقدمين المصنفة في نقد  
الشعر ، وذكر محاسنه ، وعيوبه ، فلم فضل الابتداء ، ولي فضيلة  
الانباغ . والذي وقت عليه من كتب : « كتاب الديرع » لابن المعتز ،  
« وكتاب الصنائع » للمسكري ، « وكتاب نقد الشعر » لقداسة ،  
« وكتاب الممددة » لابن رشيق . . . . فجمعت من ذلك أحسن أبوابه ،  
وذكرت منه أحسن مقالاته ، ليكون كتابي منبأ عن هذه الكتب ،  
معتمدة أحسن ما فيها »<sup>(٢)</sup> .

- ١ - ديوان أسامة بن منقذ ، حققه ، وقدم له الدكتور أحمد أحمد  
بدوي ، وحامد عبدالحيد ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٣ .
- ٢ - أسامة ، الديرع ، ص ٨ .

هناك خمس مخطوطات مشهورة لهذا الكتاب :

أ - مخطوطة مكتبة بلدية الاسكندرية ، المخطوطة تحت رقم ١٣٤١  
ب ، منسوخة في عام ١٣١١/٧١١ ، وتقع في ١٢٩ ورقة<sup>(١)</sup> .

ب - مخطوطة برلين ( الآن تيوبينجن ) ، تحت رقم «We 134» ،  
وتقع في ١٢٩ ورقة ؛ وقسم منها منسوخ في ١٤٩٤/٩٠٠ ، أما القسم  
الباقى ففي عام ١١٧٠/١٧٣٧<sup>(٢)</sup> .

ج - المخطوطة الثالثة محفوظة في معهد الدراسات الشرقية ، فرع لينينراد ، التابع  
لأكاديمية العلوم السوفياتية ، تحت رقم [B 538] ، [No. 461] [مخطوطات قديمة]  
وتقع في ٩٧ ورقة لكن الأوراق الأولى مفقودة والمخطوطة مكتوبة بخط  
معري جميل ، في ذي الحجة عام ١٠٣٩/١٠٣٩ ، وموصوفة  
بختصار من قبل الأكاديميك السوفياتي إ . ي . كراتشكوفسكي<sup>(٣)</sup> .

د - الزاوية محفوظة في « دار الكتب » في القاهرة<sup>(٤)</sup> تحت رقم  
( ٥٥ بدبع<sup>(٥)</sup> ) ، تقع في ١٢٩ ورقة ، بدون تلخيص النسخ ، وبدون

١ - حسين ، م . ، أسامة ، ص ١٠٠ .

٢ - Ahlwardt, VoL.VI, p. 412 (No. 7277)

٣ - كراتشكوفسكي ، إ . ي . مؤلفات مختارة . ص ١١ ، ص ٢٦٨ .

٤ - فهرس دار الكتب ، ص ١٧ ، ص ١٢٤ .

٥ - حسين ، م . ، أسامة ، ص ١٠٠ .

مقدمة ، كما أن بعض الأوراق الأخيرة مفقودة .

٥ - الخامسة مخطوطة في ، ومسماة « مختصر مقدمة الشعر » ، تحت رقم Cod 848 Wern<sup>(١)</sup> . ولقد قام أ. بدوي وح. عبدالمجيد ، بالاعتناء على مخطوطة دار الكتب ، بإصدار الكتاب لأول مرة في عام ١٩٦٠ ، في القاهرة<sup>(٢)</sup> . والكتاب موزع على فصول حسب أنواع وأجناس البديع في الأدب العربي ، التي بلغت عند أسامة (٩٥) نوعاً .

زكريا

### ٣ - « كتاب الغريبين » :

وله مخطوطة واحدة ، مخطوطة في « قونية » ، جاء في صفحاتها الأخيرة حسب أخبار حتي الذي يقول : « وفي رسالة خاصة من الشيخ خليل الخالدي بالقنس أنه رأى وهو بقونية نسخة من « كتاب الغريبين » في آخره ماصورته : - « وكان الفراغ منه يوم الاثنين ثالث وعشرين شهر رمضان سنة خمس وخمسين وخمسمائة بمدينة حمص . كتبه لنفسه منقذ بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنساني

١ - كثالوك ليدن ، الطبعة الثانية ، ١٥٢-١٥٣ (No. 293) .

المخطوطات رقم (ب، د، هـ) مشار إليها في بروكلمان : ج ١ ، ص ٣١٦-٣١٩ .

Brockelmann, C, AL Vol. I, p. 316 - 319

٢ - البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور أحمد بدوي وزميله ، طبعة الحلبي ، مصر ، (القاهرة) ، ١٩٦٠ .

المالكي<sup>(١)</sup> .

ولا تلك معلومات أخرى عن هذا الكتاب ، لكننا نقترح أنه « كتاب عن الألفاظ الغريبة في القرآن والحديث » . ذلك لأن مثل هذه المؤلفات في هذه النواحي كانت قد ظهرت في الأدب العربي ، والثقافة الإسلامية منذ حوالي القرن التاسع الميلادي . وحول هذا الافتراض دار النقاش بين وبين البروفيسور السوفياتي ، المستعرب يلابيف ، الذي أكد صحة الافتراض بأدلة مقنعة لا مجال لسوقها الآن .

### ٤ - « كتاب المنازل والدرابر » :

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من الأشعار بينا نقل فيه المقطوعات النثرية ، حيث ينتقل أسامة إلى النثر أحياناً في حالات خاصة ، ليفسر تعبيره الشعري ، أو ليحكي رواية أو قصة لتوضيح حادثة معينة ، أو حقيقة علمية .

وكان المصنف يجمع هذه الأشعار ، وتأليف هذا الكتاب دافعاً خاصاً ذاتياً : فقام أسامة بذلك محاولاً إيجاد التزينة لنفسه ، ومواساتها في الألم والحزن اللذين ألما به وتركها طابع السوداوية والتشاؤم على جميع مؤلفاته اللاحقة .

١٠٠

١٠٠

١ - رسالة من خليل الخالدي من القنس ، انظر . ف . حتي ، في مقدمته « كتاب الاعتبار » ، النص العربي ، ص . (ك) .

جمع أسامة في هذا المؤلف أشعار معاصريه ، وأشعار الشعراء السابقين منذ الجاهلية إلى عصره ، تلك الأشعار التي تتزف فيها انتقام الحزن لفقدان الأقرباء والأهل ، والحنين إلى الوطن المهجور ، وحزن الفراق والبعد عن الحوية ، وتذكر السعادة القديمة في أرض الوطن المهجور ، في مجتمع الاصدقاء والأقرباء - أبناء العشيرة والسلالة ، وتذكر التفامات السعيدة ... الخ .. وكأنه يريد بذلك أن يعيد الفاظ الشعراء الخنساء ، التي وجدت عزاء نفسها في بكائها على أخيها ، وفي حزن وآلام الآخرين إذ قالت :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

« فكتاب المنازل والديار » صدى (تراجميدا) أسامة، وإنشكاس، وإظهار لشاعره الثقيلة الخزينة . ومن الضروري أن تؤكد أن أسامة قد مدى في هذا المؤلف أحياناً وراء صفة عامة من صفات التأليف في ذلك العصر ، وهي البعد عن الموضوع الأساسي ، والاستطراد إلى موضوعات ثانوية، ليس لها ارتباط بالهدف الأساسي ، مسبباً في الحديث عن هذا الحدث الثاني (١) ،

١ - انظر . المنازل ، ص ٣٥٠ - ٣٨٠ ، حديث أسامة عن بناء « الكعبة » ، و صفحة ٥٦ - ٦٣ حديثه عن مقتل الشاعر كعب بن الأشرف ، و صفحة ٩٤ - ٩٥ حديثه عن عروة بن الورد .. الخ ..

وذلك - حسب رأيه - كي لا يرهق القارئ (٢) ، وتبيله ، وليحقق له فرص التنوع في القراءة .

« لكتاب المنازل والديار » أهمية واضحة ، وقيمة بينة ، وقيمته تكمن في كونه اثرأ أدبياً من آثار القرن الثاني عشر ، تنمكس فيه روح ذلك العصر ، وشخصية أسامة أيضاً . وعلاوة على هذه فإن قيمته تزداد إذا عرفنا أن الاصدارات النقدية لآثار القرن الثاني عشر قليلة ، فمؤلف كأسامة ، أديب وشاعر ، في اختياره لمادة كتابه هذا ، إنما يلعب - بهذا الاختيار - دوراً هاماً جداً في دراسة الادب في ذلك العصر ؛ ذلك لأن أسامة يمتلك النوق الادبي الفني في اختيار المقطوعات ، وهذا يعطينا صورة عن طبيعة تقيمه ونقده الشعر .

أما أهمية الكتاب الاساسية فتركز في كونه - بطريقة ترتيبه ، ومادته المجموعة فيه - يعطي مادة غزيرة ضخمة يمكن أن تكون أساساً حياً لدراسة الموضوعات الادبية في الشعر العربي ، كما انه ، في نفس الوقت ، يساعد مساعده ملحوظة على تطور هذا الاتجاه في البحث والدراسة في علم الادب وتاريخه .

وبشكل تقريبي ، فإن أكثر الاشعار المختارة في الكتاب عن الأثر ، وقها: الديار ، والأطلال ، ما هي إلا أجزاء من القصائد ،

١ - أسامة ، المنازل ، ص ٥ ؛ المخطوطة ، الورقة ٦ (أ) .

وبخاصة من الجزء الارابي في القصيدة العربية والذي سمي «بالكاه على على الاطلاق» ، وتحول مع الزمن إلى تقليد أدبي الزامي ، ودخل في صلب نهج القصيدة . (١)

نفسد أشار المستشرق السوفييتي الكبير الاكاديميك إ. ي . كراتشوفسكي إلى قيمة كتاب أسامة وأهميته في دراسة الموضوعات الادبية فأنشأ «أسامة» وهو غير شاك ، طبعاً ، في امكانية النظره الجملية لكتابه المفهم بالشاعر والمواظف ، جمع فيه مادة غنية من أجل مثل هذا العمل ، وأضماً بذلك الكثير من إشارات العالم [ مثل هذه الدراسة ] . إن كل هذه المادة تقريباً ، يمكن أن تنتقل لتصبح تحت تصرف الباحث الاوروبي ، منقذة هذا الباحث من بحث وتفتيش طويلا [ بلع مثل هذه المادة ] وفي هذا تكمن القيمة المظلمى لكتاب أسامة ، ومن غير الممكن أن يفقد ( هذا الكتاب ) من تاريخ الادب العربي والحياة (٢)

ويؤكد ذلك كتاب النازل والذيل « قيمة أدبية كبيرة ، ويشير اهتمام الاختصاصيين ويستغلها بقوة . وأهميته في عصرنا هذا قد فاقت بكثير بكثير تلك الاهداف الاساسية التي من أجلها وضع أسامة كتابه : إذ لقد جمع في هذا الكتاب حوالي ٥٠٠٠ بيت من الشعر العربي الرائع ، والتي لا يمكننا - أحياناً - أن نثر عليها في دولوين شعرائها . إنسه

١ - كراتشوفسكي ، إ. ي . ، مؤلفات مختارة . ج ١١ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣

أشبه بالمجموعات الشعرية المشهورة « كالحجاسة » و « الإيمالي » . وأشعاره كلها مجموعة ومختارة من قبل شاعر ، يتلك ذوقاً أدبياً رقيقاً ، وإحساساً نقدياً عجبياً .

إن المخطوطة الوحيدة للكتاب ، الفريدة في العالم ، محفوظة في معهد الدراسات الشرقية - فرع لينينغراد - التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية ، تحت رقم (C85) ، وتقع في ٢٥٠ ورقة . وحسب المعلومات المكتوبة في آخر المخطوطة فإن الذي كتبها إنما هو أسامة ذاته ، عندما كان في حصن كيفا ، وكتابها كانت في جمادى الأولى لعام ٨٥٦٨/هـ . أول عام ١١٧٣ . وبلاستناد إلى هذه المخطوطة فإن كلا المستشرقين « فريين » و « كراتشوفسكي » قد وصلا إلى النتيجة التالية : « إن المخطوطة إنما كتبت بخط المؤلف نفسه (أفوجراف) » . لكن يتفوق صروف في عام ( ١٩٠٧ ) قد ارتأى بأن النسخ ( السكاتب ) لكتاب أسامة هذا إنما هو ( غنائم ) : ربما قد ييض مسودة أسامة التي لم تصلنا ، وبعد ذلك قد قرأ هذه المبيعة على المؤلف أسامة ، كي يصحح بنفسه الاخطاء التي يمكن أن تكون قد وقعت نتيجة ( التبييض ) ، ولذا فإن المخطوطة التي وصلتنا - حسب رأي صروف - إنما هي مخط ( غنائم ) . وأسامة نفسه في « كتاب الاعتبار » يتحدث عن ( غنائم ) ، الذي كان خادماً لآبيه ، وشاركه في رحلات الصيد ، وكان صاحب حرفة جيدة ، بلياً في حديثه ، حسن التأديب ، وربما قد امتلك خطاً جميلاً ، وربما قد طلب أسامة الحرص منه المساعدة لينسخ له مؤلفاته .

إن ما يرجح اقتراضنا الأخير ، كون ( غنائم ) النسخ الحقيقي - في حياة أسامة - مؤلف آخر من مؤلفاته ( انظر رقم ٦ ) .  
لكننا لا تقطع بصحة اقتراضنا هذا ، بل يبقى السؤال مفتوحاً ، يستدعي الجواب الدعم بالأدلة والبراهين ، إننا نفترض أحد فرضيتين لا ثالث لهما : إما أن أسامة ذاته قد كتب الكتاب بخط يده ، أو أن غنائم كتبه له في حياته .

أما ما يتعلق بتاريخ المخطوطة ، فبالاعتماد على المعلومات التي توغرت لنا ، يمكننا أن نتبع هذا التاريخ حتى بداية القرن التاسع عشر تقريباً ، أي إلى وقت ظهورها في المتحف الآسيوي في لينينغراد ، ثم تابع دراسة تاريخها حتى أيامنا هذه .

لقد بقي « كتاب المنازل والديار » في دمشق حتى القرن السادس عشر ، وكان مالكه محمد السعلاوي . وزي بأن المخطوطة قد وصلت إلى دمشق عندما انتقل أسامة من حصن كيفا في شال سورية إلى دمشق . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر كانت المخطوطة قد فقدت الورقة الأولى ، لكن الورقة الأخيرة كانت لا تزال محفوظة ، وكانت قد كتب عليها بخط محمد السعلاوي تاريخ ومكان الكتابة .

وبعد وفاة السعلاوي ظهر تذييلان على المخطوطة الواحد تلو الآخر ، عام ١٦٥٩ و ١٨١٠ . يشهدان أن المخطوطة كانت لا تزال في سورية أيضاً ؛ أولاً في دمشق ، وبعدها في حلب . وكان مالكيها الشاعر المشهور فتح البارالمبي - صديق ج . ل . روسو ( Joseph Louis Rousseau )

المتنقل الفرنسي . وفي عام ١٨٢٥ وصلت مخطوطة أسامة إلى روسيا ، ضمن مجموعة روسو التي كانت في عيادها ، على أرجح تقدير ، وذلك بفضل مساعي سلفترودو سامي الشوبر . ونفترض أن روسو قد أخذها من البارالمبي . وفي العشرينيات من القرن التاسع عشر تقع في أعمال المستعرب خ . د . فرين<sup>(١)</sup> على إشارة إلى ( أفوجران ) - نسخة لكتاب مكتوبة بخط المؤلف ) - أسامة بن منقذ : « كتاب المنازل والديار » ، وإلى أنه محفوظ في المتحف الآسيوي في لينينغراد - روسيا .

وبطريق الصدفة كان قد عثر المستشرق السوفياتي إ . ي . كراتشكوفسكي على هذه الإشارة في أعمال ب . أ . دون عن المتحف الآسيوي<sup>(٢)</sup> ، لكن كراتشكوفسكي شك في وجود المخطوطة ، وفي صحة هذه الإشارات إليها ، ذلك لاعتقاده بأنه من غير الممكن أن تكون المخطوطة موجودة في العالم ، في الوقت الذي لم يسرف عنها أي شيء المستعرب الفرنسي هرتسويغ درينورغ ، الذي درس جميع مؤلفات أسامة ردهاً طويلاً من الزمن ، دون أن يثر في أبحاثه على أية إشارة إلى مخطوطة « كتاب المنازل والديار » هذه . لكن كراتشكوفسكي لم يبق عند حدود الشكوك ، بل أخذ بالبحث عن المخطوطة بين مخطوطات المتحف الآسيوي إلى أن وجدها فعلاً ، ثم قام بوصفها وصفاً دقيقاً

١ - فرين ، خ . د . ، وثائق روسية قديمة ، СПб ، عام ١٨٣٦ ، رقم ٢٤٧ ص ٥٠ - ٥٩ .

Dorn, B.A., p. 289-293

في عام ١٩٢٥<sup>(١)</sup> . وبعد ، في عام ١٩٦١ قام المستشرق السوفياتي الدكتور أ. ب. خالوف بتصوير المخطوطة ، وإصدار هذا المصور مع مقدمة باللغة الروسية ، وفهرس عدة للاعلام ، والاماكن ، والقواني ، الخ .. أما في البلاد العربية ، فلانتمت على هذا المصور قام المكتب الاسلامي ، بإصدار المخطوطة في كتاب محقق ، ثم بعد ذلك ، في عام ١٩٦٨ قام مصطفى حجازي بإصدار الكتاب محققاً تحقيقاً نقدياً مع دراسة وملاحظات وشروح<sup>(٢)</sup> .

سعى هذا المؤلف وكتاب المنازل والديار ، لكن لا توجد ثقة كاملة بأنه سعي هكذا منذ البداية . ذلك لأن ورقة المخطوطة المكتوبة

١ - كراتشكوفسكي ، إ. ي . ، مؤلفات مختارة . II ، ص ٢٦٦ - ٢٨٣ ؛ I ، ص ٧١ - ٧٤ .

٢ - المنازل والديار ، تأليف أسامة بن منقذ ، تحقيق مصطفى حجازي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

يشير مصطفى حجازي في مقدمته إلى أن إصدار المكتب الاسلامي ، لا يتمتع بالجودة العلمية ، وإلى أنه صورة عن المصور الروسي . لكننا في الواقع ، وقمنا على إصدار المكتب الاسلامي ، هذا ، وعلى إصدار حجازي وثبت لدينا أن المكتب الاسلامي قد قام بجهد علمي كبير مشكور عليه ، قد اعتمد عليه مصطفى حجازي ذاته . وفي حديث شخصي مع أحد المساهمين في إصدار المكتب الاسلامي ، لسنا المرارة لموقف الاستاذ حجازي هذا .

عليها العنوان إنما كتبت أخيراً بخط مغاير لخط المخطوطة . لكن من المشهور عندنا أن أسامة غالباً كان يستعمل عناوين غسيرة مسجوعة تقع في كلمة أو كلمتين عندما يسمي مؤلفاته كما هو الحال في هذه التسمية : « كتاب المنازل والديار » .. ولا بد من التأكيد على أن تسمية الكتاب هكذا أصلاً لا تمتلك أية علاقة - إطلاقاً - مع الجغرافيا ، خلافاً للافتراض الخاطيء ، الذي افترضه زكي . أ .<sup>(٣)</sup> .

ان التصور الجيد عن تركيب ودوافع كتابة هذا المؤلف يمكن أن تعطيه مقدمة أسامة له : « قال أسامة بن مرشد ... بن منقذ الكتاني ... وإن نقلت بنا الدنيا تنقل الطلال ، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال ، وعفت رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا ، ونصدع شملنا أيدي سباً ، ونشعبت بنا سبل المذاهب ، وأخذت الحوادث على مشري

١ - انظر . اعلام العرب ، رقم ٧٩ ، ص ١١٥ - ١١٦ . بقول زكي . أ . : « وانتهت أيامه الأولى [ أيام أسامة ] - وكان قد قسابل فيها الخليفة مرتين - إلى الاقتناع بأن ما ينبغي عمله إنما هو وضع كتاب في ( المنازل والديار ) . لقد رأى كثيراً من المدن ، وشاهد كثيراً من الصحاري والوديان والبحار والأنهار إلا أن ما يراهم ناظره في هذه الأنام شيء مختلف ربما يميزه الاسرار والعزم والوقار والرسوخ وقد ينسج بالذوام ، وأن يرغب الجميع على التأمل فيه وطول التفكير ، لكنه ما مسك اللم حتى حاجت به الذكريات ورأى أن يكتب لهؤلاء الذين ساموه شيئاً » .

وآلي ، وأنى الموت أسودى وأشبالي ، كل ذلك بقدر جرى به القلم في القدم ، وقضاء سبقت به المشيئة قبل الطروح إلى الوجود من المدم ، ألقى ما سر من ذلك وساء بالتسليم والرضى ، وأفوض إليه سجل وعلا .  
فيا قدر وقضى ، وأقر بأن ابتلاه . بعدله ومما فاته بفضلله ، وأرجو من رحمته أن يكون ذلك كفارة للتو . سلفت ، وموعظة دعت عن المناسي وصرفت ، وإن ما قالنا من الدنيا وآفتها بذنوب أترفناها فرحمنا بمجيئها مكافئها .

وبعد ، جعلك الله تنجوه من النوائب ، وأمنى لك الطيابة من كل الشوائب ، ولأزاعتك بحادثة تنسي ما قبلها ، ونسفر ما بعدها ، وتفتح من التكبكات أبواباً لا تستطيع سدها ، فاني دعائي إلى جمع هذا الكتاب مائل بلادي وأوطاني من الخراب ، فإن الزمان جر عليها ذيله ، وصرف إلى تفنيها حوله وحيله ، فأصبحت كأن لم تكن بالأمس ، موحشة العرصات بعد الأوس ، قد دثر عمراتها ، وهلك سكانها ، فمادت منانيها رسوماً ، والسررات بها حشرات وهموماً .

ولقد وقفت عليها بعدما أصابها من الزلازل ما أصابها ، وهي أول أرض مس جلدي ترابها ، نسأ عرفت داري ، ولا دور والذي ولأخوتي ولا دور اعمامي وبني عمي وأسرتي ، فبنت متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه ، وانتزاع ما خوله من نوائبه .

ثم انصرفت فلا أباك خبيتي رعش القيام أميس ميس الاصور

وقد عظمت الرزية حتى غاشت بؤادر الدموع ، وتمايت الزفرات

حتى أقلمت حنايا الضلوع ، وما أقصرت حوادث الزمان على خراب الديار دون هلاك السكان ، بل كان هلاكهم أجمع ، كارتداد الطرف وأسرع .

ثم استمرت التكبكات تترى من ذلك الحين وهلم جرا ، فطسرت إلى جمع هذا الكتاب فجعلته في بكاء للديار والاحباب ، وذلك لا يفيد ولا يجدي ، ولكنه مبلغ جهدي ، وإلى الله عز وجل أشكو ما لقيت من زمني وانفرادي من أهلي وإخواني ، وإغترابي عن بلادي وأوطاني .

وإليه عز وجل أرغب في أن يمن علي وعليهم بفرانه ، وبموثنا برحمته في دار رضوانه .

وقد جعلت هذا الكتاب فصولاً ، فافتتحت كل فصل بما يوافق حالي ثم أفضت فيما يوافق ذا القلب الخالي ، لكيلا يأتي الكتاب وهو كله عويل ونياحة ، ليس فيه لسوى ذي البت راحة .

على أن رزايك الدنيا كالأجل غمل ولا تهمل ، وإن قلت اليوم فعداً تقبل فما أحد من ربيهن سليم .

وتتبع هذا المعنى صب ، وحصره لا يمكن ، وقد أوردت منه ما يريد الراجعة ، ويسكن الزواعة ، والمزور إلى من وقف عليه مبنول ، وهو عند الكرام مقبول (١) .

يقسم أسامة كتابه إلى ستة عشر فصلاً ، يبددها بالتفصيل في نهاية المقدمة . ولكن فصل عنوان خاص : « فصل في ذكر الديار » ، وفصل في ذكر البيت » ... الخ . وقد جمع في كل فصل أشعاراً وقطعات أثرية حول

١ - أسامة : المنازل ، ص ٣٤ - [الحول والحيل : القوة] .

المعنى الذي ينضوي عليه عنوان الفصل ، أي حلول « الدبار » ، أو « البيت » ، أو « الربع » .. الخ ... ويعطي أحياناً شرحاً وتفسيراً للمصطلح ( اللفظة ) التي هي عنوان الفصل ، وحولها تدور الأشتعار . وتساقت الأشتعار ضمن كل فصل ، أحياناً ، حسب النظام التاريخي : حسب حياة الشعراء ؛ وأحياناً أخرى حسب القيمة الفنية للأشتعار دون مراعاة حياة الشعراء . ثم يسوق أشعاره وأشعار أقربائه في آخر كل فصل مع توضيح وشرح للكلمات التي يراها صعبة الفهم . ولا بد من الإشارة إلى أنه أحياناً لا يراعي العنوان في الفصل ، بل يعتمد الموضوع كثيراً<sup>(١)</sup> .

(١) ص ٢١

هـ - كتاب العشا<sup>(٢)</sup> :

١ - زيادة التفصيل عن مضمون المخطوطة ، انظر :

كرانشكوفسكي ، إ . ي . ، مؤلفات مختارة . - II ، ص ٢٧٦ - ٣٨٣ ؛ ومصطفى حجازي ، المقدمة لكتاب « المنازل والدبار » ، ص ٢١ .

٢ - يعطي ياقوت الحموي اسم هذا الكتاب خطأ . ويسميه خطأ « كتاب القضاء » . وينقل عنه هذه التسمية في عصرنا أ . شاكرك ( انظر . ياقوت ، معجم الأدباء ، II ، ص ١٨١ ) . أما أحمد أمين فقد كتب مقالة بعنوان « العشا أم القضاء » ، حيث يوضح فيها خطأ التسمية « كتاب القضاء » . ( انظر أ . أمين ، فيض المفاخر ، II ، ص ١٤٣ - ١٤٧ ) .

إن هذا الكتاب يشبه بدوره « كتاب المنازل والدبار » ، ووجه الشبه يتجلى في كونه مثله يتألف من مجموعة أشتعار تدور حول موضوع واحد هو « العشا » . والكتاب قد كتب لتسليّة - حسب كلام المؤلف ذاته - . لقد جمع أسامة في هذا الكتاب قصصاً ، وأساطير ، وكل الاختصار عن العشا ، ابتداءً من عشا موسى ، وانتهاءً بأشعاره عن عشا ، التي اعتمد عليها في شيوخه . أما فضل أسامة في هذا الكتاب فيتركز في جملة الكثير من الشعر ، المزج بالقصص والذكريات والذواكر ، التي رافقتها أحياناً بعض الصروح والابتنجات البتوية . وتختل هذه القصص قصص عن عصر أسامة ، يعطينا فيها صورة حية عن حياة ذلك العصر<sup>(١)</sup> . إن أسامة - بمزجه الشعر مع القصص والذواكر والحكايات - قد أكد الصورة الواسعة الانتشار بالنسبة « للمجموعات » و « المختارات » عند العرب ، حيث أحبوا جمع المواد المتنوعة المختلفة عن مواضيع متشابهة في هذه المجموعات . وربما قد ظهر لنا أسامة بكتاباته هنا ، بالنسبة للموضوع - أكثر أصالة ، ذلك لاضافته أشتعاره الخاصة في هذه المادة ، لكن إيراد هذه المعلومات قد جاء عنده أيضاً بصورة جاهزة ، متشابهة مع الصور المأثورة . وهنا - في « كتاب العشا » تلك عملاً مبدعاً مصادرة بحث أشبه ما تكون بمادة مكتب عالم لا يسعى وراء روح الحياة وتوقها ، بقدر ما يسعى وراء جمع المادة الموزعة في الكتب . حتى إن أسامة بأشعاره

١ - القصة عن التصوفين والزهاد . انظر :

Derenbourg, Le vie d'Ousama, p. 528-529

التي أوردتها في هذا الكتاب - والتي لم تكن فقط في مقطوعات صغيرة ، بل ، أحياناً ، في قصائد طويلة - لم يظهر الاصل الحقيقى ، والتجديد الواضح ، ذلك أثبت كل هذه الاشعار تنصوي تحسنت لواء الشعر الكلاسيكي. وينعكس في هذا الكتاب بشكل جلي واضح المعرفة والتمعن في اللغة والشعر ، تلك المعرفة ، وهذا التمعن اللذان لم يكونا ، إطلاقاً ، الصفة الضرورية الحتمية لمرئي قد نال ثقافة المدرسة فقط كما هو الحال عند أسامة ، ذلك الشاعر المشهور بين معاصريه ، حتى وبين الذين تلو . أسامة - هنا في هذه المعرفة ، وهذا التمعن - يعتبر واحداً من الطليقة المتوسطة ، التي تقول الشعر . وفي الواقع ، يمكن اعتبار القسم القليل من مؤلفاته يمتلك هذه الصفة : صفة الأدب المكتبي ، صفة التجميع ، لكن هذا لا ينفي إطلاقاً وجود مؤلفات أخرى لأسامة كان فيها مبدعاً ، منطلقاً من واقع الحياة .

في التقديم « كتاب العسا » أشير أسامة ، إلى أنه كان قد قد « كتاب عن العسا » ، لذا أراد أن يؤلف كتاباً حول هذا الموضوع ، ويضمنه جميع ما جمعه عن « العسا » : دولي نحواً من ستين سنة أطلب « كتاب العسا » بالشام ومصر والرافق والحجاز والجزيرة ودير بكر ولا أجد من يعرفه ، وكما تعذر وجوده ازدت حرصاً على طلبه ، إلى أن حدثني إلياس منه على أن جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العسا ، ولا أدري أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره ، غير أنني قد بلغت النفس منها ، ولا ارتأيت في أن مؤلف ذلك الكتاب وقع له

ممن فأجاد في تأليفه وتنميقه ، وكتاني هذا وإن كان خالياً من العلوم التي يتجمل التصانيف بها ، ويرغب أولو الفضل في طلبها ، فما يخلو من أخبار وأشعار تزيل النفوس إليها ، ويحسن موقعها عن وقت عايشها ، وقد افتتحت به بذكر عصاموسى ، عليه السلام ، ثم عصا سليمان بن داود ، عليهما السلام ، ثم أفضت في ذكر الأخبار والأشعار التي يأتي فيها ذكر العسا ، ولا أدعي أنني أثبت على ذكر العسا فيما جئته وإنما أوردت منه ما حفظته وصمته (١) وأوردت أسامة في هذا الكتاب أرقامه أيضاً كمادته .

في عام ٥٧١ / ١١٧٥ كان أسامة قد كاتبا قاضي الفاضل حول هذا هذا الكتاب وأورد هذه المكاتبة عماد الدين الاسفاني في كتابه « خريدة القصر » ، وبهم منها أن أسامة الذي كان وقتها في ديار بكر ، أرسل مؤلفه إلى وزير مصر ، والفاضل أوصل له رأي الوزير عن المؤلف .

تدرف في إيلنا ثلاث مخطوطات لكتاب العسا :

- أ - الأولى محفوظة في مكتبة الامبروزيان في ميلانو تحت رقم [Ambr H 125] ، وتاريخ نسخها ١٠٦٧ / ١٦٥٧ (٢) .  
ب - الثانية محفوظة في ليدن تحت رقم 370 = Amin 2093 ؛ تقع في ٩٤ ورقة ، وعليها تاريخ ١٠٩٤ / ١٦٨٣ ، الذي ، كما نتفد ، ربما كان تاريخ نسخها (٣) .

١ - H. Deredqour' Le vie d'Ousama, C. 505

٢ - حسين ، م . أسامة ، ص ٩٧ .

٣ - ك . ليدن . I . > ص ٢٨٠ ؛ عن هذه المخطوطة كتب ZDMG 69,73 .  
مقالة . انظر :

ج - القائمة تقع في ١٢٢ ورقة ، منسوخة عام ١٧٠٩/١١٣١ ، وعلى هذه المخطوطة كان هرون بنع دربنورغ قد اعتمد في إصدار مقدمة المخطوطة عام ١٨٨٨ ، وترجمها للغة الفرنسية (٧) .

### باب الادب :

إن هذا المؤلف أيضاً مجموعة شعرية ؛ تركب وترتيب المادة فيه متشابهان مع تركيب وترتيب مادة « كتاب المنازل والديار » الذي إنما هو غرض من مؤلفات ذلك العصر ، الذي يعتبر جميع المواد حسب موضوع معين من أهم صفاتها .

قسم أسامة كتابه « باب الادب » إلى سبعة أبواب : (١) في الوصايا ؛ (٢) في السياسة ؛ (٣) في الكرم ؛ (٤) في الشجاعة ؛ (٥) في الأدب بمعنى مكارم الاخلاق ، وقد قسم هذا الباب إلى خمسة عشر فصلاً ؛ (٦) في البلاغة ؛ (٧) في الحكمة . ويورد في هذه الابواب ما يتعلق بها ، مما جاء في القرآن ، ثم ما ورد في حديث الرسول ، ثم ما أورثه من أقوال الحكماء ، وأشعار الشعراء .

إن التشابه بين « باب المراتي » ( ص ٤٠٥ - ٤١٠ ) ، في « باب الادب » ، و « فصل بكاء الاهل والاخوان » في « كتاب المنازل والديار » [ ص ٢٧٢ وما بعد ] يلقى مباشرة في عين القارئ ، ذلك

H. Derenbourg, Le vie d'Ousane, p 499 - 543.

لأن أسامة يورد ، هنا وهناك ، نفس القطوعات الشعرية ، مع نفس التقديم لها ، في حين تورد هذه القطوعات في المصادر الاخرى بروايات مختلفة عن رواية أسامة ، وأحياناً باختلاف في الالفاظ ، لكن مع هذا التشابه بين مؤلفي أسامة يوجد أيضاً اختلاف بين : ففي « باب الادب » يورد أسامة أشعاراً في الكرم والحكمة ، وفي الفضائل الاخرى التي يختص بها العرب ، و « باب الادب » بالقرابة مع « المنازل » ؛ يتميز بأهدافه آتوية والوعظية ؛ يتكلم في الكتاب على الثقة والاخلاص ، وعلى حفظ السر وكتمان ، وعلى التخصف والاقتصاد في الرغبات وكبح جماحها ، وعلى عدم السج بالكلذب أو الغضب ، وعلى الاعمال الحسنة والطاعة . ولم يغفل أسامة البلاغة في هذا الكتاب أيضاً ، إذ يخصص فصلاً للبديع لكن هنا ، في غييز عن « كتاب البديع » ، يتوقف أسامة على الجوانب التطبيقية العملية . وإعجابه على ذوقه الادبي النقدي يورد أشعاراً جيدة ، مقتبسة من أشعار الشعراء الآخرين . ويبدو لنا أسامة في هذا وكأنه ناقد أدبي . وليس هذا عجيب ، ذلك لأن رجلاً كأسامة ، بقدر أشعاره الخاصة ويفرلها بعد إعادة النظر فيها ، ويحذف تلك التي أصابت نحياساً قليلاً ، لا يمكن أن يكون متساهلاً مع أشعار الشعراء الآخرين ، بل سينقدها حتماً ، ويخطي المجال الواسع للوقفة الادبي النقدي في حسن الاختيار والانتقاء والالتباس .

إن « كتاب باب الادب » ، بصورة عامة ، ثمرة عقل أسامة الناضج قد كتب من قبل أدب ذي خبرة كبيرة ، وتجربة ، ومعرفرة واسعة . والمواد المجموعة في الكتاب إنما تدل على اطلاع أسامة الواسع ،

وعلى حسه السليم ، وفوقه الرفيع في الاختيار .

وللكتاب مخطوطتان :

أ - الأولى ضمن مجموعة كتب يعقوب صروف الخاصة ، وقع في ٢٤٩ ورقة (٢١ دقراً) ؛ فقدت من القسم الثاني (٦) أوراق ، كما أن الورقة الأخيرة من هذا القسم قد فقدت جزئياً بعض التعليقات والشروح . وهناك تعليق وملاحظة على المخطوطة يعود تاريخها إلى عام ١١٨٣/٩٧ - ١١٨٤ . والمخطوطة منسوخة في حياة أسامة ، عندما كان له من العمر ٩١ عاماً ، حيث قد أهدى أسامة هذا الكتاب إلى والده مرهف . وكان النسخ دمشق ، والناسخ هو « غنائم المري »<sup>(١)</sup> . لقد قام يعقوب صروف بوصف المخطوطة ، وكتب عنها عدة مقالات<sup>(٢)</sup> . وصورة المخطوطة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ( ٤٧٠٠ أدب ) .

ب - المخطوطة الثانية - « في دار الكتب » ، في القاهرة ، منسوخة عام ١٠٦٦ / ١٦٥٦ . والناسخ هو رجب الجري . وبإعتماد على هاتين المخطوطتين قام الأستاذ أحمد شاكر بإصدار الكتاب في القاهرة ، عام ١٩٣٥<sup>(٣)</sup> .

١ - ك . دار الكتب ، الإصدار الثاني ، ج ١ ، رقم ٣٥٠ .

٢ - لباب الآداب ، المقدمة ، ص ٧ - ٩ ؛ ومجلة القطب ، جلد ٣٢ ، ص ٩٥٣ - ٩٦٠ ، كانون أول ، ١٩٠٧ ؛ انظر أيضاً : مجلة ٣٣ ، نيسان ، ١٩٠٨ ، ص ٣٠٨ - ٣١٣ .

٣ - لباب الآداب ، لأسامة بن منقذ ، حققه أحمد شاكر ، مطبعة الزماني بصر ، ١٩٣٥ .

#### ٧ - التأسيسي والتسلي :

إن هذا الكتاب متشابه أيضاً بمضمونه ويحتواه مع « كتاب المنازل والديار » ، ومع « باب المراتي » في « كتاب لباب الآداب » . والأسف فإن هذا الكتاب مفقود ، ومشار إليه عند أسامة في مؤلفه رقم (٩)<sup>(١)</sup> . ولهذا ، كشيجة منطقية ، قد كتب قبل عام ٥٧٩ / ١١٨٣ - ١١٨٤ . هذا ما كتبه أسامة في « لباب الآداب » (ص ٤١٠) :

« قد أوردت في كتابي الترجمة بكتاب ( التأسيسي والتسلي ) من ذكر الصبر ما ورد فيه في الكتاب العزيز ، والاحاديث الرفوعة ، وشيئاً من أقوال الحكماء ، ومن الاشعار والاختيار ، ففتيت عن الاطالة فيه في كتابي هذا ، فأوردت في هذا الفصل مختصراً ، ... » ؛ « د مارأيت أن أخلي هذا الباب من ذكر شيء من المراتي ، فذكرت هذه التبعة منها » وقد أوردت في كتابي الترجمة بكتاب « التأسيسي والتسلي » من المراتي والتأذي ( ما غنيت به عن الاطالة ها هنا !!

#### ٨ - نزل شجرة الدر :

المؤلف مفقود ، ومذكور عند ياقوت الجوي ، وابن خلكان ، وحاجي خليفة<sup>(٢)</sup> .

١ - أسامة ، لباب الآداب ، ص ٢٩٤ و ٤١٠ .

٢ - ياقوت ، معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ١٨٨ ؛ ابن خلكان ، ج ١١ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ؛ حش ، ج ١١١ ، ص ٢٣٨ ، رقم ٥١٣٦ .

## ٩ - السبب والسبب :

وكذلك فإن هذا الكتاب مفقود، ومشار إليه من قبل أسامة في مؤلفه رقم (٦)،  
وغير ياقوت الحوي أن أسامة كان قد أهدى الكتاب لأبيه (٧)،  
إن مؤلفات هذه المجموعة - (المؤلفات ذات الطابع الأدبي) -  
غير متساوية القيمة لا بحجمها، ولا بأهميتها. ثلاثة منها (النزال،  
والنصا، ولباب الآداب) ما هي في المجموعات شعرية. ونفترض  
أيضاً أن المؤلفات الأخرى المفقودة من هذه المجموعة هي مجموعات شعرية  
أيضاً.

ثانياً - مؤلفات تحمل طابع السيرة، والطابع  
التاريخي.

١٠ - الإهداء :  
لقد كان لأسامة من العمر (٩٠) عاماً عندما كتب هذا الكتاب،  
وجمع فيه مذكراته وملاحظاته عن العلاقات الحربية والسياسية التي كانت  
في مصر، والعراق، وسورية في القرن الثاني عشر ميلادي. ويصف  
بصدق وعقل وإخلاص الممارك مع الفرنج، ويتناول بموضوعية الأخبار  
عن معظم موضوعات كتابه (يصف مثلاً كيف أزم هو وزميل له على  
القرار من قبل فارس افرنجي). لكنه، أحياناً، في بعض الحوادث،

١ - أسامة سليل الآداب، ص ٣٧٧.

٢ - ياقوت، معجم الأدباء، ١٢، ص ١٨٢.

الحمد

- وخاصة في الأخبار عن حوادث مصر، التي يمكن أن تعطي لشخصيته  
صفات سلبية - يحاول التخلص، والبعد عن الحقائق التاريخية، وتبرير  
مواقفه الخاطئة بلسان غير علي، وغير واقعي، مظهرًا بذلك موقفًا  
ذاتياً شخصياً. من الأحداث (إذ إن الكثير الموثق من هذه الأحداث كان  
قد نفذ - هكذا بصيغة المجهول - حسب كلامه). لكنه رغم هذه  
المواقف السلبية، يقول الحقيقة غالباً، فهو يعجب بالبطولة، مثلاً، كما  
عند العرب، كذلك عند الفرنج، ويورد الكثير من الحوادث  
المكتوبة في العلاقات المتبادلة بين المسلمين والفرنج في أيام الحروب الصليبية؛  
في أوقات المارك والقتال والحرب، كما أنه يورد العلاقات أيام الحياة  
السلبية، ويصف بتفصيل زائد عادات وطباع وتقاليد الفرنج، ويتحدث  
بشاعر صادقة بحقيقة لطيفة عندما يذكر أسرته: يقدر الأب الذي نظر  
إليه أسامة وبيون الحبة، لكنه واقعي في حديثه عنه - رغم ذلك -  
وهو لا يتكلم بمدة عن عمه الذي حرمه وطنه، بل - على العكس -  
يتحدث بالكبر واعتزاز عن طولاته وانتصاراته الحربية، ولم يذكر اسمه  
مرة إلا وترحم عليه.

٢ - لقد كان أسامة، في أكثر الحالات، مشاهداً أيام البين المايصف،  
ولذا فإن كتاب الاعتبار، يعتبر أحد المصادر الهامة جداً عن تاريخ  
الحروب الصليبية، وعلاوة على ذلك، فإنه أهم المصادر عن سيرة حياة  
أسامة الذاتية. إن كل مصائب الحياة والألم إنما يسببها على أسامة كون  
مدة الحياة القادرة للفرد لا تتغير، لكن هذا الاعتقاد الكامن

بالتقصاء والقدر ، الذي ربما لم يظهر في كل قصة ، لا يأخذ عند أسامة الجانب السليبي ، إذ إن الناس عندما يقررون بشدة على شيء فانهم لا يبدون وعقوفته ، حسب رأي أسامة . ويورد في ذكره للأفرنج دائماً عبارات « لنهم الله ... الشياطين الأفرنج ... إلخ ... » . لكنه رغم هذا ، وبشكل زائد ، يقدر فيهم البطولة والشجاعة والافتدالم ، ويذكر بأعجاب الصفات الحسنة التي يراها فيهم . إن رأيه في الأفرنج لم يتولد فقط نتيجة معرفته بهم في الحرب ، بل وألم السلم أيضاً . ولهذا فإن العبارات السابقة « لنهم الله ، يلهمهم الله ... ما هي إلا عبارات تقليدية ، ولا تدبر عن معتقد شكري حقيقي ، وليست موجهة إلى المسيحيين عامة . ويجب أن نفر لا ننسى أن بين عمال وموظفي السلطنة والامارة والخلافة الكثير من المسيحيين ، حتى إن أطباء ذلك العصر ، تقريباً ، كلهم مسيحيون ، وجميعهم كانوا يعيشون برهه ونعيم وسلام في بلاطات الامراء ( المسلمين ) ، وبصورة خاصة في فترة الصراع العنيف مع الصليبيين . وهذا تأكيد آخر لما ذهبنا إليه في « المقدمة » من أن المسيحيين عاشوا بأمان في ظل الحكم الاسلامي ، وما ادعاء الصليبيين بتحرير المسيحيين إلا ادعاء باطل كنا قد دحضناه فيما سبق .

٥) إن إقامة أسامة الأولى في دمشق - كما يظهر من كتاب الاعتبار - أعطته إمكانية أكبر للتعرف بشكل أقرب على الأفرنج . حتى إن أسامة أحياناً يدعو بعضهم « أصدقاء » وكأنه قد تناسى دعوته السابقة لهم « بالشياطين » . ومع هذا فإنه يتحدث باستفاضة عن طباع الأفرنج ،

ويصفهم بالوحشية والقسوة وديكتهم على طييم ، ويرى بأن إمكانية الرقي والتقدم إنما متوفرة للأفرنج الذين يعيشون في الشرق فقط ، ذلك لما يكسبونه من العرب والمسلمين .

٦) في « كتاب الاعتبار » تظهر المفارقة الواضحة بين الشرق والغرب ، وبأخذ الشرق قصب السبق في هذا المجال ، حتى لو طلقنا هذا على مستوى الأفراد : أبو أسامة ، مثلاً ، محارب وسياد ، يخصص البيس لنسخ القرآن ، والكتب عامة ، وأسامة أيضاً أديب ، ومؤرخ ، ورجل دين . وأعظم فقدان عنده في حياته كان ، بالنسبة له ، فقدته مكتبته . ولم يكتف ( أسامة وابوه ) الوحيدين في هذا ، بل على مناولهما كانت معظم رجال الحيط الاجتماعي الذي يعيشون فيه . هذا هو ديت المعرفة في طرابلس يسقط في يد الصليبيين ، وهذا نحن نرى اميرين من امراء العرب الجاهلين لطارلس - ( أبا اسامة وعمه ) يذهبان إلى طرابلس لا لصراف الحلي والمجوهرات والنساء ، بل ليفتدوا عالمين شيعيين : الطباطبائي وابن منير . قبل يا ترى شعر الأفرنج بقيمة وخطورة المتدينين !! وإن شعروا بذلك فهل فهموه !! والجواب على هذه التساؤلات برأينا ورأي الكثير من العرب والمشرقين هو النفي .

وبفضل « كتاب الاعتبار » تعرف بشكل أدق وأقرب على نموذج الفارس المسلم . اننا نعرفه الآن أكثر مما كان يعرفه المعاصرون له في المصور الوسطى ، وأكثر مما عرفته جماهير الصليبيين . ويستبر ف . حي و كتاب الاعتبار ، أول مسيرة ذاتية في الادب العربي . اما كرايتشكوفسكي

فيكتب عن هذا ما يلي : « لا يمكن اعتبار الكتاب سيرة ذاتية بالمعنى العادي للسيرة ، بل إنه ( موزايكي ) جداً من اجل هذا . لكن لا يمكن إلحافه بأي فن آخر من فنون الأدب ، رغم ان المصور الذي تدور حوله جميع القصص هو - حياة أسامة » (١) .

إننا ، في الأدب الأوروبي حتى القرن السادس عشر ، لا نجد قط الأساس النظري للسيرة الذاتية بل نشر أيضاً على أشكالها المتطورة المتقدمة .

أما بالنسبة للأدب العربي فإن فكرة السيرة الذاتية كانت على الدوام غريبة ، لكن يمكننا ان نمر على ظواهر جزئية مفاجئة - طبعاً - مثلاً ، اعترافات الغزالي ( مات عام ١١١١ م ) ، لكنها وبسرعة تدخل في مجال علم النفس ( بيسيكولوجيا ) . وعمر البني ، الذي قل أبان المؤامرة ضد صلاح الدين في عام ١١٧٥ ، في مقدمته لكتابه عن وزراء مصر ، يتحدث عن طفولته الخاصة . وإذا كان في الجزء الأساسي من القصة لا يتحدث إلا عن الوزير المقصود ، فهو في المقدمة أيضاً يكثر الحديث عن أهله وأقربائه أكثر مما يتحدث عن نفسه .

أما عند أسامة فن المحتمل أنه قد وجد نظام معين أو فكرة محددة لطريقة كتابة الكتاب ، هذه الطريقة التي لا تمسك بخيط معين ،

١ - كراتشوفسكي ، إ . ي . ، مقدمة كتاب الاعتبار ، الترجمة الروسية ، ص ٣٦ .

إذا تستطرد من مجال إلى آخر على غرار معظم المؤلفات العربية . لكنه يعني من الصعوبة بمكان أن يحكم فيها إذا كانت عنده فكرة معينة أم لا ، ذلك لأن الأوروبي العشرين الأول من « كتاب الاعتبار » مقبولة ، والقصة الأولى تبدأ من نصف الكلمة . وربما زالت هذه الصعوبة في الحكم على طريقة وفكرة أسامة فيما لو عثرنا على الصفحات المفقودة ، ذلك لأن من عاين أسامة - كما شاهدة في معظم مؤلفاته المطبوعة في - مقدمته لمؤلفاته أن يشير إلى هدفه وغايته وطريقته . في الجزء الأول من « كتاب الاعتبار » ، يلاحظ بعض التنظيم الذي يحافظ عليه أسامة ، كما يرى هذا التنظيم في الجزء المخصص للحديث عن الصبي . أما في باقي الكتاب فطريقة إيراد المواد تكون أحياناً منظمة ، وأحياناً كثيرة دون تنظيم . وأشار أسامة إلى أن القصص تابع وتتوارد بارتباط فيما بينها . وهو في أفعاله من قصة إلى أخرى يستعمل عبارات متنوعة [ وذكرت بعضه [ سرهناك ] ما فعله مالك بن الحارث الأشتر . ] ، ( وحدث لي مثل هذا لما كنت ... ) ، ( هذه القصة تذكرني أخرى .. ) ، ( وشاهدت ما يشبه هذا ) ... الخ .. [ . وأحياناً يفقد خيط الاتصال . لكن هذا الاستطراد ، بشكل عام ، وقي ، آني يعود ببدء أسامة ليصنف أيام حياته ، وحوادث عصره ، مخبراً بذلك أحفاده - ( انطسب السام للكتاب ) .

إذا كانت بعض التواريخ الدقيقة ، التي يوردها أسامة ، وبعض التفاصيل الجزئية تدل على أنه سجلها في وقت مبكر - ربما منذ أن كان بمصر - : فإن الجزء الأساسي كان قد كتبه وهو في حصن كيفا ،

في هدوء سياسي نسبي ، إذ أن التاريخ الأخير في الكتاب هو عام ١١٨٢ أي قبل وفاته بست سنوات .

إن الكتاب بأكله قصة واحدة متكاملة متداخلة ، تكون في بعض الأماكن أكثر حيوية ، وفي بعضها الآخر أكثر هدوءاً ، لكن في كل هذا كانت القصة من الواقع ، وليست تخيلاً مكتبياً من الكتب . ولابد من الإشارة إلى أن أسامة يظهر - في قسمه الذي يمدح فيه صلاح الدين - وكأنه من أدياء ذلك العصر ، حيث يكتب محافظاً على المقابل والصريح والأزدواج ... أو فيما بقي من الكتاب فيحدثه حديث الشاعر ، العالم ، المؤرخ . وبشكل غير عادي عند المؤلف العربي ، وعند أسامة بالذات ، يورد أسامة هنا بقلة أشرطة الخاصة ، ومقتبسات من أشعار غيره .

إذا كان « كتاب الاعتبار » بتركيبه ومادته ، تقريباً ، قريباً في الأدب العربي حتى عصر أسامة على الأقل ، فإنه في صفة أخرى أيضاً لا يمكن أن يمر له على موازٍ ومجاور : إن هذه الصفة هي الإكثار من إبراد النكتة والنوادر بما إن روح النكتة تظهر عنده في الفاظ مفصولة ، وأحياناً أخرى في سجع وتراكيب طويلة ، ومررة ثالثة في لوحات كاملة . وأحياناً تدب الإشارة المضحكة الرقيقة الحياة في كل القصيدة : أيدور الحديث عن الناس أم الحيوانات ؟! « فالله مناضل من أجل العقيدة » ، « والصقر يصطاد بواجب الخدمة » ، « والأسديان أحياناً » ، « ومن فحجة أخرى : - الأمير الذي كان ، بشكل مدهش غريب ، ثقيل الفهم - « أكل أيضاً أكثر ( من تقل فهمه ) » ، « والبديوي » يخاف الطاعون ،

رغم أن أحياناً مع أهله ابتعد من الطاعون ، ، والجيش نهب الحصن تماماً ، « كما ينهب البيزنطيون » . إن كل هذه التراكيب تتأرجح ساطعة عن فكاكه ونكتته . وأحياناً يورد لوحة كاملة لحادثة واقعية ، لكن يوردها بلرلوب إنفا يدل على حضور روح النكتة عنده : الحمار الذي أراد أن ينفقي على خرج الدرام لا يثير الفكاهة والإسماط بدرجة أقل من الأسد الذي أخذ نفسه بالحرب من حضرة حول المسيح في في أرض الدار . وتظهر أيضاً اللوحة الحية في تمجده للعالم الذي ذهب مع الأمير للصيد : فوضاً عن الصيد جلس العالم الشيخ على التلة ، وأخذ يصلي لله كي ينجي الحجلة من الصقر . إلى ما هنالك من أمثلة عديدة مبنوثة في الكتاب .

إن « كتاب الاعتبار » بأكله يتألف من لوحات منفصلة ، تارة مضحكة ، وأخرى حزينة ، وثالثة رهيبه مرعبة . وربما يترك الكتاب في نفس القارئ لأول قراءة صورة عامة ، منفردة للأفكار والمخبر ، لكنه بالتدريج يطوي الانطباع عن حقيقته : إنه كتاب حول فكرة موحدة تصور حياة الكاتب وعصره ، تلك الصورة الممزوجة - إلى جانب كل ما قدمناه - بالهم الذي يروي ، من الواقع ، قصة عصر عصيب عاشه الكاتب .

ويمكننا أن نتحدث كثيراً أيضاً عن أبطال الكتاب ، وعن كتاب البطل لكننا نكتفي بهذا القدر من تحليلنا « لكتاب الاعتبار » ، الممثل لبعض الجوانب الفنية للنثر في أواخر العصر العباسي الثاني .

إن كتاب الاعتبار، قصة حياة لمشاهد عيان، تمتدحس فيها بسطوع ظروف الحياة، وعادات، وطباع ذلك العصر، ومن هذه الزاوية بالذات يمكن اعتبار الكتاب أيضاً أهم وثيقة تاريخية.

واقعة المظلي، والاعتبار، يعطينا الباحث العربي شوقي هضيف إذ يقول عنه بأنه: «مذكرات بدية تصور لنا القروسية العربية زمن الصليبيين، كما تصور حياة المسلمين لعصره، وحياة الصليبيين أنفسهم... إنه طريقة غامضة تروي من مذكرات سياسية وحربية واجتماعية عن عصره، وفي مذكرات نفسية ويبدو من نفائسها أن أكبر ما يكون بها مما خبيره بنفسه وشاهدته بسنة (١)».

إن كتاب الاعتبار، مكتوب بلغة عربية أدبية لا تضل من الخلل والامامة، ويعتبر في الفرافات عن اللغة العربية الكلاسيكية، وعن القواعد، مع وجود الالفاظ الجانبية، التي تعبر عن لهجة شامية سورية في ذلك الحين. ولا بد أنقلريء من أن يستغرب إمكانية العثور على مثل هذه الأخطاء اللغوية في كتاب هذا الأديب الشاعر. لكن أسامة قد قدم - من حيث لا يدري - خدمة جلي للباحث الذي يتأرخ اللغة العربية ولهجاتها، ويدرس تطور هذه اللهجات، ومجالات القرب والبعد بين العامية والفصحى، فكان أسامة بالزلاقة في كتابه إلى العامية قد أعطى صورة عن لهجة العامة ونفاها ما يفيد في متابعة دراسة تطور العامية.

١ - شوقي هضيف، الترجمة الشخصية، ص ٩٤ و ١٠٠.

إن المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب محفوظة في الأوسكريال (لكنها غير موصوفة في كاتالوك كاسر، ودرنبورغ). ويتألف أصل المخطوطة من ٨٨ ورقة، لكن (٢١) الورقة الأولى مفقودة، وحفظ فقط ٦٧ ورقة؛ والمخطوطة منسوخة في القرن XII / VII بخط مسوري (انظر تصور صنفين موجودين في إصدار حتى). وحسب التريالات التي على الورقة الأخيرة من المخطوطة (توجد صورتها في إصدار حسي أيضاً)، فإن حفيد مرهف بن أسامة قد قرأ المخطوطة على جده مرهف في عام ١٢١٣/٦١٠، الذي أجاز نشرها. وهذا ما يؤكد توقيع مرهف الشخصي برشته ذاتها. لكن حتى يدي رأياً مخالفاً إذ يرى أن هذه المعلومات تمان بالنسخة التي نسخت عنها هذه المخطوطة المخطوطة.

إن فضل البحث واكتشاف وإصدار هذا المؤلف يعود إلى هرونسبح درنبورغ، الذي أرسلته وزارة التعليم الفرنسية في عام ١٨٨٠ إلى إسبانيا للبحث عن المخطوطات العربية في مكتبة الأوسكريال ودراسها. فوجد في نفس العام المخطوطة المذكورة، لكنه أصدرها فيما بعد، في عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦، وفي عام ١٨٩٤ قام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية. ثم ترجم كتاب الاعتبار، فيما بعد إلى اللاتينية من قبل ج. شومان في ١٩٠٥ وأصدر مع مقدمة لدرنبورغ (١). وبعد، في عام ١٩٢٢ ظهرت

(١) G. Schuman, Usama ibn Munkidh memorian, Innsbruck, 1905

لكن حتى يؤكد أن هذه الترجمة قد اعتمدت كلياً على الترجمة الفرنسية، ذلك لأن الأخطاء في الترجمتين متشابهة. انظر. حتى، المقدمة لكتاب الاعتبار، ص (ك).

الترجمة الروسية التي قام بها م. أسالبي مع مقدمة إ. ي. كراتشكوفسكي ( إن الترجمة الروسية مقسمة إلى فصول تحت عناوين خاصة<sup>(١)</sup> . وفي عام ١٩٢٩ ظهرت الترجمة الانكليزية لحي<sup>(٢)</sup> ) ؛ وفي نفس العام (١٩٢٩) ظهرت الترجمة الانكليزية الثانية لـ ج. يوز<sup>(٣)</sup> . وبعد عام قالم . حي ، بالاعتماد على خطوط الاوسكرال ، بإصدار النص العربي « لكتاب الاعتبار<sup>(٤)</sup> » .

وعدا « كتاب الاعتبار » يمكننا أن نضيف إلى هذه المجموعة ما يلي من مؤلفات أسامة :

١١ - « كتاب اخبار اهل » . ١٢ - « كتاب تاريخ إبله » ،  
فيما كان وجودها الوثيقها عن « كتاب الاعتبار » مؤكداً . والكتابان معروفان عندنا فقط

١ - أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، موسكو ، ١٩٢٢ .  
في عام ١٩٥٧ أصدرت الترجمة الروسية ثانية مع مقدمة يلايف .

2) H. Philip, An arab-Syrian... New York, 1929  
3) G. Potter, Autobiography Ousama ibn Mounkidh, London, 1929

أسامة رستم في الكلية - مجلة الجامعة الاميركية ، جزء 1 ، مجلد ١٦ ، عام ١٩٢٩ ، ص ١٥١ - ١٥٢ يعطي قيمة إيجابية لترجمة حي .  
وقيمة سلبية لترجمة يوز « التي بشكلى اعنى تعتمد على الاصدار الفرنسي » .

٤ - الكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء ( حروب وأسفار ، نكت ونواير ،  
اخبار الصيد ) .

بذكرهما عند ياقوت<sup>(٥)</sup> . لكننا نفترض أنها تسميتان وصفتان « لكتاب الاعتبار » .

وكذلك يمكن العثور على المعلومات التاريخية لعصر أسامة في كتيبه:

١٣ - « تاريخ القلاع والحصون » ، ١٤ - « اخبار النساء » ،  
١٥ - و « اخبار البلدان في منة عمره » ، فيما اذا كان المؤلف الاخير يوجد ككتاب منفصل . ويمكن الافتراض بأن هذا المؤلف هو نفس « كتاب تاريخ القلاع والحصون » . ونجد الإشارة إلى أن كل هذه المؤلفات مفردة . اما فيما يتعلق بمادة « تاريخ القلاع والحصون » فلها غير موزعة وفق النظام الجنراي بل حسب التسلسل التاريخي ، والاخبار معملية فيه ( كما هو مشار في المصادر ) حتى عام ١١٧٠ . ويشار اليه عند حاجي خليفة ، والاعتقاد عليه - عند مصطفى حجازي<sup>(٦)</sup> كما توجد إشارة إلى « اخبار البلدان عند الذهبي<sup>(٧)</sup> . ويتحدث أسامة في « اخبار النساء » عن نساء عائلته وعصره . ونعتقد بأنه هنا لما يوسع المادة عن النساء ، التي وجدت في « الاعتبار » ...

ومن الواضح ، أن أسامة أراد إيقاظ المشاعر ليس عند رجال عصره فقط ، بل وعند نساء ذلك عصره ، ويسمو بها . فقد لعبت نساء أسرته : ( جدته ، وأخته ، وأمه ، ومربية ) ، دوراً كبيراً في تربيته

١ ياقوت ، معجم الادباء ، ج ١ ، ص ١٨٢ .

٢ - أسامة ، المنازل ، المقدمة ، ص ٥١ .

٣ - الذهبي ، سير ، ص ٦٠٢ .

مظهرت، أكثر من مرة ، الشجاعة ، والكبرياء والصمود ، ولقد اخبر  
أسامة بهذه الصفات عند « أمهات الرجال » .

ان هذا المؤلف « أخبار النساء » مذكور في المؤلفين رقم (٤) ،  
و ( ١٠ ) ، وهذا يعني أنه مكتوب قبل ٥٨٦ / ١١٧٢<sup>(١)</sup> .

ثالثاً : المؤلفات ذات الطابع التاريخي - الجيوسغرافي  
( التعريف بالاعلام ) .

ان مؤلفات هذه المجموعة لا تمتلك قيمة كبيرة ، إذ في اثنين منها  
قد قام أسامة ، بشكل موجز، بكتابة معلومات مشهورة في مؤلفات مؤلف  
آخر . وتكرر في البقية معلومات وحقائق كانت قد عرفت مسبقاً من قبل  
مؤلفين آخرين . كما أن أسامة يتوجه في هذه المؤلفات الى الناحي ،  
مختاراً الشخصيات التي أظهرت في عصرها الحكمة والعدالة واصفاً الانتصار  
في بدر ... الخ ... وفي اعتقاده أن المؤلف قد قام بكل هذا كي  
يوقظ أبناء عصره ، ويسمو بهم ، ويربهم على أمثال أبطال العرب  
القدماء .

( ١٦ ) . ( التاريخ البدري ) . ان هذا المؤلف مفقود ، لكن  
ذكره أسامة في كتابه رقم ( ١٧ ) ، كنتيجة منطقية لهذا كان قد كتب  
قبل عام ١١٧٢/٥٦٧ ( انظر فيما بعد ) . ويذكره الذهبي أيضاً في سير

١ - بكتب أسامة في « كتاب المنازل والديار » المخطوطة ، ورقة  
٩٤ ( T ) وفي إصدار حجازي ، ص ١٦٦ عن العلاقة بين يمين  
بن سبيب بن عمرو وبين صفراء .

أعلام النبلاء : عن يحيى بن أبي طي أنه ذكر في تاريخ الشيمسة :  
حدثني أبي قال :

اجتمعت به ( بأسامة وط ) دفتات وكان إمامياً حسن العقيدة  
الا انه كان يداري عن منصبه ويظهر التقية . وكان فيه خير وافر وكان  
يرفد الشيعة ، ويوصل قراءهم ، ويعطي الأشراف . وصنف كتاباً منها  
( التاريخ البدري ) جمع فيه أسماء من شهد بدرأ من الفريقين ،  
وكتاب أخبار البلدان في مدة عمره ، وذيل على خريدة القصر بالبحرزي  
وله ديوان كبير ومصنفات<sup>(٢)</sup> .

لقد أعطى ف . حتي تسمية هذا المؤلف معرفة فقال عنه « التاريخ  
البدري » .

يكتب أسامة في المقدمة لهذا الكتاب : « انني وقت في شوال  
سنة سبع وستين وخمسة على كتاب مناقب أمير المؤمنين أبي حفص عمر  
تأليف الإمام الزاهد ، أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي فرأيت - والله  
التوفيق - أن أجريها من الإسناد ، وقد كنت أوردت في كتابي  
الترجم « بالتاريخ البدري » الشتمل على ذكر فضائل أهل بدر من  
مناقبه وفضائله وفروجه وأحكامه ما فيه مقنع وكفاية ، ولكن الزيادة من

١ - الذهبي ، سير ، ص ٦٠٢ . ان مؤلف الباهرزي يسمى « دمية  
القصر » ، إذ قد التمس الامر على الذهبي مع « خريدة القصر »  
لهاد الدين الاصفهاني ( توفي في ٥٩٦ هـ ، بعد ١٢ عاماً من  
وفاة أسامة » .

الخير خير» (١).

ومخطوطة هذا الكتاب مخطوطة في القاهرة في دار الكتب برقم  
« ٢٣٣٤ تاريخ ».

ويكتب النسائي بأنه وجد مخطوطة أخرى لكتاب أسامة هذا ،  
فقام بنسخها ، وأرسلها إلى أحمد تيمور (٢).

( ١٨ ) . مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز .  
ومن الممكن ، أن هذا الكتاب يعود لذلك الزمن ، الذي يعود  
إليه الكتاب السابق رقم ( ١٧ ) .

ويوجد في تلك المخطوطة المخطوطة في دار الكتب (٣) . وهو  
اختصار لكتاب ابن الجوزي . ويكتب أسامة في مقدمة الكتاب ما يلي :

١ - م - حجازي ، مقدمة كتاب المنازل ، ص ٥٩ .

٢ - ط . النسائي ، أسامة ، ص ٣٦-٣٥ ؛ مجلة المجمع العلمي العربي  
بدمشق RAAD ، ص ٣٩٣ ، X . من المحتمل أن  
مصطفى حجازي يكتب عن هذه المخطوطة التي انتقلت مع كتب  
المكتبة التيمورية إلى دار الكتب منذ عام ١٩٣٣ ( انظر . ك .  
التيمورية ، ص ١٠٠ ، د ) . وتحفظ في استنبول في مسجد  
أيا صوفيا نسخة أخرى مؤلفة أسامة ( مختصر ابن الخطيب ،  
ومختصر ابن عبد العزيز ) ، انظر . ابن الجوزي ، ص ٣٩٤ . و

GAL, SB, I, P. 916

٣ - أ . بدوي ، الحياة الأدبية ، ص ١٧١ .

«جردته من الأسانيد ، وحذفت ما فيه من التكرار ، وكتبته بخطي ،  
وكنيت قد أوردت من مناقبه وورعه وحمي سيرة وزعمه في كتابي  
الترجم ( نصيحة الزناة ) ما جاء مفرقاً في أثناء أبواب الكتاب» (١) .

١٩ . فضائل الخلفاء الراشدين .

ان هذا المؤلف مفقود ، لكن ذكره أسامة في مؤلفه رقم (٦) .

رابعاً : المؤلفات ذات الطابع الوعظي الارشادي

لقد كتب أسامة في هذا الاتجاه كتابه « نصيحة الزناة » الذي نعليه  
رقم ( ٢٠ ) ، ومن المحتمل أن أسامة كان قد كتبه لواحد من الوزراء  
أو الأمراء في ذلك العصر كما هي عادة معظم معاصريه . ومن الممكن أن  
« نصيحة الزناة » يشابه بالخطى والمضمون مع لباب الآداب ( تقصيد باب  
السياسة ) ، لكنه يفوقه بعدد الصفحات .

ان هذا العمل الأدبي مفقود ويذكر من قبل أسامة في كتابه  
رقم ( ١٨ ) ، ولذا نعتقد أنه كتب قبل عام ٥٦٧ / ١١٧٢ .

وينسب مختلفة يمكن أن نلحق إلى هذه المجموعة الوعظية الارشادية  
التيوية بعض المواد البثوية في مؤلفات أسامة المختلفة ، وبصورة خاصة في  
مؤلفات المجموعة الثالثة وفي « الاعتبار » .

ان المؤلفات المذكورة فيما يلي أيضاً منسوبة إلى أسامة . لكننا لا

١ - م . حجازي ، المقدمة « كتاب المنازل » ، ص ٥٩ .

٢ - أسامة لباب الآداب ، ص ١٧٣ .

تتمكن من نسبتها إلى أية مجموعة من المجموعات المشار إليها فيما سبق ، ذلك لأنها مفقودة ، ونحن لا نعرف عنها إلا الاشارات إليها في بعض المصادر .

( ٢١ ) . د النور والاحلام ، يشار إليه في مؤلف أسامة رقم ( ١٠ ) ( ٢ ) .

( ٢٢ ) . د أنهار الانهار . مذكور عند حاجي خليفة (٢) والاعتاد عليه عند حتي (٣) .

( ٢٣ ) . د التجانس الترجمة والساعي المتجمة . يذكر عند حاجي خليفة (٤) ، وبالاستناد إليه عند دربورغ (٥) وحتى .

في نهاية بحثنا ودراستنا للأثر الأدبية لأسامة يمكن أن ننسب كتاب البديع إلى مراحل حياته الأولى ، لكن لا يمكننا أن ننسب أي مؤلف لأسامة إلى مرحلة قائمته الأولى بدمشق ، وكذلك عصر ، ذلك لأن حياته في هذين القطرين كانت مكرسة للحياة السياسية ، ومن الممكن أنه كتب في هذه الحقبة بعض المؤلفات الشخصية ، أو مسودات المؤلفات ، لكنها ، ربما ، قد فقدت مع مكتبته .

إن الخمس عشرة سنة الأخيرة ( ١١٧٠ - ١١٨٤ ) تظهر خيبة

جداً بالفلسة للاتجاه الأدبي لأسامة . إذ كان قد كتب في هذه المرحلة معظم مؤلفاته : « مختصر مناقب ابن الخطاب » ، « مختصر مناقب ابن عبد الرزاق » ، « المنازل » ، « والمصا » ، « والقلاع والمحفوظ » ، « والديوان » ، « والاعتبار » ، « ولياب الآداب » .

ومن المحتمل أنه يمكن أن تلحق كتاب « الشيب والشباب » بهذه الحقبة ، وكذلك « كتاب التأني والتحمل » ، ونفترض هذا ذلك لأنه قد ضمن « ديوانه » مجموعة اشعار ، حيث يكثر فيها فتوته وشبابه ، وكذلك يصف حنينه إلى وطنه ومواطنيه في مراحل حياته في القرية .

إن بعض مؤلفات أسامة يتجه إلى الماضي ، وبمضئ الآخر يمس أحداث عصره وحياته الخاصة ، والقسم الثالث يظهر وكأنه اختصار لأعمال مؤلفين آخرين سابقين . أما الشهرة الأدبية الكبيرة لأسامة فتكمن في مؤلفاته : « الاعتبار » حيث يمس بوضوح عصره وحياته الخاصة ، « والديوان » بأبعاده ، و « لياب الآداب » ، مادته الأدبية المختارة ، و « كتاب المنازل » الصادر الأول والأهم لدراسة تطور موضوع الوطن في الشعر العربي .

\* \* \*

١ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٨٦ .

٢ - ح . خ ، ج ، ١ ، ص ٢٦١ ، رقم ٥٤٤ .

٣ - أسامة الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ، ( د ) .

٤ - ح . خ ، ج ، ١١ ، ص ١٩١ .

رَفَعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

الجزء الثاني

## موضوع الوطن في الشعر العربي

لقد أشرنا سابقاً إلى أن الدراسة العلمية لكتاب أسامة « المنازل والديار » تعتبر أساساً للدراسة ظهور وتطور مفهوم الوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري ، ذلك لكونه مجموعة أشعار للشعراء القدماء ، ولما صير أسامة ، مع أشعاره الخاصة ، حيث تنسج في هذه الأشعار كلها ألحان فقدان الوطن والمواطنين [ الأهل ] .

إن المادة الشعرية المجموعة من قبل أسامة في هذا الكتاب موزعة في الفصول حسب الألفاظ التي اتخذها أسامة عناوين هذه الفصول في التسمية التالية : التسمية اللفظية لا المعنوية ، التسمية اللفظية التي تحدد الشكل الظاهري لمكان الإقامة والوطن والربيع والمفنى .. الخ ، وتجميع الأشعار في فصول إنما يخضع فقط للفظ ، أي ، بتعبير آخر : إن ورود لفظة « ربيع » ، مثلاً ، في أي نص شعري يحدد إيرادها من قبل أسامة تحت عنوان [ فصل في ذكر الربيع ] ، وورود كلمة « مفنى » يحدد جميع الشعر في « فصل في ذكر المفنى » ، بنقض النظر عن الدلالة المعنوية لهذه اللفظة ، وتطورها ، وبأي معنى استعملت في هذه المرحلة أو تلك ، وبكلمة أخرى ، تجمع الأشعار في فصول معينة حسب التسمية اللفظية ، دون الاهتمام بالمدلول التاريخي لهذه اللفظة ، وتطور هذا المدلول .

أما في بحثنا العلمي فكان لا بد لنا من إعادة تجميع المادة الشعرية في « كتاب المنازل والديار » حسب محتوى الأشعار ، ودلالاتها القويمة تاريخياً ( الشيء الذي لم يتبناه أسامة إطلاقاً ) ، مع تحليل أوجه الدلالات

المنوية للصورة الشعرية ، والافتظية واستمالاتها حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية ( الزمنية ) . وفي تحليلنا ودراستنا لهذه الاشعار إنما ندرسها وتحليلها حسب تناميها التاريخي الزمني ، حسب ظهورها . ونهياً لنا ذلك بترتيبها تاريخياً حسب حياة قائلها من الشعراء ، مما أعطانا الفرصة الثمينة لدراستنا التطورية هذه ، كما أننا بنسب محددة ، أخذنا بعين الاعتبار أيضاً مكان حياة هؤلاء الشعراء ، بقدر ما كان هذا ممكناً لنا .

لقد ظهر عالم الارتباطات الانسانية في الشعر العربي ، قبل كل شيء ، عبر التعبير عن أماكن سكن محددة [ خيمة ، بيت ] ، ثم بالتعبير عن مناطق عيش أوسع نسبياً [ معنى ، ربيع ] [ أطلال وآثار البيوت ، ومواقف القبيلة ، تلك المواقف المهدمة ، الدراسة ] ، وأحياناً فقط في صورة أعم وأشمل ( البلد ، والوطن ، والأرض ) .

كل هذه الاشاعات المكانية تظهر في علاقة وثيقة مع المجموعات البشرية والانسانية ( أسرة ، وعائلة [ آل ] ، وفخذ . و قبيلة ، وتجمع بشري ، ومحيط الاصدقاء ، والاقرباء ، أو الجيران [ . وستدرس مآثرنا اليه من العلاقات المكانية ، والارتباطات الانسانية بنفس هذا الترتيب الذي أشرنا اليه فيما سبق ، لتوضح صور تعبير الشعر العربي عنها ، مع دراسة مشاعر الألم والحزن المرتبطة بها جميعاً ، ممتددين في دراستنا على مجموعة كبيرة من المصادر الشعرية الأخرى ، إلى جانب « كتاب المنازل والديار » .

## الفصل الأول

### الوطن في الشعر العربي

لقد عبر عن « الوطن » في الشعر العربي بالفاظ ومصطلحات عدة ، تختلف حسب مساحة دلالاتها المكانية ، وسنجثها حسب الترتيب التالي مراعين التوسع المكاني لدلولاتها :

- ١ - أماكن السكن : [ المنزل والدار والبيت ] .
- ٢ - المعنى الأوسع لمكان السكن : [ المعالي والروبع ] .
- ٣ - بقايا أماكن السكن : [ الأطلال والدمن والآثار والرسوم . الخ ] .
- ٤ - معنى الوطن الواسع : [ المدينة والوطن والبلد والأرض ] .

## ١ - أماكن السكن .

لتعبير عن أماكن السكن في الشعر العربي كانت قد استعملت مصطلحات ( الفاظ ) زحج بمعناها الأصلية إلى المجتمع البدوي ، ومشتقة ، كقاعدة عامة ، من أفعال الحركة والانتقال . وهذه الألفاظ هي :

أ - المنزل : مفرد جمعه د منازل ، ومعناه موضع النزول ، ومثله المنزلة ، قال السجاني : ( منزلنا بموضع كذا ) : يعني موضع نزولنا . وهو اسم مكان مأخوذ من الفعل الثلاثي الصحيح السالم ( نزل ) ، على وزن فعل - يفعيل .

ولهذا سمي ( البيت ) بمنزلاً لأنه موضع نزول العائلة ، ومنه الفعل ذو الاشتقاق الثنائي (نزل القوم ) أي أنزلهم المنازل ، ( ونزل فلان غيره ) : أي قدر لها المنازل . ونزلهم ، ونزل عليهم ، ونزل بهم ، أي ( حل ) .

( والنزول والمنزل ) : الحول : ( والنزول ) : الضيف ، على وزن ( فاعل ) بمعنى ( فاعل ) . كما هو الحال في ( كريم ) : القائم بفعل الكرم . ( والمنزل ) : البيت الذي يستضيف فيه المضيف ضيوفه . وهذه تسمية مستعملة حتى الآن في القرى التي تحافظ على العادات البدوية . ومنه ( النزال ) في الحرب : أن يتنازل الفريقان ، أو أن ينزلا عن إطباق إلى خيلهما للمبارزة ، وقد تنازلا : أي تداعوا للنزال . ومنه (النزول) القوم النازلون بعضهم على بعض . يقال : ما وجدنا عندكم نزلاً . ومكان

( نزل ) أي ينزل فيه كثيراً على وزن ( فاعل ) بمعنى مفعول - منزل<sup>(١)</sup> .

ب - ( الدار ) ، مفرد جمعه ( ديار ) ، وتدل على قلة العدد خلافاً لادؤرواؤنوز التي تدل على كثرة العدد<sup>(٢)</sup> . ( والدار ) ، مكان النزول : منزل ، أو خيمة ، أو ( كل موضع حل بسبه القوم وإن لم يكن فيه أبنية<sup>(٣)</sup> . وسميت الدار ، ( داراً ) لدورها على سكنها ، كما سمي الحائط حائطاً لاحتاطه على ما يحويه . وهي لهذا من فعل ( دار - يدار ) لكثرة حركة الناس فيها<sup>(٤)</sup> . ومجازاً فإن ( الدار ) تعني ( القبيلة ) ، ومنه فسر قول الرسول : ( ما بقيت ( دار ) إلا بني فيها مسجد ) ، أي ما بقيت ( قبيلة ) .

و ( الدور ) هي المساكن المكونة والمجال . وتأتي أحياناً ( الدارة ) ، بمعنى ( الدار ) ، وقال بعضهم بأنها أخص من ( الدار ) ، كما أنها أيضاً أرض سهلة تبت فيها بعض النباتات ، ومنها ( دارات العرب )

١ - لسان العرب ، ج ٨ ، XIII ، ص ١٧٩ : تاج السروس .  
VIII ، ص ١٣٣ .

٢ - لسان العرب ، ج ٨ ، V ، ص ٣٨١ .

٣ - المنازل ، ص ٥٥ ، يقبس أسامة هذه الجملة من الخليل .

٤ - لسان العرب ، ج ٨ ، V ، ص ٣٨١ وفيها بعد ، وحسب كلام سيويه فإن « الدار » تعني أحياناً « البلد » ، وفي حالات أخرى بمعنى « الصنم » وبه سمي عبد الدار بن قصي بن كلاب ، تاج السروس ، ج ٨ ، III ، ص ٢١٣ .

وزيد عندها عن ١١٠ ، وربما سميت هذه المواضع ( دارات ) لأنها قابلة للنزول والسكن .

ج - ( البيت ) اسم مفرد جمعه ( بيوت ) وتعني خيمة أو دار أو قصر . وقيل ( الخباء ) : بيت صغير يعمل من وبر أو صوف أو شعر ، ويكون على عمودين أو ثلاثة فإذا كان أكبر من الخباء فهو بيت يكون على ستة أعمدة . ( والبيت ) تعني ( الشرف ) ، أو ( الشريف ) أو ( القبر ) . مثلاً : ( بيت القبيلة ) شرفها ، أي تلك الأسرة التي تحسب رمز شرف القبيلة . يقال : ( بيت ) - ( شرف ) قبيلة تسميم في بني حنظلة ، يعني شرفها في آل حنظلة . و ( بيوتات ) جمع الجمع من ( بيت )<sup>(١)</sup> . ( والبيت ) من بيوتات العرب الذي يضم شرف القبيلة . ومن الجاز ( بيت ) تعني ( التزويج )<sup>(٢)</sup> ويقال ( بات فلان أي تزوج )

( ١ ) لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٣١٧ ؛ تاج العروس ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

( ٢ ) ( البيت ) : المطر من الشعر سمي ( بيتاً ) ذلك لأنه يضم الكلمات كما يضم البيت سكانه ، ولأنه كلام جمع منظوماً فصار ( كبيت ) جمع من شقق ورواق وعمد . ولذا سموا مقطعاته أسبأباً وأوتاداً على التشبيه لها بسبأب البيت وأتاده .

ويجب أن نشير إلى أن ( فصل البيت ) في ( كتاب المنازل والديار ) من صفحة ( ٣٥٥ - ٤٠٩ ) ، منها ٢٦ صفحة لمي من ( ٣٥٥ - ٣٨١ ) استطراد لا علاقة له بهدف الفصل إذ يتحدث عن قصة بناء الكعبة والروايات في ذلك والآيات القرآنية التي تحتوي لفظة ( البيت ) على الاختلاف في تفسيرها .. الخ ..

وبنى فلان على امرأته ( بيتاً ) إذا أعرس بها وأدخلها بيتاً مضروباً ونقل إليه ما يحتاجونه من آلة وفرش وغيره .

إن معظم الآيات والمقطوعات الواردة في فصول ( المنازل والديار والبيوت ) - كما ألفتنا سابقاً - مطالع قصائد منتشرة على عصور الأدب العربي حتى عصر أسامة . وهي مطالع ترجع في أصلها واستمرارها إلى الجاهلية . ودراسة متفحصية لهذه المطالع نجعلنا نؤكد - خلافاً للآراء المتباعدة التي سنعرض لها فيما بعد - أن الوقوف على الاطلاع عامة ، وذكر المنازل والديار خاصة إنما أملت حياة البدوي ، فهو غمرة البيئة المتقلبة التي يحياها العرب البادون ، أو غمرة التقلب بين الاعطاف المصبوبة في الرعي ( الارتجاع ) ، والعودة بعد ذلك إلى منازل القبيلة الأصلية في القرى أو أشباه القرى ، والتي لم تكن قصوراً منيفة ، أو منازل واسعة غناء ، بل كان معظمها خياماً أو تودعها ودعائمها وأثاثها . من هذه الظاهرة الاجتماعية في التجاور والاتلاف أيام الربيع والصيف ، والابتعاد والافتراق أيام الفصول الأخرى ، كانت هذه الظاهرة في الوقوف على الاطلاع ، والكاء عليها والخنين إليها واستشارة الذكريات والتهويم في مجالات التعبير الشعوري ، وهي ظاهرة اتخذت حيزاً من الشعر الجاهلي وبصورة خاصة من شعر النزل .

إذا وقف الشاعر حيث كان يقف سابقاً ، وشهد بما كان منازله حبيته ومنازله وآثارها ورسومها وتعرف إليها من وراء هذه الآثار الفنية ، وبكى عندها حشماً بقوا إلا على الكاء ، وتمزى حيث كانت وسيلته الأخيرة هي الغزاء . إن نداعي هذه الأفكار بين واضح لأن المعاني يمود بعضها إلى بعض ، فالاستغراق

في تأمل الاطلال والنازل بقود الى ذكر ماضيها ومقارنته بالحاضر الذي  
آلت اليه .

إلى مدلولات ومعاني المصطلحات ( اللفاظ ) التي تعني لما كان  
السكن وأطلالها وآثارها ، واستخدام هذه المصطلحات ، أن هذا كله  
بشكل رئيسي واحد عند الشعراء الجاهليين . فالشاعر يذكر ويكي هذه  
النازل ، منازل ومنازل أحبته ، التي كان قد غادرها في بعض فصول السنة  
طلباً للكلأ والرعى ، محدثاً عن صعوبة تعرفه عليها ، يصفها ويقف عند  
بعض معالمها ، ثم يتسلى ، ويتزىء أو ييأس ، ويكي . هذا هو  
الشعر الوجداني ، شعر التذلل والام واليأس والحزن . ويض النظر عن أنه  
تفصلنا عن هؤلاء الشعراء - شعراء الجاهلية - قرون عدة ( حوالي ١٥  
قرناً ) ، وما راقبها من تطورات ثقافية وحضارية ، فاننا عندما نتعرف  
على بعض الفاضل الجاهلية الصبية الفهم علينا نميش معهم في جو مشاعرهم  
التي توفظ فينا المشاعر وتنبه الاحساسات ، ونقلنا الى ذلك الجو النفسي  
الانساني الذي في آن واحد ، الذي عاش فيه اولئك الشعراء وإن كل  
هذا التأثير إنما يصبح ممكناً بفضل الشحنات العاطفية ، والمشاعر المشتركة  
بين الناس لفهمها بها هذه الاشارة . إن هذه الاشارة إنما تشير عن  
مشاعر انسانية ، وتمكس لا عواطف مجموعة معينة من البشر بل جميع  
المشاعر المشتركة بين جميع الناس : حب وحنين وألم للفراق ، وتأس ،  
وحسرة الخ .. ورغم أن الشاعر في شعره إنما يعبر عن حنينه هو ،  
وحزنه هو ، ومعاناته هو ، تلك التي تربط بأرض معينة ، أو بأماكن  
سكن معروفة ، رغم هذا فإن هذه المشاعر تلقى عندنا صدى وتأثيراً ،

عواطفاً وتأثيراً ؛ إنما نحس مع الشاعر تأثره ، وتألم معه لحزنه ومعاناته ،  
ننتقل هائلين معه ، وننلس حنينه الى المنازل المهجورة التي درست وعفت  
ولم تبق منها إلا الأثاث والأثار ، ( هذا هو وطن الشاعر الجاهلي ) .

في المرحلة الاولى بعد ظهور الاسلام ، في عهد الرسول والخلفاء  
ضفت الشعر لأسباب عدة : موقف الشعراء المادي للاسلام ، وموقف  
الاسلام من الشعراء انفسهم ، والفتوحات الاسلامية التي شملت على  
المسلمين جميع حياتهم الداخلية النفسية والخارجية ، فكأن شعر صدر  
الاسلام هو ( النهاية القصيدة القابلة والمنحرفة للشعر الجاهلي )<sup>(١)</sup>  
فقلصت بعض أقسام القصيدة ، وبصورة خاصة هذه المطالع المشتملة على  
تذكر المنازل ومواقف القبيلة والبقاء على بقاياها . كل هذا أثر على نهج  
القصيدة القديس الثابت المشهور في الشعر الجاهلي وبخاصة بصورة مثلى في  
( المقلقات ) مما أدى الى خلقة بناء القصيدة المعروف في الجاهلية .

إن دراسة تطورية للشعر حسانت بن ثابت الذي قال الشعر في  
الجاهلية وفي صدر الاسلام تؤكد هذه الحقيقة . ومن الملاحظ أن أسامة  
في ( فصل المنازل ) مثلاً لم يورد شعراً لأي شاعر عاش في صدر  
الاسلام أو مخضرم .

ثم إن الشعر بشكل عام يضوي ويضم في عهد الخلفاء الراشدين .  
وإن الاسلام على الشعر بجنواً وصورته ( الأفكار والصياغة ) في هذه  
الحقبة لم يكن قوياً ، اللهم الا التأثير في مادة وصياغة شعراء الرسول

١ - فيصل . ش . تطور النزل ص ٢٠٦ .

بالقات ، ذلك لأمر الرسول عليهم لكونهم المتكلمين باسم الدعوة الجديدة<sup>(١)</sup> .

وفي عصر بني أمية آلت حركة الفتوح إلى شيء من الركود ، وآل أمر الجيوش المتدفقة إلى شيء من الهدوء ، وبدأت الجماعات المهاجرة في أعقاب الجيش تأخذ مكانها في هذه الأرض ، وتأخذ في حياة الاستقرار في الأماكن المفتوحة الجديدة . ولقد شغل الانتقال من تدفق الهجرة والتنقل والاختلاط إلى الهدوء والاستيطان والتمركز والحياة المستقرة شغل هذا الانتقال دوراً هاماً في ظهور علاقة جديدة هؤلاء المهاجرين ( المستوطنين ) مع الأرض وأدى إلى اخلاصهم لها بلوتعلقهم بها ودفاعهم عنها ، وإلى خصومتهم أحياناً عليها وحولها . وتنتجرت طبيعة الحياة خارج حدود الجزيرة العربية . فالتقت المعسكرات إلى أن تكون مدناً ، وأقبل الفاتحون البداءة إلى سكان مدن يملكوت الأرض ، ومجددونها فيما بينهم ، فهدوا سكان مدن وزراعا ، بعمروتن المنازل ويمشون عيشة استقرار نسبية في هذه الاوطان الجديدة . التطور العاصف في حياة الجماعة العربية يرافقه تطور أقرب إلى التنظيم ، وتقتضيه حياة الخلافة الجديدة . فبعضهم شغل بالاستقرار والتمركز وترك أمر الحرب على عاتق جماعة خاصة محددة ، فوجد السكان الحارون ، وأخذ التجمع الاسلامي طريقه إلى حياة السلم والاستقرار .

في هذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والحياتية الجديدة بدأ

(1) Binggren, H., Studies in Arabian Fatalism, 1955, p.127.

العرب يتجهون لماضيهم لحياتهم ، وخاصة إلى شعرهم في الماضي ، بدأوا يذكرونه ويتذكرونه ويروونه لحياتهم الجديدة حتى وبدؤوا يقلدون ، في استعمال الطالع النزلية والكاء على الاخطال .

واستجابة لتفاوت الفتي للقائد أخذ الشعراء العرب في هذه الفترة يسه قساندم يتذكر المنازل والميكاء عليها وعلى أطلالها . ولقد بلغ فيهم الأمر في تقليد هذا الماضي إلى درجة أنهم استعملوا بعض تلك الطالع حرفياً . فجير والأخطال مشلا قد اختاروا مطلقاً لقصيدتها ، ذلك الطالع الذي استخدمه الشاعر الجاهلي ابن الأبرس<sup>(١)</sup> . وهناك شعراء آخرون كانوا قد زادوا في عدد أبيات

١ - نقائض جير والأخطال ، ص ١٩٨ ، ديوان جير ، ص ٥٩٦ .

قال جير :

لمن الديار بركة الروحان      اذ لا تقيس زماننا بزمان

وقال الأخطال :

لمن الديار بركة الروحان      درست وغيرها ظروف زمان

وقال عبيد بن الأبرس :

لمن الديار بحسائل فوعال      درست وغيرها سنون خوال

التقليد إلى عدة أبيات ، كما فصل الكميت ، مقلداً امرؤ القيس (١) .  
 وأنه من الخطأ اعتبار هذا التقليد فقط ضرباً من عبادة القديم ، ذلك  
 لأن الشاعر في اقتباسه مطلع القصيدة يقتبس أيضاً جزءاً يسيراً من شهرة  
 الشاعر الجاهلي . وهو بهذا في ذات الوقت يستجلب انتباه القارئ .  
 والسامع . هذا يشبه تماماً اقتباسنا الزائد وتركيزنا في وقتنا الحالي حتى  
 وبرغبة زائده عندما نستمع إلى خطيب أو فنّان يقلّد ويتقمص بطلا  
 معروفاً أو خطيباً بارعاً أو مننياً مشهوراً للناس .

من المشهور أنه في عصر الخلافة العباسية حدثت تغيرات أساسية  
 في الحياة الثقافية . ففي حالات الحجرة ينداد لبث الحجرة في رؤوس

١ - الوساطة ، ص ١٩١ . قال امرؤ القيس :

قف بالديار وقوف حابس وتأنّ إنك غير آيس  
 ماذا عليك من الوقوف بهامد الطللين دارس  
 لعبت بهن العاصفا ت الرائجات من الروامس  
 وقال الكميت :

قف بالديار وقوف زائر وتأنّ إنك غير صاغر  
 ماذا عليك من الوقوف بهامد الطللين دائر  
 درجت عليها النادرا ت الرائجات من الأعاصر

طائفة من التجريبيين الشعراء الذين ، في جو من الحرية ، أخذوا يناقشون  
 الحياة الأدبية ، وبصورة خاصة موضوع المطلاع ، والتفكّر رأيهم ، صورة  
 شعرية في قول أحد أفراد هذه المجموعة المتحررة :

لأحسن من يد تحاربها القفاً ومن جبلي طي ووصفك اسلما  
 تلاحظ عيني عاشقين كلامها له مثقلة في وجه صاحبه ترعى

لقد وقف الشعراء المحدثون ضد الأوصاف التقليدية ، والمطالع  
 الزلية ، ملتبس أنها غير واجبة ، بل وانها خطأ . لكن رغم هذا  
 فلمهم هم أحياناً قد استخدموا مثل هذه المطالع والأوصاف ( ربما ليبرعنوا )  
 على إمكاناتهم الشعرية في هذا المجال ) ، لكنهم لم يكونوا في هذا مقلدين  
 تقليداً أعمى ، فقد صيّنوا هذه المطالع بخيوط جديدة وبظلال الحضارة  
 الحديثة . ولقد تلقف أبو نواس هذه اللغات الجديدة ، وترأس الاتجاه  
 المحدث والمذهب الفني الذي أخذ يتناول من أجله ، حتى نسب إليه .  
 وتلخص هذا المذهب في استيعاب التقدمات الجاهلية بكل ما تشتمل عليه  
 من وقوف على ديار الاحبة أو تعرض للصعراء أو تشييب بالراء . إن  
 أسباب ظهور هذا الاتجاه الشعري الفني الجديد يجب البحث عنها في ظروف  
 الحياة المتغيرة بفضل الحضارة الجديدة عند العرب . ففي المدينة يعيش  
 الشاعر على يد بعض الخطوات من ممدوحه ، ولذا كان من المضحك أن  
 يعود الشاعر إلى الصعراء ، وإلى منازلها وخيمها لوصفها كمقدمة لممدوح  
 ممدوح يعيش حياة الاستقرار في قصور منيعة ، تحتجع فيها كل المظاهر التي

١ - الأغاني ، ص XII ، ٩٨ ( التقدم ) .

طربت بفضل الحضارة وتمازج الثقافات .

ان الاسباب التي جعلت أبا نواس يقف ضد التهج التقليدي في مطلع القصيدة وما ينطوي عليه ، ويستمر رسالة الدعوة لتأكيد هذا الاتجاه الفني الجديد ، ان هذه الاسباب يزوها الكفراوي الى ظروف حياة أبي نواس الشخصية ، وإلى عداوته لعرب بشكل عام ، وإلى عرب الشمال بصورة خاصة ( اذ رأى أبو نواس في الثغني فجيئداً وذكرنا لعرب الشمال وبأبيهم وآثارهم وتقاليدهم فأعلننا ثورة على الأمرين مما (١) . لكن هذا السبب برأيتنا ليس السبب الوحيد ، اذ لم يكن من الواقعية ومن الطبيعي التحدث عن الصحاري ولثيم ، كأنها بيوت الشاعر ، من قبل انسان لم يش فيها ، انما يعيش في قصور الامراء والخلفاء . ان أبا نواس يبدأ احدى قصائده بـ (بكاء مازح على نوار ( أسم امرأة ) ودلارها مشجرا الى أنها قد ايقظت فينا ( هذه الدلار ) مشاعر الشجو والحزن ، في الوقت الذي هن خاليات منه . :

ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجواهن منه عوار (٢)

أبو نواس لا يعرف البادية ، ولا صلة بينه وبينها فلماذا اذن يسكي لها أو عليها ؟ !

١ - الكفراوي ، ص ٧٣ - ٧٤ .

٢ - ديوان أبي نواس ، ص ٧٢ .

مالي بدار خلت من أهلها شغل ولاشجاني لها شخص ولاطلل  
ولارسوم ولا أبكي لمنزلة للأهل عنها وللجيران منتقل (١)

ولم يركب المدوح ناقة ولا جملا فلا حاجة له لوصفها ، بل يلزم الواقع فيحدث عما امتطاه حقيقة إلى مدوحه ، إن هذا ما فعله حين مدح الفضل البرمكي ، فهو لا يتعلق بالناسك التقليدي في الوصف ، لكنه يشير الى عنصر مثير جديد - الى الاحذية الرقيقة الناعمة :

إليك أبا العباس من دون من مشى عليها امتطينا الحضري المسننا

وبعض النظر عن كل المواقف الادبية المارضة لابي نواس ضد المطالع النزلية ، فانه نفسه يستعمل هذه المطالع في بعض قصائده ، كما تتطلب ذلك المناسبات والظروف . فاذا ما مدح رجلا يخافه ويهابه ويمجتمه كهلون الرشيد مثلاً ، سار على خطا الشراء القدماء ، مستملا هذه المطالع النزلية التي وقفت عندها ، ذلك لمرقبته بأن هارن الرشيد لا يروقه الانحراف عن المبادئ العربية ، وللهجوم عليها ، وربما قد يعاقب على هذا الهجوم والانحراف .

ويعلم أبو نواس بصراحة أنه بذكر الاطال والمزول القفر لحوفه من الخليفة :

أعير شعرك الأطلال والمزول القفرا فقد طالما أزرى بها نعتك الخرا  
فسمما أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتي مركبا وعرا

١ - ديوان أبي نواس ، ص ٣٢٢ .

لقد سلط أبو نواس الأنوار على الطالع ، وجعلها موضوع دراسة ومناقشة ، وشكك في قدامتها ، فافصّل هذا الطريق لكل ما أصلها من تطور وتغير ، مؤثراً بالشعراء في هذا من قريب أو بعيد . ومن المحتمل أن ظهور مذهب أبي نواس وقوطده إنما ساعد عليه الجو الأدبي العام في عصره . هذا ما يؤكدّه الخشبر الذي يورده ابن خلكان<sup>(١)</sup> عن أبي التماهية في مدحه لعمرو بن العلاء حيث قال :

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سياسياً ورملاً  
فاذا وردن بنا وردن عفة وإذا رجعن بنا رجعن تقالا

فمنذما أعطاهم عمرو [٧٠٠٠] درهم على هذه القصيدة ، حسد الشعراء الآخرون أبا التماهية ، وبخاصة مروان بن حفص فجمعهم ابن العلاء وقال : يا مشر الشعراء ! عجبا لكم ، ما أشد حسد بعضكم بعضاً ، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشبب بها بصدقته بجمسين بيتاً فما يلبثنا حتى نذهب للذات مدحه وروثن شعره أما أبو التماهية فقد شبب بأبيات قليلة ثم قال : « إن الطايا ... » [البيتين السابقين] .

إن المراحل اللاحقة لتلك أيضاً اختلافها وتميزها . فالشعراء في معظم الحالات - لم يكونوا دياراً موهومة ، لا أساس لها ، ولا ارتباط بينها وبين الشاعر ، بل وصفوا وبكوا دياراً قريبة من نفوسهم ومشاعرهم ،

١ - ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

تخلأ عليهم دولتهم لما حل بها وأصابها ، وأصاب أهلها من المصائب وهول الزمان . إنها أشعار مملوءة بالحزن والالم والحسرة والشوق والحنين ، والشاعر الحقيقية الصادقة . وهذا ما زاه من صدق عاطفة ، وتعبير واقعي في شعر آل منقلد ، وبخاصة في شعر أسامة ، ذلك لأن الدبرار شيئاً في أنفسهم ، لوغتهم ، ونصت حياتهم .

#### الخليفة :

في مطالع القصائد ، وبشكل مفصل ، توصف أماكن سكوت العرب أي : البيت البدوي - الخيمة الطبيعية البسيطة القاسية ، بصعراتها الواسعة الترابية ، المحرومة من الثبات والجبال والنجار ، موجات رمليها التي تخضن أسرار أنباتها ، الذين يعيشون فيها ؛ بسهاتها الصافية العميقة المفتوحة ؛ الشمس نهاراً ، والقمر ليلاً ؛ هذه الطبيعة ساهمت بشكل فعال في تشكيل أخلاق البدوي وطباعه وفي طبيعة حياته . في هذه الطبيعة ما كان بيت البدوي أكثر من خيمة تضرب في عرض الصحراء ، وتتألف هذه الخيمة - كما وصفت في أشعار الجاهليين<sup>(٢)</sup> - من عدد من الأعمدة غير

١ - انظر : المنازل ، أشعار الرقش الأكبر ، ص ٣٣٧ ؛ الدياني ، ص ٣١٣ ، ٣١٥ ، وديوان الدياني ، ص ١٠٩ ، ٣٣ [القاهرة] ؛ الربيع ابن أبي الحقيق ، ص ٢٩٣ : عنزة ، ص ٣٥١ ، وديوان عنزة ، ص ١٤٢ ؛ ابن الدمينه ، ص ٣١٨ ؛ أبو داود الألباني ، ص ٢٨٢ ؛ الجدي ، ص ٢٩٣ ، وديوان الجدي ، ص ١٠٦-١٠٧ ؛ زهير ، ص ٩١ ، وشرح ديوان زهير ، ص ٢١٩ .

العالية ، المنشورة عليها قطعة من قماش ، أو مبطنة عليها قطعة من القش والاعصان اليابسة ، المأخوذة من التام [ نبت صيفي تتخذ منه الحصر ، وكانوا يلقونه على أعواد الخيمة ليستظلوا به ] . وبالقرب من هذا المنزل - الخيمة تقع الساقية التي تحيط بالخيمة من جميع جهاتها ، وللقرب من الخيمة أيضاً موضع أثافي القدر لطبخ وتبني الطعام ، وتوجد الأواني التي تربط إليها الخيل والحيوانات . والبدوي يرتحل من مكان إلى آخر يأخذ معه « بيته » - خيمة ، تراكماً مكانها فقط « الآل » : [ المود ذا الشقين الموضوع عليه عود آخر والمنثور عليها التام - والأوتاد [ الأواني ] ، التي كان يربط إليها حيواناته ، ويشد إليها جبال الخيمة ، والعمود مع قطعة القش المنشورة عليه . وإلى جانب كل هذا يترك الأثافي بجوارها الثلاثة ، السوداء الضاربة إلى البنية ، المتوتية ، التي تشبه حمامات جارية : والزباد الخامد الغبر ، الذي تلبد ، واسود من أثر المطر والزمان ، وأحياناً يترك وراءه فقط آثار هذا كله<sup>(١)</sup> .

القصور :

« الدار » و « المنزل » - هذه ( خيمة ) من أجود البدوي ، و ( قصر ) لحاكم في الشعر الجاهلي ، وعندما يدور الحديث عن الأمراء ، سكان المدن ، لن يقصد الشعراء بتسميات « منزل » ، « دار » ، « بيت » ( الخيم ) المصروبة في الصحراء ، لكن ( قصوراً ) تحتوي على جميع مرئيات ومرئيات الحياة . لقد وصلت إلينا أشتار تذكر بقصور

١ - انظر . المنازل ، ما أشرنا إليه سابقاً .

٣٠٠

أمراء بني محرق ، حكم الحيرة ، - قصور الخوارج والسدر ، وبارق والقصر ، وكذلك أشتار عن قصور الفساسة المنتشرة في دمشق ، وبصرى ، والجلولان . ورغم أن هذه القصور قد عفت ونسيت في أشتار الشعراء ، ذلك لأنه [ جرت الرياح على محل ديارهم ] ، كما تجري على منازل البدو في الصحراء ، لكن الشاعر هنا لا يتوقف لتفحص البؤي ، والأوتاد ، وليكي الرسوم والأخلاق ، بل نسمع ألقاظاً متناثرة جديدة ، إنها [ قصور ، ولعمري ] : [ فلبت عيشتهم الرغبة الفنية وانتهت<sup>(٢)</sup> ] .

هنا نمش على صورة جديدة للمنازل ، وعلى طريقة جديدة في وصفها ، والبسكاء عليها تتناسب مع الجو الاجتماعي والثقافي والحضاري ، وتعبّر عن حياة هذه الطبقة المترفة ، وهذا ما أشار إليه النابغة في مدحه لآل جفنة الفساسة :

رفاق النعال طيب حجرانهم يحيتون بالبحان يوم السباب<sup>(٣)</sup>  
ففي رقة النعل كتاباً عن الرفاهية والتعظيم

١ - المنازل ، أشتار : أسود بن يعمر [ أشع بنهل ] ، ص ٢١ ؛  
حسان بن ثابت ، ص ٢٨٨ ؛ أبو أحمد ، ص ٣٢٤ ؛ الأثافي ؛  
XIII ، ص ١٦ - ١٧ ؛ ديوان حسان ، ص ٤١٥  
( البرقوقي ) .

٢ - انظر : ديوان النابغة ، القصيدة البائية . ( يوم السباب : عيد كان لهم ) .

٣٠١

ومع غو حياة الاستقرار قام الخلفاء والأمراء ببناء الحصون ،  
والدور النخسية ، والقصور ، ولذا فإن ألفاظ « منازل » ، « ديار » مع  
الزمن أخذت تعني أيضاً ، أكثر وأكثر ، و « أماكن السكن » التي  
ينفق على بنائها كميات ضخمة جداً من المال (١) . أماكن السكن هذه  
( القصور ) ظهرت في الشعر العربي كأداة خضبة لوصف جمالها وروعها .  
هكذا يتكلم الشعراء عن هذه « الدور » : « دار أطرابه ( الشاعر )  
وأشجانه » .

#### دار نفيس بكل خير وفيها كل شهوات المريض (٢)

لقد غدت هذه « المنازل » مادة شيقة لا وصف لما فيها من زينة  
وزخرفة ، وصور مذهبة من ذهب وفضة . فالعربي السرفاء يصف  
( قصر البرج ) للتوكل بأنه ( منزل كالربيع ) ( يتمتع العين في طرائف  
حسن ) (٣) . لروعته تطرق العين عن النظر إليه ، وهو ( مجلس  
يرتاج إليه الخليلع والنسور ) ،

١ - نهاية الأرب ، ١ ، ص ٤٠٦ ؛ هناك قصة مفادها أن الخليفة  
التوكل قد امتلك خمسة عشر داراً ، أنفق على بنائها (١٥٠٠٠٠) ،  
و ( ٢٥٠٠٠٠٥٠٠ ) درم .

٢ - المنازل ، ص ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٥٠ ، ٣٤٨ ؛ أشعار ابن موسى ،  
ابن المعتز ، وابن القاسمي .

٣ - النوري ، ١ ، ص ٤٠٧ ، ٣٠٦ .

ولذا غارت الكواكب صبحاً فهو كالكوكب الذي لا يبور

في ألبم المتصم - كما يظهر من شعر زتام الزامر (١) - وعندما  
يلور الحديث حول منازل الخلفاء ، ( القصور ) ، التي تعج بالنسيم  
والعيش الرفيع ، وتزخر بمختلف أنواع الزخارف ، تبدو أطلال هذه  
« المنازل » ثابتة ، دائمة ، غير بالية :

يا منزلاً لم تبل أطلاله حاشا لأطلالكم أن تبلى

ولم تعد الأطلال مفعلة للبقاء : ( لم أبك أطلالات ) ، لكن العيش  
في تلك المنازل ، حياة النعيم فيه ( أولى ما يكاه الفن ) . غدا المكان  
الذي يؤمن الراحة والعيش هو المكان الأسوف عليه ، المستنير  
للموع ، وكان التعلق « بالبنزل » قد غدا تعلقاً بالعيش في ذلك المنزل .

ويتذكر الشريف الرضي (٢) منازل النعمان بالحيرة ، فيصفها بأنها  
( تقابلت شم الهادي عريضة الأعطان ) ، تدل على فضل بلاتها ، إذ ( بين  
بالبينان فضل الباقي ) .

لقد وصف شعراء هذه المرحلة « المنازل الخالية » أيضاً التي اعتبرا  
ودرسها حوادث القدر والزمان ، ونكبات العصر ، فجعلتها خالية بعد  
أنس . وتعتبر قصائد الجعفري - في هذا المجال - أكثر القصائد حيوية ،

١ - المنازل ، ص ١٢ .

٢ - النوري ، ١ ، ص ٤١٢ .

وتأثيراً ، وروعة حسن تصوير د إذ يقول في قصر ( الكرمان ) الخالي ،  
الذي بناء أو شروان :

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس  
وإذ انشأت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرنس  
والتاليا موائل وأو شروا نيزجي الصفوف تحت الدرس (١)

يصف البحري بروعة تلك التماثيل التي كانت على جدران القصر ،  
رمزاً لاتصار كبرى على الزوم ، مستملاً هذه الثقافة ( السين  
المسورة ) ، وكأنها توحى لقارئه بالحزن والأسى . ولا تقل قصيدته  
في رثاء المتوكل (٢) وقصر الجعفري روعة في البراعة والتصوير عن سابقها .  
أما ابن الداني فيخصص قصيدته لا توصف قصر منفصل ، مستقل ، بل  
لرثاء مدينة بكاملها ( اشيلية ) عندما أخذها « تاشغين » المثلث من « ابن  
عباد » ، وقضى على ملكه . إن هذه القصيدة من أجود ما قيل في رثاء  
اشيلية ويونها ، فالسوء تبكي بدمع رائج غاد على البهليل من أبناء  
عباد . كانت مدينة حصينة ، فيها الأسود الأشاوس والأبطال ،  
« وكمة » يقصدها المحتاجون ، فندت لا عاكف فيها ولا بلدي . فسا  
على الضيف إلا أن بشد الرجل ، وجميع فضيلة الزاد ، ويرحل ،

١ - النوري ، ١ ، ص ٤١٣ .

٢ - النوري ، ١ ، ص ٤١٣ - ٤١٣ .

فقد « أقر بيت المكرمات » ، وخلع بنو عباد ، وزال عزم ، ولا بأس  
في هذا فقد خلع بنو العباس من قبلهم ، وخلت ، قبل ، حمى أرض  
بنداد :

تبكي السماء بدمع رائج غادي على البهليل من أبناء عباد  
عبرية دخلتها المحدثات على أسود منهم فيها وآساد  
وكمة كانت الآمال تنمرها فالיום لا عاكف فيها ولا بادي  
ياضيف أقربيت المكرمات فخذ في ضم رجلك واجمع فضلة الزاد  
ويامؤمل وادبهم ليسكنه خف الفطين وجف الزرع بالرادي  
ضلت سبل الندى بابين السبيل فسر بغير قصد فيا يديك من هادي  
إن ينالوا فبنو العباس قدخلوا وقدخلت قبل حمص أرض بنداد  
سارت سفائهم والنوح يتبعها كأنها إبل يحودبها الحادي (١)

لا بد من الإشارة إلى أننا في أشعار المعري ، وأشعار شعراء  
آخرين غير معروفين نجد لمسات طبقية اجتماعية ، تصف فقر البيوت ،  
وقهر سكانها . فالمعري يصف بيته الذي كان حبيسه ، ذلك البيت الذي

١ - المنازل ، ص ٣٨٤ : [المريسة : مأوى الأسد ، حمص : مدينة  
بالاندلس ] .

يوكف شتاء ولا يطاق من الحر صيفاً ، وهو فيه شيخ فان احمي  
سيفه فيحمل هذا قناعته :

لزمْتُ بيتاً بناه الجدُّ من كآفة بيت شعرٍ ليس يترنُّ  
إذا شتوتُ ممن نوَّكاه عتي وبالحرور إذا ما صيفتُ يفتنُّ  
عدمُ فحسبي وعينٌ غيرُ مبصرةٍ وشقوةٌ وحالِفُ الشقوةِ اليفنُّ  
لولا القناعةُ جاءتني بملكَةٍ لهتكت دوني الأستار والجنُّ (١)

البيت الواهي الذي يوكف مطراً ، قد انجى ، وغدا كقارعة  
الطارق . إنه كالنجم ، حتى إنه لا غزر منه دمةٌ ووكوفاً حين يفرق ،  
ذلك لوهنه وضعفه . إن ستائرهُ ستائرُ العنكبوت ، فإذا عطس المطر  
أصبح في داخله مظلم ضيق حتى يشبه السجين . والعنكبوت ورغم ضعفها -  
قد بنت لنفسها بيتاً ، أما الشاعر فليس عنده وطن مثلاً بالخفصا مسكن ،  
وليس لشاعر مثلاً ألف ولا مسكن . إن هؤلاء الشعراء - كما يصورون  
أنفسهم - فقراء ، ليس لهم نوك ، ولا ضأن وماعز وبر وتمر ، حتى  
ولا نبات يرعونه كالابل [مبالغة] ، ليس لهم إلا البيت الخالي التفسير  
المدم ، فملى الزوجة - زوجة الشاعر - الاستنار بهذا البيت - إن  
رضيت - وأستر منه القبر .

١ - المنازل ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ . ( اليفن : الشيخ الفاني ) .

وبيت تسأوى والغمامُ وأنه لأغزرُ منه دمةٌ حين تذرفُ  
إذا السحبُ عنه أفلت فلو كفه سحابٌ هتونٌ مأوّه ليس ينزفُ  
فتويبي من توكف أسود سقفه وترتبة الحراء بردٌ مفوفُ  
فدعه وتم نحت السحاب فانه سحابٌ ولكن طيب الجو أنظفُ  
وقال آخر :

بيتي شعور العنكبوت ستورهُ ومطارحُ الغبراء فيه مطارحي  
وإذا أصابته الساء بطلها فسيأوه تهمي بوكفٍ سافح  
وكأنني من ضيقه وظلامه ميتٌ دفنٌ في ترىٍّ وصفائح  
وقال آخر :

العنكبوتُ بنتٌ يتعالى وهنٌ تأوي إليه ومالي مثلاً وطنُ  
والخفصاء لها من جنسها مسكنٌ وليس لي مثلاً ألفٌ ولا مسكنٌ (١)

الوقوف على الاطلال :

إن المطامع النزلية للقصاد ، الحاملة الأساسية لبذور ( مفهوم

١ - المنازل ، الشعراء المجهولون ( قال آخر ) ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٥ ،  
٣٩١ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

الوطن) في الشعر العربي، عادة ما تبدأ بدعوة للوقوف على آثار الديار المهجورة، التي يعرف عليها الشاعر. ويمتد امرؤ القيس أول من دعا إلى هذا الوقوف. إنه في مملقته الشهيرة، باستمالة الفحل (قف) بصيغة الأمر - [قفًا]، يدعو، باختصار وتكثيف، صاحبه<sup>(١)</sup> للوقوف والبكاء:

قفًا نباك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل<sup>(٢)</sup>

وفي مكان آخر<sup>(٣)</sup> يدعو صاحبه إلى التحول عن طريقها، والتوجه إلى «الطلال المحيل» لملها بكيان الدار كما بكاه «ابن خدام». إن

١ - الزوزني في «شرح المملقات» ص [٧٩] وفي معرض تعليقه لأسباب توجيه الدعوة إلى الوقوف بصيغة المثنى يكتب ما يلي: «قيل» خاطب صاحبه، وقيل: بل خاطب واحداً وأخرج الكلام مخرج الخطاب مع اثنين، لأن العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع. خاطب الواحد خطاب الاثنين، وإثنا ضلت العرب ذلك لأن الرجل يكون أدنى أعوانه اثنين: راعي إبله وراعي غنمه... الخ...».

٢ - النازل، ص ٣١؛ ديوان امرؤ القيس، ٨، ٩؛ شرح المملقات، ص ٧٩ - ٨١.

٣ - النازل، ص ٨٦؛ ديوان امرؤ القيس، ص ١١٤.

هذه الدعوة للوقوف والبكاء، تشتمل أيضاً بهذه الصورة عند الشعراء اللاحقين لمصر امرؤ القيس<sup>(١)</sup>. ويدعو الشاعر، أحياناً، خليليه إلى اختيار أحد موقفين: إما الوقوف عند الديار الخالية<sup>(٢)</sup>، أو البكاء على يقايا الديار:

خليلي هيجا عبرة أوقفنا بنا على منزل بين النقيعة والجبل<sup>(٣)</sup>

لكن نغثر عند بعض الشعراء على موقف معاكس، واتجاه آخر، إنه دعوة للامتناع عن الوقوف على الاطلال، وآثار الديار الطالية، ذلك لأن الوقوف عندها لا يجدي شيئاً، إذ لا يشفي الحزن من الشوق والام، فاللقاء مع المنازل لا يشفي حاجة المتذكر<sup>(٤)</sup>.

وصف الحالة الراهنة للمنازل:

يقف الشعراء عند الاطلال ويقايا الديار، فيسندون الحالة التي عليها ديار الأحبة، أو موطنهم: كيف غدت هذه الديار بعد هجر سكانها لها؟! ووصف الشعراء هذا بشتى عناصر ضرورية ترد غالباً عند معظم الشعراء:

١ - انظر: مثلاً، النازل، ص ٨٥؛ شعر زهير؛ وشرح ديوان زهير، ص ١٤٥ (دار الكتب).

٢ - النازل، ص ٧٣؛ شعر أبي كبير.

٣ - النازل، ص ٣٧؛ ديوان جرير، ص ٤٩٠.

٤ - النازل، ص ٦٨؛ شعر الجعدي.

## آ - تحديد أماكن السكن :

لقد كان الشعراء عادة يشيرون إلى موقع هذه الأماكن. المنزل الواقع « بين الدخول ، فحومل ، قوتج ، فلقراء ، ( وكأها أسماء أماكن )<sup>(١)</sup> . وأحياناً أخرى يكتفون بذكر موقعها شيئاً أو جنوباً .. الخ .. بالنسبة إلى موضع واحد . مثلاً : « ديار جنوب أسنة »<sup>(٢)</sup> ؛ « بطن الجو » ، و « في الركن ، والقيع ، وثبده »<sup>(٣)</sup> . وفي حالات أخرى يشير الشعراء إلى ملكية وتبعية هذه المنازل : « منازل آل أساه »<sup>(٤)</sup> . وبلسلوب سؤال المارء يسألون « عن المنازل قد عفون سنينا ؟ » . إنه سؤال الشاعر البكاء عن المنازل المهددة ، منازل قومه المشتتين ، ففت منازلهم ، وبقيت دمن بجهلها الباكي البكي . ولم يوضح البكاء بصورة مباشرة أنها منازل قومه ، ذلك لشدة الدهشة والاستغراب ، ولن يفهم هذا إلا من البيت الرابع حيث يعزي نفسه قائلاً : « ما كنت أول من تفرق شمله »<sup>(٥)</sup> .

- ١ - المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ٨ ، ٩ ؛ وانظر : المنازل ، ص ٤٠ ؛ وديوان النابغة ، ص ٨٥ .
- ٢ - المنازل ، ص ٩٨ ؛ شعر ابن مقروم ؛ معجم البلدان ، مادة « أسنة » .
- ٣ - المنازل ، ص ٣٩ ، ٩١ ؛ ديوان زهير ، ص ١١٦ ، ٢١٩ .
- ٤ - المنازل ، ص ٣٩ ؛ شعر زهير .
- ٥ - المنازل ، ص ٢٠ ، شعر البكاء .

## ب - جبل الديار ، وعدم معرفتها :

إن المنازل والديار النجورة ، انقراء ، والتي تعرضت لمصائب الدهر ، وعوامل الطبيعة ، غالباً ما تنجرت لحد عدم التمكن من معرفتها وتمييزها ، والشاعر برؤيته هذا النظر المؤلم الحزين لأثار وشيأ الديار ، لم يتمكن من التعرف عليها : « استحياتك »<sup>(١)</sup> . أو يسأل الشاعر من يعرف الديار : « لن المنازل قد عفون سنينا ؟ »<sup>(٢)</sup> . لقد تنجرت المنازل ذلك التغير الذي لشده كان الشاعر مضطراً أن يستعمل أسلوب الاستفهام ، وكان ما يراه الآن مدهش عجيب ، لا يعرف تمييزه . وفي حالات أخرى يسأل الشاعر سؤال المارء ، ويتوجه بسؤاله للجناب قائلاً :

« هل عرفت ديار أم عمرو ؟ »<sup>(٣)</sup> ، ليدل على التغيرات الجذرية التي آلت بها . ولكن أية فائدة يمكن أن تقدمها هذه الاشئلة ، أو الوقوف الطويل على آثار الديار المغماة ، التي يصعب التعرف عليها ؟ إذ يستغليل الشاعر وقوفه على [ رسوم ديار قفر ]<sup>(٤)</sup> مسائلها ، وهل ينفع السؤال ؟

لكن بعض الشعراء يتعرف على هذه الديار ، إنجاباً جيد وكذا ،

- ١ - المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان النابغة ، ص ٨٠ .
- ٢ - المنازل ، ص ٢٠ ؛ شعر البكاء .
- ٣ - المنازل ، ص ٣٨ ؛ شعر عروة بن الورد .
- ٤ - المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان النابغة ، ص ٤١ ، ٤٢ .

ذلك لأنه لم يبق منها إلا قطع الجبال والأوتاد<sup>(١)</sup>. وظاهر الديار لا ينيء عنها ، وعن تبعتها ، إفا من له تحريته الماطفية ممها بلم علم اليقين<sup>(٢)</sup> هي . إنها [ دار لمدى ] الحبيبة الجميلة ، التي رحلت ولم تبس إلا ذكرائها . فالحب عند الشاعر هو واسعته لمعرفة الديار وتبعتها<sup>(٣)</sup> .

#### ج - المنازل مخافة

إن أماكن السكن المهجورة التي يسكنها الشعراء تكون في أغلب حالاتها ، مخافة ، دارسة ، خالية ، خلوية ، قد أزيلت من على سطح الأرض ، ولم يبق إلا أثرها ودلالات عليها<sup>(٤)</sup> . د هل تؤنسان بطن الجبل من ظن<sup>(٥)</sup> ؟ فالديار عفت من أهلها ، عفا منها د السهل والتلبيط<sup>(٦)</sup> . والرياح هي التي عفت مدام هذه الديار ، لقد غطتها بالرمال حتى تنكر منها د كل معرفة ، د إلا الرماد ، الباقي من آثارها<sup>(٧)</sup> وإلا دمعني الجاري ، الذي ذرف شوقاً وجأ ولوعة . أقفرت هذه الديار ،

١ - المنازل ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ؛ شعر حارث بن بدر التميمي .

٢ - المنازل ، ص ٩٨ ، شعر ربيعة بن مقروم .

٣ - المنازل ، ص ٣٣٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٢٩٣ ، ٣٥٩ ، ٣١٨ ، وغيرها .

٤ - المنازل ، ص ٣٩ ، ديوان زهير ، ص ١١٦ .

٥ - المنازل ، ص ٩٩ شعر الحارث بن خالد ؛ الأغاني ، ج ١ ، ص ١١١ ، ص ٣١٣ ( دار الكتب ) .

فليس فيها د نار نقيء ( سورة جاهلية ) ، ولا د أصوات سهر<sup>(٨)</sup> .

وبنض النظر عن أن د المنازل ، قد تغيرت للدرجة الجبل بها ، فإن هذا التغير لم يمسح ذكرها في نفس الشاعر ، فقف د بالديار التي لم ينفها القدم<sup>(٩)</sup> ، في نفسه ، رغم أنها ذاتها قد عفتها الرياح والأمطار ، وبقيت آثارها في نفسه .

#### د - الديار بلا سكان ، فقراء خالية :

يتكلم الشعراء عن ديار خلوية ، خالية من السكان : د المنازل أقفرت ، ليس فيها نار نقيء ، ولا د أصوات سهر ، ويسأل الشاعر سؤالاً مؤثراً في بداية شعره يعرف مسبقاً جوابه وهل بالديار من أحد<sup>(١٠)</sup> ، ويطل ذاته بعد أن يتذكر ماضيه في هذه الديار ، ويقارنه بماضيه حيث أصبح اليوم د لا أهل ذوو لطف ، عنده ، يلبو معهم ، د ولاصفراء بالدار<sup>(١١)</sup> . إن هذه الصيغ الاستفهامية التي يسكب فيها الشاعر عواطفه وحزنه توجي بشدة الوعة والألم د أي المنازل بعد الحول تعرف ؟ ، ويظهر عدم جدوى البكاء على أطلال تلك المنازل د أم ما يكاؤك ؟ ، التي بعد أن كانت آهلة ، غدت مرتعاً لبقعر الوحش

١ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر نبيس ؛ الأغاني ، ج ١ ، ص ١٠٨ ( يولاف ) .

٢ - المنازل ، ص ٨٥ ، شعر زهير .

٣ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر نبيس .

والسالم ، وغدا أصحباها في شقاء بعد أن كانوا في نعيم ، مما يستوجب اليكاه على مضيقم (١) الدار قفر (٢) والرسوم لم يسبق منها إلا آثرها .

هـ - مكان عيش الحيوانات :

لقد غدت الديار المهجورة مكان سكن الحيوانات والطيور : النازل غيرت الناس الكرماء الرائيين بقر الوحش ، وقطمان الطيور (٣) . لقد عثرت المنازل ، وقبت دمن يحامها الباكي البكي ، تلك الدمن التي أنفقت عند الناس بشعور الحزن والألم (٤) .

و - المنازل صماء بكاء :

لها - رغم ذلك - توقف في الشاعر الحب والشوق ، والحنين والرغبة في تلقي الجواب على تنمية الشاعر ، وعلى أسئلته الكبيرة . لكن هذه المنازل تصمت ، وفيها لم تكلمت - تكلمت الكثير ، ذلك لأنها تعلم العلم الكبير عن الماضي ، وكذلك عن أسرار الشاعر السائل . ويسأل الشاعر أحيانا : « هل الديار من صمم ؟ » ، « هل بالدراصمهم » ودعوت

١ - النازل ، ص ٩٠ ، شعر بشر .

٢ - النازل ، ص ٨٨ ، شعر المرقض الأكبر .

٣ - النازل ، ص ٤٠ ؛ ديوان النابغة ، ص ٨٥ ؛ وانظر : النازل ،

ص ٦ - ٧ ، شعر بشر .

٤ - النازل ، ص ٣٠ شعر الكباء .

أخرى لا يجيب دعائي ، « لو كان رسم الدار ناطقا (١) ، أو أنه يعني : « ولا بالدراصمهم » (٢) ، عندما يكادها الإنسان المعضى صاحب الحاجة ، الذي يبحث عن أحبه . إن (الديار) التي يقف بها الشاعر تهبج أشواقه ، ويؤمخ أن تحبه لكنها واستجبت ، عن الجواب .

ز - تشبيه آثار الديار :

لن يبقى بعد خروج السكان من الديار وهجرانها إلا آثارها التي هي أشبه بأثار خط قلم أسود :

أرسم دار أم سطور كتاب درست بشافشها مع الأحباب  
- لمن الدار كأنضاء الكتاب هاجت الشوق وعيت بالجواب (٣)

في أشعار شعراء العصر الأموي : [ ابن الرقاق ، حفص الأموي ، الأحوس وغيرهم ] (٤) يعثر على عناصر وصف الديار ، ويقالها ، وتخليهم لها بتشبيهات متنوعة : إن الدار الدارسة ، الصامدة أشبه بكتاب خطق عتيق ، قد أهاجت الشوق ، وزادته في نفس الحب [ الشوق إلى مكانها

١ - النازل ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٣١٣ ، ٣٥١ ، أشعار عبيد

ابن الطيب ، الجعدي ، الرقش ، النابغة ، عنترة وغيرهم .

٢ - النازل ، ص ٨٥ ، شعر زهير .

٣ - النازل ، ص ٣٢٧ ، ٨٨ .

٤ - النازل ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٠٠ ، ٣٢٠ .

السابقين الذين عاشوا في رخاء ونعيم [ : « أهل أنعام » ؛ آثار هذه الديار - مرابط الخيل فقط - حملت فيها الرياح فعلها ؛ وأسفتها بالتراب ، فغطتها بأكسية رملية . إن هذه الآثار تبيج الذكرى ، والأسى ، والام في النفس . وابن قيس الرقيات<sup>(١)</sup> بعد سلسلة من الاستهجمات التمجيدية « هل للديار بأهلها علم ؟؟ أم « هل بين فينطق الرسم ؟؟ » ، ويبدو سؤاله صاحبه :

يا صاح هل أبكك موقفنا أم هل علينا في البكا إثم ؟!

بعد هذه السلسلة من الاستهجمات يسأل صاحبه مستغرباً عن سبب بكائه المنزل البالي الذي غدا أشبه بالوشم في ظاهر اليد :

أم ما بكؤك منزلاً خلقتك فقرأ يلوح كأنه الوشم ؟

وتقارن آثار الديار عند شاعر آخر بآثار القلم ، حيث أضحت الديار بعد رحيل أهلها وكأنها « آثار أقلام »<sup>(٢)</sup> ، وهذا دلالة واضحة على البيوت البدوية ، التي يرحل أهلها لن تدوم آثارها ، ذلك لأنها خيم وأعواد .

وإذا كان الشعراء الأقدمون يصفون الديار ( بالمي ) ؛ بأنها صباء بكياه ، لا تقوى على إعطائهم الجواب الشافي على أسئلتهم ، فإن ذا الرمة ،

١ - المنازل ، ص ٦٨ ؛ ديوان ابن قيس الرقيات ، ص ٥٥ .

٢ - المنازل ، ص ٦٣ ، شعر ابن المفسر .

وهو يطور طريقة التعامل مع المنازل والديار ، يصفها بالجل في الكلام :

ألا حيي المنازل بالسلام على يُخل المنازل بالكلام<sup>(١)</sup>

والديار عنده [ عند ذي الرمة ] مقفلة خالية ، دراسة عافية . إنها « خيات » ، بلبت ، فقلت مكان عيش بقر الوحش والفريان « وحشائم ورف في الديار وقوع » . أهاجت إمين دمة ، لقد وقف فلم ، فكادت « دمه الدار تنطق » لعرفها صوته<sup>(٢)</sup> .

ويحتوي شعر شعراء البعاسي ، فيما يتعلق بوصف حالة الديار والمنازل ، على تلك العناصر التي قد أشرنا إليها في شعر الشعراء السابقين لهم : فالديار قد حرمت من سكانها الطيبين السالحين ، وأصبحت « مراداً للنجاج المتخلفة » ، والربوع لا تقوى على الكلام « فلما سألت الربع ... لم ينطق »<sup>(٣)</sup> . لقد لبست الديار ثوب الفناء ، لا ترفها من منظرها الخارجي ، لكن بواسطة الشور والحلب ، لأنها ديار قد تغيرت لدرجة عدم المعرفة<sup>(٤)</sup> :

١ - المنازل ، ص ٤١ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ٥٩٤ .

٢ - المنازل ، ص ١٤٨ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

٣ - المنازل ، ص ٣٣ ؛ شعر أبي الحية النميري .

٤ - المنازل ، ص ٦٥ ، ١٥٠ ؛ ديوان أبي نؤس ، ص ٤٩٦ ؛ ديوان للتني ، ص ١٠ ، ٤٠ .

سل ديار الحي من غيرها وعفاها ويحيا منظرها؟(١)

وانتارل كالتاس تعطي الوعود ، وفي هذه الوعود ، فالتازل قد وعدت الحوادث بأن تدرس ، وتستوحش ، فلم تقدر على مطالها ، وإخلاف وعدها(٢) .

لقد «لعبت به» الدار أيدي البلى لعب الشكوك بنفس إنسان»(٣)

والبون شاسع بين ماضي الديار الزاهر ، وحاضرها الكئيبة ؛ لقد كانت نجومًا لكنها الآن دمن ورسوم ، كانت مصدراً للسرور ، وغدت ميتاً للجزن والاسي ؛ غدت بعد الفراق ( ناحلة ) وكأنها إنسان يضر ، ويضرب ؛ وغدا الاشراف فيما ظلاماً ، والضحي أسيراً ، « لقد نادى بين البوت أهلاً فأسماء » ، ويشمى الشاعر أن لا يراها على حائط الحاضرة بعد أن كان عيشه فيها نعيماً :

يا ديار الأحباب لا أبصرتك العين من بعد أن حلت رسوماً(٤)

١ - المنازل ، ص ٧٢ شعر أبي العتاهية .

٢ - المنازل ، ص ٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ؛ ديوان أبي تمام ، ص ١ ، ص ، ٣٧٦ ، ٤٠٦ .

٣ - المنازل ، ص ٣٤ ، ٣٦ ؛ ديوان ميمار ، ص ١٧ ، ص ٣٦ و ٣٧ .

٤ - المنازل ، ص ٧٢ ، شعر المرتضى .

« لدار .. لطول بلاها والتقدم صحيفة يضاء »(٥)

والديار تحض اختيارها ترفض الكلام ، ذلك لأن السكوت شعارها ، ترفضه عن مقدرة ، حيث بلماها النفاق ، ولو نطقت لشفت مرض السائل وحزنه :

« أبت لا تكلمك الديار... »

فلو نطقت شفت في شعاعاً ولكن السكات لها شعار »(٦)

ح - عوامل تهديم المنازل (الرياح والزمن والأمطار) :

كل هذه التغيرات التي حدثت على الديار وآثارها إنما كانت بتأثير الرياح ( الجنوبية ، والشمالية ، وبخاصة الشرقية التي هي من أكثر رياح الصحراء شيوعاً ) . إن هذه الرياح ، بتتابعها الواحدة تلو الأخرى ، تمحو ذلك الذي تركه الناس وراءهم ، وتدمر الديار ، وتمحوها ، غير تاركة حتى الآثار التي تدل عليها : إذ إن ( رياح الجنوب تزيل ما أجهته رياح الشمال ) . و د المنازل أصبحت للرياح مناركة(٧) .

١ - المنازل ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، شعر ابن النوى .

٢ - المنازل ، ص ٧٤ ، شعر التظفاني .

٣ - المنازل ، ص ٣١ ، ٤٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٨ ، ٤٨ ، شعر امرئ القيس ، النابغة ، ابن الرقاع ، البحري .

إن حوادث الدهر ، والأمطار النزيرة ، والزمان قد قضت على الديار ، ودمرتها ، وعفت حتى آثار ورسوم أماكن نزول القبيلة والشعراء يصورون الحياة البدوية بتقلها وترجلها الأبدية ، مشيرين إلى هذه الظاهرة الاجتماعية - التجارية - المتنامية ، والتعايش في أماكن عيش محددة معروفة ( أماكن النزول ) صيفاً وريفاً ، على امتداد سنوات عمدة ، ( عام بعد عام ) :

عفا عام حلتْ صيفه وريعه وعام وعالم يتبع العالم قابل  
«أي المنازل بعد الحول تعترف؟!» (١) «أخني عليها الذي أخني على بُد» (٢)

لكن قوى الطبيعة لم تعد - فيما بعد - العوامل الوحيدة التي تدمر « المنازل » ؛ في هذا يشارك الناس أيضاً ، بقيامهم باعتداءات عدوانية ، وهجمات منظمة . فقدت حجارة المنزل تحارب وتقاوم ضربات المساول المدمرة ، وكان « بينهم حرب وائل » ، وكان الممتني قد أراد عن فيه وقصد - نحو آثار القوم ، فلن يتركها :

« مستخبر أو واقف أو مسائل » ، ولن يسمح لها بأن تكون رسول حضارة ذلك القوم :

١ - المنازل ، ص ٣٠ ، ٦ ، ٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٣٣٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٣٤ ، شعر زهير ، الثابتة ، بشر ، ابن الوقاح ، نصيب ، قيس بن ذريح .

٢ - الاسطورة عن النسر العمر الأبدية [لبد] .

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم أر أحلى من حديث المنازل (١)

ط وصف الماضي :

إن الشعراء يوقفهم على المنازل والديار ، ووصفهم لحالتها الزاخرة ، ولائز عوامل الطبيعة عليها ، يتذكرون الماضي ، ماضياً ، بصفوة ، ويقارنونه مع الحاضر . فاضي الديار طويل وغني وعامر :

« كم للمنازل من عام ومن زمن ؟! » (٢)

والديار المهجورة قد أقيمت في الشاعر تذكر الأوقات الماضية ، تذكر الحياة الماضية السعيدة الزائلة . ويقارن الشعراء تلك الحياة بالحالية القاسية الصعبة الحزينة :

إذ « لا أهل ذوو لطيف » يستطيعون مواساتهم (٣) والديار المقفلات « بلين وهجن لقلب اذكراك » (٤) . ووهل الأيام الخوالي رواجع .

أراجعة باليل أيا من الألى بذى الزمة ثم لا ماله من رُجوع؟! (٥)

١ - المنازل ، ص ١٣ .

٢ - المنازل ، ص ٣٩ : ديوان زهير . ص ١١٦ .

٣ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بهس .

٤ - المنازل ، ص ٩٨ ، شعر ابن مفرغ .

٥ - المنازل ، ص ٨٢ : ديوان ذي الرمة ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

لقد كانت الديار فيها معنى ( نجومياً ) ، لكنها الآن من ورسوم ،  
كانت مبعثاً للسرور والحب ، وبعثت مصدراً للحزن والام (١) .

ي - شعور الشاعر وسلوكه :

إن بقايا « الديار » توظف في قلب الشاعر الشوق والحنين ، اللذين  
يشبهان القشعريرة الحادة الخطيرة عند المريض . والشاعر ، يوقوفه بين  
هذه الاطلال ، وبقايا الديار ، من الحزن والام ، يشعر وكأنه سكران  
قد أعطي الخمر منذ الصباح الباكر (٢) . لم يبق للشاعر بعد رحيل الأهل  
والأقرباء سوى أن « ينحسر ويتذكر » . وفي تذكره هذا يبدو نشواناً ،  
وكانه أعطي خمر فلسطين . لقد منعت عليه طارقات الحوموم النوم  
« بأبي وإذكار خطب قديم » (٣) . ويبحث الشاعر عن ملجأ عنده  
« المنازل » ، ملجأ من التجسر على الحوية ، لكنه عبثاً يبحث ، إذ إن  
التجسس لن يخالقه في مسماه . ذلك لأن « المنازل » توظف في قلبه التذكر  
والشوق ، فكان كمن يريد « مداواة حر النار بالدار » (٤) . و « اللذرة »  
« عفت إلا ألقايا » « فانهفت فيها مغائبا » ، وجرت الرياح العاصفات  
أنفاسها عليها فندت وكأنها قوب «الخلق» ، قد وقف الشاعر بسائرها مألم

- ١ - المنازل ، ص ٧٣ ، ٧٤ ؛ ديوان المرتضى ، ج ١ ، ص ١١١ ، ص ٢٠٤ .
- ٢ - المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ١١٤ .
- ٣ - المنازل ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، شعر المهدي بن الرفاع .
- ٤ - المنازل ، ص ٨٩ ، شعر مهيبار .

كانه « ساورته حية رقطاء » (١) ولشدة تنسیر تؤبدل الديار يسكنها  
« وقتت عليها ، ففاض الدمع ... » (٢) . وهو يائس يطلب منه « صدقوه  
التجدد والصبر ، لكنه يرى مواساته في مكانه ، ثم يسأل السؤال الاستنكاري  
اليائس :

وإن شفتائي غيرَ شِفْرِ مُسْرَاقَةٍ

فهل عندَ رسمِ دارسٍ من مُمَوَّلٍ؟ (٣)

ولا يجوز لاحد أن يلومه في مكانه أهله ومنازلهم :

إن قومي تشابخوا بعدما كا نواهم القوم ، فأياك غير ملوم (٤)  
والشعراء يدعون إلى البكاء على أماكن زول القدماء ، الذين  
كلوا أفضل من حل محلهم ، إذ كان اللاحقون خير من سكن الديار :

فأبكي إذا بكت المنازل أهلها ... معذورة (٥)

وأحياناً لا يدري الشاعر أيها أجمل بحاله : البكاء أم الصبر ، إذ

- ١ - المنازل ، ص ٣١٤ ؛ ديوان الخطيب ، ص ١١١ .
- ٢ - المنازل ، ص ٣٨ ، شعر عروة بن الورد .
- ٣ - المنازل ؛ ص ٣١ ؛ ديوان امرئ القيس ص ٨ ، ٩ .
- ٤ - المنازل ، ص ٧٠ ، شعر ابن الرفاع .
- ٥ - المنازل ، ص ١٧ ، شعر ابن الرفاع .

بالبكاء شفاء من غصة الشوق ، وبالصبر الرجولة والجلادة<sup>(١)</sup> . وأحياناً أخرى يؤمن بدم جدوى البكاء ، ويدعو للامتناع عنه :  
« أم ما بكؤك ؟ »<sup>(٢)</sup> .

ويعنى الشعراء عادةً لا ما كن السكن الابدية والحير ، ويدعون لها - على الدوام - بالسقيا ، ويتبنون بالخافة الواساة أنفسهم بأنفسهم ؛ بعضهم يجد الواساة والشلوان فقط في السكاء واليأس . واليأس ، من جهة ، عامل من عوامل قطع الحنين إلى الديار<sup>(٣)</sup> ، ومن جهة أخرى - دواء للمين إما : كي تذرف الدموع<sup>(٤)</sup> ، وإما بهجر الديار وتركها ، والتسليم بالمصائب ، والاستسلام للزراء :

فلما بدا لي اليأس عذيتُ نائتي عن الدار .... «<sup>(٥)</sup>

حتى إن الشاعر ، أحياناً ، يشير إلى إطلائه في بكاء الديار وزيارتها ، ويلجأ في الإطالة معنى الملل :

طال في رسم الديار بكائي وطال تردادي بها وعثائي<sup>(٦)</sup>

١ - النازل ، ص ٣٣٩ ، شعر ذي الرمة .

٢ - النازل ، ص ٦٣ ، ٦ - ٧ ، شعر ابن الفرس ، وجر .

٣ - النازل ، ص ٨٣ ، شعر ابن الطيب .

٤ - النازل ، ص ٨٢ ، شعر ذي الرمة .

٥ - النازل ، ص ٦٤ ، شعر أبي نؤاس .

٦ - النازل ، ص ٦٤ ، شعر أبي نؤاس .

٢٢٤

الواساة والمزاء يكمنان ، أحياناً ، في المسيرة والظلمة عما مضى : فالفراق عثم لا مفر منه ، إنه قدر جميع الناس بلا استثناء . والفراق والبقاء قانونا الحياة ، وليس الشاعر أول من تفرق شمله وتهدمت دياره<sup>(١)</sup> ، لكن هذا عمل القضاء والقدر الذي يصيب الجميع :

كذلك الدهر إن الدهر ذو غير  
على الأنام ذو تقضى وإمرار<sup>(٢)</sup>  
- وهي الدنيا إذا ما دبرتْ  
جعاتْ معروفها متكرها  
إنما الدنيا كظلي زائل  
أحمدُ الله كذا قدرها<sup>(٣)</sup>

أما كن السكن عند العذرين والعمرين :

إن الدور الخاس في تطوير موضوع « النازل » و « الديار » في الشعر العربي قد شغلته مجموعتان من الشعراء ظهرا أيام بني أمية ، وهما : مجموعة الشعراء العذرين ، ومجموعة الشعراء العمرين . إن الشعراء العذرين ( شعراء الجزيرة العربية من قبيلة غنزة ) ، ومن تالهم بطارق - هذا الفرض كقيس بن الملوح وغيره ، قد قالوا شعرهم في المنزل الضيق ، وتحديثا الروايات أن الشعراء البدو - العذرين ومحبوهم قد تعرضوا

١ - النازل ، ص ٩٠ ، ١٨٥ ، ٢٠ ؛ شعر جر ، ابن مقروم ، البكاء .

٢ - النازل ، ص ٩٠ ، شعر بهس .

٣ - النازل ، ص ٧٢ ، شعر أبي الناهية .

الشعر العربي - ١٥

٢٢٥

للكثير من الصوبات والمراقل التي وقفت أمام حبيهم ، حيث حيل بينهم وبين محبتهم . لقد منعهم من الالتقاء والعيش بقرب بعضهم ، فكان شعرهم عاطفة ملثية ، وعفة مخشيه ، وألما وحسرة . وكانت « المنازل » و « الدار » و « البيوت » معطاة في أشعارهم بقوة خاصة . وبتأثير خاص معين ، حيث إن ( المنازل والديار والبيوت ) ، بالنسبة لهم ، مثيرة للشوق ، ومحركة للذكرى . هذا الشوق ، وهذه الذكرى يأخذان على الشاعر مجامعه . ولذا فإن مصطلحات « منازل وديار وبيوت » مقرونة بالتهيج والذكرى ، وبأساء محبوبات معينات . « إن المنازل هيجت لإطراحي » :

وذكرتُ عصرًا بأبيته شفتني إذ فاتي، وذكرتُ شرجي شابي (١)  
ويقول جميل في مكان آخر أيضاً :

« أهاجتك المنازل والطلول »

تَعَمُّ وَذَكَرْتُ دَيْفَادَ تَقَضَّتْ وَأَيُّ نَعِيمٍ دُنْيَا لَا يَزُولُ؟  
ولا يخرج عن هذا كثير بن عبد الرحمن الخزاعي إذ يقول :  
« أالشوق لما هيجتك المنازل !! » ، وتذكرت فأنهات ليني دممعة ، ،  
« ليالي عيش نمتنا يوجبه زمنا » (٢) .

١ - المنازل ، ص ٣٥ ؛ ديوان جميل ، ص ٣١ .

٢ - المنازل ، ص ٤٧ ؛ ديوان كثير ، ص ١٠ ، ١ ، ص ٢٤٤ .

إن مرور كثير على منازل أجنته يثير فيه الشوق ويدعوه للبكاء :  
« أهاجتك الديار » (٣) . ويسأل الجيئون أيضاً سؤال العارف « أهاجتك ديار لي ؟ » . انه يمر على ديارها ليقبل جدرانها :

أمرّ على الديار ديار ليلى أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا  
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وتبلغ عاطفته ذروتها عندما يلتقي بجميل الثوباء في أرض حبيته التي يبحث عنها وعن أهلها بعد أن اختل عقله - كما يروى - فذهب فيه الحياة (٤) ، ويندمو الجبل وكأنه انسان ناطق يجاور مبتسماً ويحييه على كل تساؤلاته ؛ فليبل ينادي « نادى بأعلى صوته فدعاني » ، وعندما سأله عن أحبابه قال : « مضوا واستودعوني ديارم ... » ، ثم يمل نفسه على لسان الجبل بقوله « وما الذي بقي على الحدثان ؟ .. »

وبقابل الاتجاه السابق اتجاه آخر ، يسمى في علم الأدب العربي الحديث « بالعمري » ، نسبة إلى المثل الاسامي لهذا الاتجاه ، الشاعر المسي عمر بن أبي ربيعة . لقد نشأ هذا الاتجاه ونما في الحجاز ، منذ تسلل عنان الحكم ، حيث انعكس إليه السيلامي على مظاهر الحياة الأخرى ، ووجه بانتقال الحكم لبني أمية ، وانتقال عاصمة الخلافة

١ - المنازل ، ص ٨٠ ، ديوان كثير ، ص ١٠ ، ص ١٢٢ .

٢ - المنازل ، ص ٦٦ ؛ ديوان قيس بن المرح ، ص ٢٧٥ .

من المدينة الى دمشق . هذا الحدث الذي يعتبر هاماً في تاريخ الخلافة  
لأن أثر امتداد الفتح ، واتساع الملك قاد لاعتبار العرب الطبقة الممتازة  
في الأمصار الإسلامية ، لأنهم يمثلون الدولة والدعوة مما . ولهذا كانت  
لهم امتيازات ، وأسباب بمقتضى زراء ، وغنى ، وعاشوا نتيجة ذلك  
ذلك حياة زرف ونعيم ، كما ان حروب بني أمية مع معارضهم في الحجاز  
دفعت بعض الناس الى ترك السياسة والانخراط في حياة النعم . في هذا  
الصراع قد شاركت أيضاً القوى الشعرية ، لكن بعض الشعراء ابتعدوا عنها  
وانخرطوا بحياة الترف والنعم والابو التي أثمرت الى أسباب ظهورها ؛ ففي  
نفس الوقت الذي عبر فيه جرير والفرزدق والاختل في اشارهم عن  
الصورة الإيجابية للحياة السياسية في دمشق والشام ، كان عمر بن أبي ربيعة  
وغيره قد ابتعدوا عن الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، متغزلين بشعرهم  
بحياة اللب و النعم واللذة ، مشيين بالنساء . وكان الفارق الرئيسي بين  
غزلهم وغزل المفريين أن المفريين أهدروا الحياة الخارجية ، وأغضبوا  
الحياة الداخلية ، أما ابن أبي ربيعة وجماعة اتجهوا فقد اجتمع لهم المال  
والشباب والفراغ والجملة ، فأولوا الحياة الخارجية عناية فائقة . إننا نجد  
عند المفريين فقرة حادة واضحة في اتجاه آخر فيما يتعلق «بالتأثر بالديار»  
انتقال من الذكر وبكاء الديار الى حبها والارتحال اليها . إنهم لا يكونون  
الديار وآثارها ، إنما يسمون جاهدين لتقيها ، ذلك لأن الديار عندهم  
هؤلاء الشعراء غير مبداهم دلرسة بفعل الرياح والأمطار والزمن ،  
بل على العكس لها مصدر الراحة والهناء واللبو والنعم ، ومكان عيش  
المحبوبة حيث ترتاح عواطف الشاعر ، وترى كل شيء جميلاً لجمال الحياة  
بقرب الطبيعة والمعشوقة .

المنازل والديار عندهم - هي مكان الراحة ، والسرور والتسللذ  
مع المعشوقة « قد أرقنا بشطة فيه ظلو ونجبل » (١) . ان هذا النموذج  
من الاتجاه الشعري والانتقال الحاد في التوجه الى الديار إنما فرضته  
ظروف حياة هؤلاء الشعراء .

لقد شاق عمر بن أبي ربيعة ذرعاً بالبقاء طويلاً في « الصلى » ،  
وشنى البقيع ، ، وسعى جاهداً لزيارة « ديار » مشوقته وهدوسمدي (٢) .  
وكذلك عند المرجي (٣) « أما الفيار فقلنا لبثوا بها » ذلك لطيهم الرحلة  
والثقل . وشبا شوقهم بسياط وضمت في أعناق الميس لتحتها على العودة  
الى ديار الاحباب ( الى الاوطان ) .

#### عناصر جديدة في التوجه الى موضوع « المنازل والديار » ومعاملتها

وعلاوة على العناصر والاتجاهات التقليدية التي انطلقت تمييزاً عن حياة  
العربي - البدوي الواقعية في الجاهلية ، وكانت مادة أساسية للتقليد في  
المصور الزمنية اللاحقة ، علاوة على كل هذا فقد ظهرت في الشعر عناصر

- ١ - المنازل ، ص ١٤ ؛ ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص ٢٠٧ (بيروت)،  
ص ١٢٥ ( ليزنخ ) .
- ٢ - المنازل ، ص ٩٧ ؛ ديوان ابن أبي ربيعة ، ص ١٧٤ ( بيروت ) ،  
ص ٢٣٨ ( ليزنخ ) .
- ٣ - المنازل ، ص ٩٢ .

جديدة في معالجة موضوع « المنازل والديار » . فالجاهلي مثله وقيمه التي تمسك بها وقائل من أجل الحفاظ عليها . فالكرامة وحفظ الشرف من أهم ما تمسك به الجاهلي ، وضحي في سبيله بكل شيء . ورغم أن الانحياز الخالص حتى الآن عند الجاهليين هو الوقوف على الديار ، والبقاء عليها ، وتذكر النخلة من خلالها ، أو تذكرها من خلال النخلة ، والدعوة لها بالبقاء ، والتأسف على ما فيها ، وماضي الحياة مع الحبيبة ، فأننا في شعر قيس بن الخطيم ( شاعر قروي مات عام ٦١٣ م ) نلمح عناصر تمجيد واضحة ؛ أنها دعوة ، إن لم تكن مباشرة صريحة لكنها تلمح بوضوح من خلال الأسطر ، إنها الدعوة إلى الرجول وترك الديار التي لا تؤمن فيها للهرة كرامته :

وما بعض الإقامة في ديار يهان بها الفتى إلا عتاه (١)

ولقد كان ذكر المنازل عند بعض الشعراء الآخرين في المراحل اللاحقة تقليداً للجاهلية حتى أن الشاعر يعين بن أبيدي السهوك ، في القصود النخلة ، وإن به يذكر المنازل القديمة في الصحراء والمجاز وليس بينه وبينها أية صلة . تقليد الشعراء هنا جاء مفتقراً للماطفة التي كانت تشيع في شعر الجاهلية ، موزناً لصدقها . ثم لم يعد ذكر المنازل أحياناً مثيراً للأحزان والألمى بل شعر بأثر الحضارة في التوجه إلى

١ - المنازل ، ص ٩٣ ؛ ديوان ابن الخطيم ، ص ٩٥ ( القاهرة ) ، ص ٥٣ ( بغداد ) .

المنازل وذلك بتجنيها عند جرير «حي المنازل بالبردين قد بليت » ، «حي المنازل إذ لا ينتمي بدلا » ، «وقل للمنازل ... حيث» ( بصيغة المجهول). تلك التحية التي تظهر عليها بوادر التكلف . إن جريرا هنا ، في اختلاف عن الشعراء الآخرين ، غالباً ما يستعمل الفعل ( حي - أبلغ التحية) .. الخ ... حتى إن شعر الحجاج بدوره قد أثر على الشعراء في توجيههم إلى أماكن وقوف القبيلة . لنهم يتوجهون إلى هذه المواقف والمنازل بزم بعضها لأطوار مكانة الأخرى :

دُمَّ المنازل بعد منزلة الماوى والعيش بعد أولئك الأقوام (٢)

وتظهر آثار الحياة الجديدة بوضوح في شعر أبي الحية النميري [ من محضرمي الدوايين ] ، ( القرن الثامن الميلادي ) . إذ يصف في مقطوعته ظمائن جيبته التي أعولته أحوالاً لا يجدي ، لكنه يدهما بأن لا ينسأها ( ما دعت مطوقة ورفاء شجوا على غصن ) (٣) . فالذي يذكره بجيبته هنا هي الحماة على غصن الشجر المجاور ، وهذا ما يشبه قول أبي فراس الحمداني الأسير :

أقول وقد فاحت بقرني حماة أيا جارتا لو تشعرين بجالي

١ - المنازل . ص ١٦ ، ٣٢ ، ٣٧ ؛ ديوان جرير ، ص ١٥٣ ، ٥٩٣ .

٢ - المنازل ، ص ١٤ .

٣ - المنازل ، ص ٤٤ .

وكعادة القدماء فإن ذكرى الأيام الخوالي في المنازل والديار تيسر الشاعر، لكن هذه الذكرى إن لم تهجها قوافن الطاعنين فإن شيئاً جديداً يهيجها، إنها دحانهم ورق في الديار وقوع<sup>(١)</sup>. هذه الحائث التي تنوح فتبكي الأحبة المذنبين الذين يتذكرون أيامهم الخوالي.

أما عمر بن أبي ربيعة الذي اعتاد التنزل بالجميع، والتنقل من عشيقته إلى أخرى - خلافاً للبره - فإنه ينال باليوم على الماشق الذي يطير له (إن دار الرباب تباعدت أو ابتعدت جبل الوصل)، ويدعو للصحو من السكر (أفنى)، إذ إن الماشقين قد أفاقوا وتركوا الهوى، واستحكوا عزيمتهم، (وكف النفس)، ولستيقن الحياء (الترم)، فإن التقادير الختومة هي التي تباعد وتقارب؛ (أمت حياء) (واجعل مكان وصلها) أمثالها، الذين تجاوزهم فإن كنت قد تملقت بها، فلا تكن مادة حديث ولوم البدو والخضر. ثم يدعو دعوة صريحة إلى نسيانها والتخلي عنها:

وهبها كشيء لم يكن، أو كنارح به الدار، أو غيبته بالمقار<sup>(٢)</sup>

التجديد في شعر أبي تمام من هذه الناحية إنما يتمثل بدعوته بالسيا، ليس فقط لبقايا آثار الديار، كما هي المادة، ولكن أيضاً لتلك

١ - المنازل، ص ٨٢، ٨٧، شعر ذي الرمة.

٢ - المنازل، ص ٣٢٠، ٣٢١، ديوان عمر بن ربيعة، ص ٩٨ (بيروت) و ص ٧ - ٨.

الامكنة التي يصل إليها الأهل والأحبة.

إذ إن الثعالب قد حسن لديه (دار البؤس) فصارت (جنات النعم). إنها في الوقت الذي أصبحت فيه ميدان السواقى، صارت أيضاً ميداناً لموممه، لقد شكك إلى مشتاك إليه غير رحيم، ودموعه في بكائه على الزسوم ستترك في خده آثاراً ورسوماً<sup>(١)</sup>.

والبحري الذي كان في معظم الحالات مقلداً في هذه الطالع (بمانيها) وباستخدام (النزل) قنطرة (البلى لم ين من عراضها سوى أرسى)، (النزل أضحت للريح منارلاً)، (منازل ما تحجب من خرس ومن صمم، تظهر آثار الحياة الجديدة في مطلعها الطلالي، كما تظهر عنده بعض الاستخدامات الجديدة، فتمتد النزل في صحراء مقفرة، بل ترى « بين ملف الأراك منازلًا »، والصبابه تقسم قسمين: وفشوة إقطاعين، ودعمه للنزل، والنزل شامخ ثابت رغم تماق نكبات الزمان عليه. لم تعد معالم المنازل بالية قديمة لا تقوى على الجواب، لكنه يجيب « منزلاً جديداً معالاه »، « حتى يكاد يرد رجوع جولي ». والبحري لا يقل قوة عن بشار عندما يعلن بصراحة:

ومن السفاهة أن تظل مكفكف سكناً دمعاً على طلل تأبّد مقيم<sup>(٢)</sup>

١ - المنازل، ص ٢٩١، ٢٩٢، ٣١١، ٣١٣، ٣٢٩، ٣٣١؛

ديوان أبي تمام، ص ١١٠، ٣٥١، ٤٥٦، ٤٠٠، ص ٣٤٦، ٣٦٩، ٣٧٠، III، ص ٢٢٢.

٢ - المنازل، ص ٤٨، ٤٥، ٤٣؛ ديوان البحري، ص ١١،

ص ٢١٢، ٢١٧.

أما في شعر العربي فالتأثير على فصل كامل من عناصر التجديد.  
فندما يخاطب خاله محمد الذي هاجر من الشام إلى المغرب يدعو (حب الوطن،  
والحنين، والعودة إليه) :

« علام هجرت شرق الأرض ؟ ( حتى ) أتيت المغرب » [يقصد  
بشرق الأرض - سورية] نشام : أي قسم من الأرض الواقع شرقاً بالنسبة  
لقسم آخر ( المغرب ) الواقع غرباً [ : إنك لن تجد « الدار » - البلاد  
الجديدة - المهاجر إليها كما يتوخاها لك الصديق ، فأنت فيها غريب وحيد.  
ثم يدعو للعودة إلى الشام وأهلها إن لم يعجبه المقام قائلاً : وعلى كل حال،  
حتى ولو طاب لك العيش في غير الشام فلما يطيب لك طاعيره ، ذلك  
لأنك فيه غريب لا يستقيم أمرك كما يستقيم في بلادك ، بين عثرتك .  
لماذا رحيلك إذا ؟ أترحل لتجد في المغرب أخاً يفي بمن الأخوة ؟ !  
لكنك بذلك تصيب أخاك القديم الذي كان قد حصل لك من عيشك في  
في أرضك ووطنك :

علام هجرت شرق الأرض حتى أتيت الغرب تختبر البباد  
فإن تجد الديار كما أراد الـ خريب فما الصديق كما أراد  
إذا الشعرى الليانية استقلت فجدد للشامية الوداد  
فللشام الوفاء وإن سواه توافي منطيقاً عند راعتقاد  
ظعننت تستفيد أخاً وفيها وضعت القديم المستفاد(١)

١ - المنازل ، ص ٦٥ : سقط الزند ، ص ١٠٠ ، ص ٢٢٣ .

٢٣٤

وينبض النظر عن ذكر المربي لعناصر الحياة البدوية ( الجبل ،  
الناقة ، الاطلال ، الاعلام . الخ ) ، فانه يسوقها في صورة جديدة ؛  
فالناقة من ضمنها أشبه بحرف « نون » ، والآثر ، وبقايا الاطلال ومعالم  
الديار أشبه بسطور إلهام وألغاز ، ويدعو لدار الحبيسة أن تستقي ،  
ويتعامل لها بالسعادة ، ويفترق ذنوب أهلها ، فلتحييته وأهلها رحلة في كل  
شتاء هي سبب التناهي والفرقة ، ويدعو على الشتاء الذي هو سبب الفرقة ،  
ويتمنى أن يعاقب بمجدع الأنف ، ويكني في ديار الحبيسة التي لم تروق  
أوتادها إلا بعد أن سقاها مطاراً من الدمع . إن حنينه الحقيقي لوطنه  
الأم [ المرة ] ، إذ وهو في الكرخ حيث الناس فرحون ، يشتاق  
للمرة ؛ فلا شأن له بالكرخ وينداه :

فيأبرق ليس الكرخ داري وإنما رماني إليه الدهر منذ ليال

ويتمنى وهو بالكرخ أن يحصل ولو على قطرة ماء من ماء المرة  
تروي ظمأه ، وهو الانسان الذي يحن الى الوطن :

وماء بلادي كان أجمع مشرباً ولو أن ماء الكوخ صباه جرباً  
فيا وطني إن فأتني بك سابق من الدهر فلينع لساكينك البال  
وإن استطعت في الحشر آت بك زائراً وهييات لي يوم القيامة أشغال

وقال أيضاً في مناجاة البرق :

٢٣٥

فهل فيك من ماء المعرفة قطرة  
ترزى بها ظمآن ليس يسال  
فليتسئراً بأن منه لصحبي  
بروقني غزاله مثل قرن غزال

( سنير : جبل بالشام على طريق العراق ، روقي غزال : موضع  
على شط العرب (٩) ) .

إن طبيعة الحياة المستهتره ، في بعض المجالات ، بما فيها من مجالس  
شراب ولهو كانت صفة لحياة مجموعة من الشعراء الشباب ، ولأنت انكساراً  
واسماً في مجالات شعرهم . « فالله أعلم التي بركة قد :

أصبحن بعد نعيم عيش . نوق قفراً ، وبعد نواعم أدغانا (٢)

وإنه لمن الثير أن نلاحظ أن آثار الديار البالية لم تعد وحدها  
الباعث على بكاء الأطلال والديار ، بل على العكس فإن حياة النعم والترف  
واللهو وحياة البذة الشخصية هي التي تثير الكآبة ، وتحرك المشاعر . ففي  
أيام العتصم ، وعندما يكون الحديث حول منازل الخلفاء [القصور] ، التي

١ - المنازل ، ص ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ؛ الأروميات ،  
ج ١ ، ص ٢٦٧ ؛ سقط الزند ، ج ١ ، ص ١٩٨ ،  
ج ١١ ، ص ٤٩ ، ٩٩ ، ٥٩ .

٢ - المنازل ، ص ٩١ ؛ ديوان جرير ، ص ٢٨٠ ( أو المنازل ، ص  
١١٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ) ، شعر جرير .

تعج بالنعم والعيش الرفه ، وزخرف بمختلف أنواع الزخارف ، تبدو أطلال  
هذه المنازل ثابتة دائماً غير بالية :

يا منزلاً لم تبلى أطلاله  
حاشا لأطلالك أن تبلى

ولم تند الأطلال مدعاة للبكاء « لم أبك أطلالك » ، لكن العيش  
في تلك المنازل ، حياة النعم فيها هي « أولى ما بكاه الفتى » . وغسدا  
المكان الذي يؤمن الراحة والعيش هو المكان المأدوف عليه الذي يستدر  
الدموع ، وكان التعلق « بالبنزل » قد غدا تعلقاً بالعيش في ذلك  
المنزل :

يا منزلاً لم تبلى أطلاله  
حاشا لأطلالك أن تبلى  
لم أبك أطلالك لكنني  
بكتيت عيشي فيك إذ ولست  
والعيش أولى ما بكاه الفتى  
لا بد للعجزون أن يسأل  
قد كن لي فيك هوى مرة  
غيره الدهر وما ملأ (١)

فإن زريق الكاتب عندما يتحدث عن فراقه لجيبته في الكرخ ،  
وآثار ذلك في نفسه لا يبكي الأطلال والمنازل ، ولا يصور عينا ، وعدم  
جوابها ، إنما يستحلف « منزل اللهو الذي درست آياته » بالله ، ويسأله :

١ - المنازل ، ص ١٢ ؛ قصة باسم زهم الزامر .

« هل الزمان معيد فيك [ في المنزل . و . ط ] لذتنا ؟ » (١٤) .

إن البكاء على مواقف القليلة ، والاطلال ، وآثار الديار قد تحول عند الشريف الرضي إلى التمني ، ووصف الأزهار الزائلة ، التي تنفوح منها أجنال المطور ، وأروع الروائع ، والتي تنمو على آثار المنازل القديمة ، « الملوحة بزهر الأنصوان الخلاب :

يَقْرُءُ بَعِيْنُ أَنْ أَرَى لَكَ مَنَزْلًا<sup>(١)</sup>      بَنَمَانُ يَزْكُو تُرْبُهُ وَيَطْلُبُ  
وَأَرْضًا بَنُو أَرْوَاقِ الْأَفَاحِي صَقِيلَةً<sup>(٢)</sup>      تَرْدُدُ فِيهَا شَمَالٌ وَجَنُوبٌ<sup>(٣)</sup>

والخطوة الجريئة في تناول الشعري « المنازل والديار » وآثارها يمكن العثور عليها في شعر الكميته بن زيد [ توفي ١٣٦ / ٧٤٣ - ٧٤٤ ] ، إذ إنه يقف ضد المطالع الطالعية ، وبكاء آثار الديار ، ويقايا أطلالها رغم أنها تذكره بسكانها السابقين :

مالي في الدار بعد ساكنها      وإن تذكرتُ أهلها أربُ  
لا الدار ردت جواب سائلها      ولا بكت أهلها إذا غتربوا<sup>(٤)</sup>

١ - المنازل ، ص ٣٣ - ٣٤ ؛ طبقات الشافعية د . ح . ١ ، ص ١٦٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٨ ؛ ديوان الرضي ، ص ٨٠ - ٨١ . [ نعمان : واد كبير الاراك ] .

٣ - المنازل ، ٣٨١ ؛ هاشميات الكميته ، ص ٧٤ .

إن الدعوة الواضحة الصريحة لامتناع عن بكاء الاطلال ، وعن المطالع الغزلية - كما أشرنا سابقاً - إنما ظهرت بشكل جلي في شعر بشار [ توفي عام ١٩٨ / ٧٨٤ - ٧٨٥ ] وفي شعر أبي نواس [ توفي عام ١٩٨ / ٨١٣ - ٨١٤ ] . لكن الطليبي الاول لهذا الاتجاه في الشعر - كما نرى الآن - إنما هو الكميته الذي عاش قبل بشار وأبي نواس بحوالي نصف قرن . إنه يبتنع عن بكاء لا الرسوم وحدها ، بل الديار بأكملها وهذا تأكيد لما ذهبنا إليه من وجود البذور الجينية للتجديد منذ القدم ، حتى في قول عنتره : هل غادر السمراء من متردم .. [ وهذا تأكيديتين على أن الوقوف ضد المطالع وبكاء الديار كان اتجاهاً فرضته ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية بعد أن استقر العرب في المدن ، وبمسودات الصحراء ، وليس بدافع الشعوية فقط عند أبي نواس وبشار كما يرى بعض الباحثين العرب<sup>(١)</sup> . وقريبة من دعوة الكميته دعوة أبي عبدالله بن الحجاج الذي يحث إلى خلانه كما تحث « النيب المطاش إلى الورد » :

« فلا مرحباً بالدار لا تسكنونها      ولو أنها الفردوس أو جنة الخلد »<sup>(٢)</sup>

إلى جانب مناحي التجديد هذه - انشار إليها سابقاً - في تناول موضوع « المنازل والديار » شعرياً ، والتي ظهرت تحت تأثير الحضارة ، وتثير الشروط المادية للحياة في العهد الاسلامي ظهرت معانٍ جديدة أيضاً

١ - الكفراوي ، ص ٧٣ - ٧٧ .

٢ - المنازل ، ص ٣٣٣ .

لألفاظ « دار » ، « بيت » واستعملت هذه الألفاظ بجمانيها الجديدة في الشعر العربي .

إن لفظة « دار » ، مثلاً ، قد امتلكت - بعد ظهور الإسلام - معانيًا إضافية أوسع مما كانت عليه في العصر الجاهلي . المدينة [ مدينة الرسول ] سميت « دار » سكن المؤمنين ، و « دار المحصرة »<sup>(١)</sup> . وبعد ، فإن كل الأرض التي امتلكها المسلمون ، وشاع فيها الإسلام سميت « دار الإسلام » ، ودار الأيمان ، أما أرض غير المسلمين - ودار الحرب ، أو دار الكفر<sup>(٢)</sup> . ولقد دعوا الجنبسة « دار الله » ، و « دار المؤمنين » ، أو « دار السلام »<sup>(٣)</sup> . أما « بيت الله » أو « البيت الحرام » فقد قصد بها « الكعبة » ، و « آل البيت » - وأهل الرسول<sup>(٤)</sup> . وكذلك فإن لفظة « دار » قد استعملت بمعنى « القبر » ، وهذا ما يؤكد الحديث النبوي عن زيارة القبور ، ومعنى « الدنيا »<sup>(٥)</sup> وأطلق على الحياة الآخرة « دار الفناء » أو « دار الهلاك » كما ورد في شعر أبي التماهية .

١ - المنازل ، ص ١٦ .

٢ - H. Krus, Studies in Islam, Vol. VI, No 1, 1965, p.8

٣ - لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٣٨١ وما بعد .

٤ - لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٣١٧ ؛ تاج المروس ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

٥ - هكذا استعملها سعيد بن حميد الكاتب . انظر : المنازل ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ؛ والبرقي ، انظر : المنازل ، ص ٧٤ .

السعادة في الدار [ الحياة الدنيا ] - قصيرة ، والناس يعيشون في « دار الفناء » ، دار الهلاك ، ( الدنيا ) حيث ينتقلون بعدها إلى « دار الأزل » الدار الأبدية » - ( الحياة الآخرة ) .

إن أبا التماهية يدعو الإنسان لأخذ عبرة وعظة من الماضي ، كي يفعل الخير والأعمال الصالحة ، ذلك لأن الحياة قصيرة ، وما هي إلا « دار الفناء » ، ودار الهلاك ، ودار الخسار ، ودار العذاب<sup>(١)</sup> . و « المنازل » المهجورة عند أبي فراس ليست فقط أماكن سكن، ودوراً ، بل إنها أحياناً « جوامع » ، ومراكز العبادة والصلاة ( « فالسجدة الجامع المرومة والمجد عفا » )<sup>(٢)</sup> . وهذا أثر من آثار الإسلام حتى ولو جاء على لسان أبي فراس الذي لم يكن كثيراً متقيداً بشرايع الدين الجديد. وإذا كان أبو فراس قد قصد بلفظة المنزل « المسجد » ، فإن أبا العلاء ، بنظرته النشأومية الفلسفية ، قد قصد بالمنزل « القبر » ، لا ليكيه ، بل ليجمله مكاناً لراحة المروء : « أغفى المنازل قبر يستراح به » .

« داري ، من يقول ، وأعبيدي مئة فالعبيد ثلثنا والدار »<sup>(٣)</sup>

كما استعمل اصطلاح آخر هو « دار القربة » ، الموت - إنه

١ - المنازل ، ص ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ؛ ديوان أبي التماهية ، ص ١٠٦ ، ٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

٢ - المنازل ، ص ١١ .

٣ - المنازل ، ص ٢٣ ، ٢٩٤ .

الباب إلى « الدار - الجنة » ، فسيباً إذا كان الإنسان حقياً ورعاً ، أما إذا كان عكس ذلك فالنار ؛ وحياة المرء في دار الهلاك والحقارة ضعف ؛ والدار - ما هي ، أحياناً ، إلا الحياة الدنيا بكاملها ، التفتيرة المتبدلة .

أما في أشعار الشعراء الذين لم يتمكن نسبهم إلى عصر أدبي معين ، والشعراء الجاهليين ( قال آخر ... )<sup>(١)</sup> فالتناثر على ذات الألفاظ العامة المطروحة سابقاً : « الدار » استعملت في هذه الأشعار بمعنى ( الدنيا ) ؛ الزمان بذهب للإنسان ، وتبقى ديارهم كالسوم . ويعتبر أيضاً على أكلان ونشأت الحنين إلى الدار التي خلق فيها الإنسان ، وعلى النشأت الزهدية ، إذ عبثاً يطلب الإنسان الخلود في دار الفناء ( الدنيا ) ، وما ( الدنيا ) للإنسان بدار إقامة ، وليس أهل الدنيا للناس بأهل ، ولادار الحياة لهم بدار ، والدنيا دار فرقة ومصائب ..

ولا بد من الإشارة إلى ظهور التلاعب بالألفاظ ، واستعمال المعاني المجازية عند ميثار :

« ديار الحَيِّ من خَبْتِ السَّوْى عُدْتُ فَنَأْ بَعْدَمَا كُنْتُ حَقِيقَةً »

( إذ يقصد أن الناظر إلى هذه الدار يشك الآن في مرمقتها ، بعد أن كان يعرفها فوراً ) .

١ - انظر : المنازل و الفصل عن الدار . ( انجبت : ما اطمان من الارض واتسع ) .

( لقد أخذ الدهر قشياً رائئاً من منابها وأعطاهها سحقاً ) . ولقد ظن أن الدهن ستطيق حمل النوى ، في الوقت الذي لم يطق هو ذاته تحمله ، لكنه عندما رآها ناحة كتحوله أيقن أنها مشثاقه كشوقه :

خَلَيْتُ لَمَّا لَمْ أَطِيقْ حَمْلَ النَّوَى أَنْ تَلَّ الدِّمْنَ الصَّمَّ مُطِيقَهُ  
لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ حَتَّى نَحَلْتُ كَنَحْوِي لِئَنَّا مِثْلِي مَشْوِقَهُ  
أَيْنَ جِيرَانِي يَهْمُ لَبْنِي لَهُمْ لَهْفَةً سَكَّرَتْهَا قَيْرُ مُعِيقِهِ<sup>(١)</sup>

وكذلك فإن لفظة « ديت » تستعمل أيضاً بمعنى مجازي ، وإسلامي . كما أن الشعر دل وجبر يستعملان اللفظة بمساعدة المرافقات اللفظية الأخرى الموضحة بمعنى « قبر » - « دار الهجرة » ، « ديت الهجرة »<sup>(٢)</sup> . أما عند ابن الفري فتستعمل بمعنى « الكعبة »<sup>(٣)</sup> . وفي المرحلة التي امتازت بقوة المعصية القليلة ونحوها ( المعسر الأموي ) ، فإن لفظة « ديت » تصادف في أشعار الفرزدق وجبرر بمعنى « شرف القبيلة » :

١ - المنازل ، ص ٧١ ، ٨٣ ؛ ديوان ميثار ، ج ١ ، ص ٣١٧ ؛  
و ج ١٧ ، ص ٥٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٨٥ ، ٣٨٢ .

٣ - المنازل ، ص ٣٨١ .

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائه أعزّ وأطول  
يتأ بناء لنا المليك وما بنى حكم السماء فانه لا ينزل (١)

العناصر الفلسفية والوعظية :

في الشعر الجاهلي - كما هو الحال أيضاً في الشعر الإسلامي - يمكن العثور على عناصر تحمل الصفات الفلسفية والوعظية . ففي توجه الشاعر الجاهلي « لبيد » إلى « الديار والمنازل » مناجاة للديار من وجهة نظر أخرى متأخرة جديدة - إذ لم يكن « الديار » كما بكاه الآخرون ، ولم يكن آفرها وقابلها ، بسبب نظرته الفلسفية إلى الأمور : (لماذا بكاه الديار ، إننا نحن اؤلئك أنما المنازل والديار فهي الباقية ) .

« بلينا ... » وتبقى الديار بعدنا والمصانع (٢) »

ولن يجزع لبيد إن فرقه الدهر عن أحبابه إذ « كل فتى يوماً به الدهر فاجع » ، « وما الناس إلا كالديار » حلها أهلها اليوم ، ولكنها

١ - النقايش ، ص ، ١٨٢ ، المنازل ، ص ٤١٠ .

٢ - يحفظ هنا أثر الجاهلية في المعنى ، فالصانع ما يصنع لجمع الماء نحو البئر والصهر - بـج ، وفي اللسان : مادة « صنع » ، ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها [ ويورد بيت لبيد شاهداً على ذلك ] .

٢٤٤

غداً منهم بلاغ خاوية ، والره كالشهاب الذي يضيء ، وهو ساطع يبدأ بالتحول إلى رماد ، فكأنه بسطوعه يسير إلى هلاكه ، وكذا الإنسان ، وهو يجيا ، يموت ، إذ يقترب من نهايته (٣) .

أما في شعر أبي التماهية فتصادف عناصر الوعظ والارشاد بكثرة : الحياة الدنيا غير أبدية ، إذ إن الموت هو نهاية الإنسان الخمسة ، وكل بيت لا بد وأن يسير إلى الهدم والدمار مهما طال به الزمن ... الخ ... . وسمع أبو التماهية الجميع في مناجاته أن البيت والمثل إلى زوال ، والره في أواخر أيامه كالقوب يخلق بعد جدته ، ومسيره من بعد أنسه بالناس « ظلة بيت وجدته » ، بيت وجدته هو قبره (٤) . إن هذه الصفات التي أشرنا إليها مع عناصر ولسات التجديد يمكن أن يعثر عليها في أشعار البحري حيث يذكر الديار ، لا لبكاه عليها ، إنما ليعطينا من خلالها نظرته الفلسفية إلى الحياة : فمن يزداد عمره يزداد غرقه من مصائب الحياة ، والإنسان الضلال هو الذي يسر « لمسران الديار » إذ إن عمراتها يدفونها من خرابها (٥) . وكذلك التني الذي يصور خراب منازل أقرابه : « أيد غراب الين فيها ينق » ، لا يبكها ، بل يأخذ عبرة من الحياة ، فالأكسرة - من جموا الكنوز - قد فنوا ، وفيتت معهم تلك الكنوز (٦) .

١ - المنازل ، ص ، ٩٩ ؛ ديوان لبيد ، ص ١٦٨ - ١٧٣ .

٢ - المنازل ، ص ٧٣ ، ١٨٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ؛ ديوان أبي التماهية ، ص ٢٤٧ ، ٧٣ .

٣ - المنازل ، ص ٧٠ ؛ ديوان البحري ، ص ٤٧ ، ٤٧٠ .

٤ - المنازل ، ص ، ٨٢ ؛ ديوان التني ، ص ٤٧٨ ، ٤٧٨ .

٢٤٥

## أماكن السكن في شعر القرن الثاني عشر، وخاصة في شعر أسامة وأهله

إن دراسة موضوع الوطن - [ المنازل والديار ] في شعر القرن الثاني عشر، وفي أشعار بني منقذ، وخاصة في شعر أسامة تعطينا إمكانية توضيح تطور أنغام وألحان معاملة أماكن السكن، مع تطور مفهوم الوطن، وتعطينا الأساس لتتبع بحث ودراسة هذا الموضوع في شمس المراحل اللاحقة على امتداد المصور حتى أيامنا هذه.

لم يكن ذكر الديار عند القاضي المذهب - عصر أسامة - للبقاء على على ما فيها، ورسوما، إنما وسيلة لآثاره مشاعر الشاعر تجاه الديار وأهلها، فخيال أحبة ثابت أبداً أمام ناطريه، وذكرهم قلقة في قلبه. وهو، وإن بكى، فأنما يبكي من الحنين والشوق:

« وإلى دياركم نحن صباية ونقض أوعية الدموع ونرسل (١) »

ولن نطرق بحسب تلك المنازل إلا ونسكب دموعه مبهرة من حنين إليها.

ويستمر على الشاعر الصادقة أيضاً في شعر طلائع بن

١ - المنازل، ص ٦٧.

رزيك (٢)، الصديق الجيم لاسامة الذي تناهت إليه أخبار نكبة بني منقذ، فلا حول ولا قوة له إلا أبيات شعر يضمنها صدى حبه، وتأثره، باكياً حيناً، بمشاركة وجدانية صادقة، مواسياً أحياناً، جاهداً نفسه لإيجاد المزاء لخراب (ديار بني منقذ) - بلدهم شيزر، عن بكرة أديها، وبشاعر بسيطة واقعية، وألفاظ توحى بالوعة يعبر عن عظم المعية لدمار الأهل والديار:

لهف نفسي على ديار من السكنا ن أقوت فليس فيها عرب

تلك الديار التي كثيراً ما حلها الزبلاء، فطليب لقباً أهلها، وحن مشعرهم، أنتمهم حتى أوطان صباهم وأهلهم. وليس لاسامة - حسب قول ابن رزيك - إلا الصبر على حادثات الدهر إذ: « حكمه الجور والعدل وفيه الكروه والمحبوب ». وإن تخصصت الثواب آل منقذ فألها تأخذ العقلاء المتقدمين، كالفن في ساعة الزرع « تكسر منها صدور وينقي كموب ».

وعندما يتناول والد أسامة الحديث عن الديار - ربما ليظهر براعته في هذا المجال، ومجاراته الأقدمين ومباراتهم، إذ لم تكن النكبة هي المانع لشمره هذا، حيث توفي قلبها بدة - فهو في غالب الأحيان لا يخرج عن مناحي مناجاة القدماء. فلا يلوم الواقع على الديار على وقوفه، بل يدعو بصيغة الأمر: « فأفرض شؤون العين » للبقاء على « أربع

١ - المنازل، ص ٨٠.

درست ، ولم يبق منها للناظر أي مجال للتمتع والنظر لولا هواء  
الذي شغفه ، وبما في القدمين في التعبير لكن بأسلوب انبالة . فقد شبه  
البابي بالحمامة « كهاثة تنوح وتسبح »<sup>(١)</sup> . والوايون لا يبيدونه  
شيئاً ، ولا ينفونهم من لوحة كلثة في النفوس ، ذلك لأن مقدار أسفه  
وحسرتة - حتى ولو تقطعت منه الأحشاء - يبقى قليلاً تجاه شوقه لها .  
وعلى كل حال فله عنده - على حد تبيره - في البكاء لأنه الحي الباقي  
المعذب بعد الديار المهلكة الدارسة . إذ قد رغب بجملة جملة مع الاحباب  
في الديار ؛ فان لم تكن فراحتهم فأبوت تؤمن .

وكذلك الامر في شعر أقرىء أسامة [ جده ، وحمه ، وأخيه ] .  
« فالدار » هي « دار الاقامة » ، إنها « دار الثعالب والتصافي » ، « دفاها  
كل منهم » عزيز رائع ناد .

« والعيش بعد الاحبة لؤم » . وتقرن عندهم الدار بالاخوة والاهل  
ونوي القرى :

يا إخوتي ونوي ودي وخالصتي حزني عليكم مدى الأيام متصل  
إن ديارم التي كنتم فيها كشمس النهار خلت وأقترت ، لأن الزمان  
لا أمانة له : « ولا تنوم به الأيام واليول »<sup>(٢)</sup> .

وما اللفظة في أشعار بني منقذ إلا واسطة التعبير عن مشاعرهم ،

١ - المنازل ، ص ٧٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٥ ، ٦٦ .

وآلامهم المبرحة . فشاعر الالم والحزن هذه تظني على جميع الشعائر  
الآخري في شعرهم . وانكس [ تراجيدنا ] بني منقذ وتخييصها في هذه  
المصطلحات « دار » ، « بيت » ، « منزل » يظهر أيضاً بشكل خالص في  
أشعار علي بن مرشد - أخي أسامة ، وبشكل واضح في أشعار أسامة  
ذاته .

لقد تأخر علي بن مرشد عن أسامة وأخويه اللذين خرجا إلى  
دمشق ثم مصر ، وأسف كثيراً لبعدهما ، وخلو منازلها منها . وبما طقة  
الابن الذي فقدناه ، والابن الذي تأسف فرقة أخوة الذين كلفا في حكم  
المنفيين نتيجة قرار حمه بتركهم مسقط رأسهم شيزر ، بهذه العواطف  
الصادقة الاليمية بكن منازلهم الخالية منهم دموعاً صادقة :

« فاسق الربوع من الدموع سجالها إن الرسوم لها عليك رسوم »

ولست المنازل عنده صماء بكاء ، بل ناطقة تحيب [ وعظاً باللفظ ] ،  
لأنها كانت شاهداً عياناً على اسطراح ( آمال ساكنها مسع الناي ) ؛  
ساكنها بني منقذ ، الذين رغم إن الدهر فرقهم عنه : « فهم نفسي بكم  
ماعتت مجتمع » .

إنه يبكي الديار ولا يجنسى في هذا لومة لائم « فبل بعد الديار  
أكرمتم »<sup>(١)</sup> ، ويتذكر ماضيه في الديار مع أهله . « إخوان صدق كالثريا  
نفوسهم ممت » ، لاحقد في نفوسهم ولا شغفة ، بات بيوتهم مسروراً لاهم  
لديه ولا غم « حيث » « الربع للشمع جامع » ، ولكنها الكارثة قد  
حلت فغيرت كل شيء :

« أفترت منهم الديار وأصحت دارسات كأنهن رقوم »

ولم يعد له ، وهو المزهون ، إلا البكاء والمذكرى ، حتى إذا تذكر ظن وكأنه حلم ، يمتنى الموت « فبعثي بعد الاحبة لؤم » ، ولياليه طوال من الارث والسهاد والحزن والالام ، ومن البكاء والتذكر . إنه يعتب على الزمان ، ويواسي نفسه بأن لا حول ولا قوة أمام القدر (١) .

أما أسامة فهو ذلك الشخص الذي يحب وطنه ( شيزر ) حباً كبيراً ، وأهله ، بالرغم من أن بعض القرينين الأقرباء غاصبوه السداء ( عمه سلطان ) . وشمره هو ذلك الشعر الذي يفيض حزناً وأسى ، ويقع بهواطلف الألم والبرارة والصدت ، دون تقليد متقدم ، أو وصف قصر عز ونعيم ، إنما هو شعر صاحب الرزية الذي ابتلي بالمصائب ، هو ذلك الشعر الذي أنطقته المصيبة بشوق إلى منازل عاش بحكم المنفى عنها ، بعيداً ، وعاد إليها ليجهدها هباءً مشوراً ، كأن لم تكن بالأس . لم يبق منها حتى الاطلال يبكيا ، وحتى القريب يواسيه في المصيبة . هذا ما يشير إليه أسامة إذ يقول : « قلت : لي على ما تقدم ذكره من الشراء فضل الرزية ، إذ كنت دونهم صاحب الرزية ، وإن كنت وهم كما قال فر لأبيه : يا أبة ! ما لك إذا تكلمت أبكت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ قال : يا بني ! ليست الناحجة المستأجرة كالكافي » (٢) .

١ - المنازل ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٥ ، ٦٦ .  
٢ - المنازل ، ص ٢٥ .

إن أسامة بصور الكارثة السامة التي حلت بأهله ( بني منفذ عامة ) ، وبنزلهم حيث كانوا فيها د في نعمة محروسة » [ المزر كان مقترنا بالسيف والمال مقروناً إلى الكرم ] ، كانوا كالأسود في عربتها ، وصيبوا على كل ذي ملك ، وذي قلعة :

« ما سهاها ذو ملك ، ومن الذي يلبح العرب على الهذير الخادر ؟ » (١)

لقد كان وقع الكارثة كبيراً على أسامة ، وهو الانسان الذي أحب شيزر ، وجعلها محطة يبرها كلما سبحت له الفرصة ، تزي فيها ، وأخذ كل عدته للحياة منها - الثقافة ، والحريية ، والسياسية - ، وإذ بالكارثة تقضي على كل شيء : على ذلك الماضي الجميل بما فيه د ديار الهوى ، التي كانت « أفقا للأسود » ، وغياباً للبهف ، وذخراً للفقير ، وعلى ساكنيها « الانهم الزهر » ، أما عصرها - ف د فصل الزبيح نضارة » . وإذا بالكارثة تقضي على عشرينه بني منقذ ، الذين لم ينقذوا من زمانهم ، « وكم أنقذوا من مرهق وأسير » ، فتدو الدار وقد خلت من أهلها ، وتوحشت ، يملوها البلى ، وتنفو رسوماها ، فلم يعرفها بالرؤية البصرية إنما بالرؤية الروحية « أنكراها طرفي وأثبتها القلب » . لقد أصابها العسر الحتم الذي أهلك كل من فيها . وحول شائخها إلى رسم دارس ، ولم يبق منهم إلا الحديث عنهم « كما تحدث عن عائر وعن إرم » ، وآثارهم عظة لمن يتوسم :

١ - المنازل ، ص ٢٧ .

أنظر منازل آل منقذٍ إليها عظة اللبيب ، وعبرة للناظر

وتبلغ الحسرة ذروتها ، والصدق غاية في مقطوعته حيث يبكي  
دياره ، وبكاء أي إنسان داره وأهله إنما يكون سبباً لبكاء أسامة أهله  
وأوطانه وخاصة وقد غدا بلا دار ولا سكن :

إذا بكى لديار باد ساكنها ذو وحدةٍ ساء في داره الزمنُ  
بكيت أهلي وأوطاني وأسفني أن ليس لي بعدهم دار ولا سكنُ

لقد قفى الزمان على قومه أجمع ، وملك أوطانه سواهم ، فنسدا  
شريداً غرباً ، لا يجد من يشتكي إليه حزنه إن حلول الشكوى :

أخنى الزمان على قومي وملكت أو طاني سواي ، فلا أهل ولا وطنُ  
ولم تدع لي المنايا مشتكى حزنٍ أبش كمدني إن عادني حزن  
والبون شامع بين ماضيه وحاضره ، فما أجمل ذلك الماضي ، وما  
أقبح هذا الحاضر :

يا حُسن أول ذلك الدهر الذي قد كان فيك وقُبِحَ هذا الآخر !

لقد عفت هذه المنازل - منازل بني منقذ - لكنها ، إن سألتها  
عنهم :

تخبرك أن الأرض قد وارتهمُ وأبت لهم أن يسموا أو ينطقوا

كان وقع السكرانة عظيماً على أسامة ، فلا يبكي الديار بقدر ما يبكي  
أهل الديار ، وكارثة فريدة من نوعها ، فقد غدا بلا دار ولا أهل ،  
ولم الديار إن لم يكن الأهل فيها :

وماذا اتفاعي بالديار وقربها إذا أقفرت من كل من أنا ألف  
وبيني أهل الدار قراء :

وقالوا : أبتكي للمنازل ؟ اقلت : لا ولكننا أبكي لأهل المنزل (١)

لقد نظر إلى دار الاجة الفقراء التي لم يبق لها إلا الوجد والشين  
فبكى ، ورأى سجيته هذا ، فشاركه بعضهم ، وعنه بعضهم الآخر :

وقالوا : أفق ، للأرض تبكي ؟ فقلت لا

ولكنني أبكي لمن وارت الأرض

وبكى حيناً آخر المنازل وأهلها ، وشابهه الضائع ، ويعبر عن هذا  
بإستفهام العارف المؤثر الحزن ، يعبر عن حيرة مؤلة ، ووجد قائل :

أبكىك ؟ أم أبكي زمانني فيك ؟ أم

أهليك ؟ أم شرخ الشباب الزائل ؟

من شدة الوجد والاسى ، وفقدان الحيلة أمام الكارثة الروعة ، لا يبقى أسامة على فعل شيء ، وهو كائن مؤمن يتوجه بشكواه إلى الله ، إلى الله ، عليه يحد في ذلك مواساة لروعته ، لمنزله ، ووجدته على أهل تلك المنازل . والتوجه إلى الله عند المؤمن غاية المظاف .

إلى الله أشكو روعتي لمنازل      شئت ، وجوى قلبي لأهل المنزل  
ويدعو أسامة الباكي على الديار « دموعاً تسجم » أن لا يقف عليها لأنها بكاء لا تجيبه شيء عن أهلها :

ماذا توقفت في الديار مسائلاً      عن أهلها ، ومتى يجيب الأبيكم؟!  
وأخذت المنازل على أسامة كل دموعه ، وأفقدته صبره ، وجملته في رقاد مستمر ، فلن لم يبكيه فكانه غدر بهد من سكنها . ويدعو لها بالسقيا - سقيا المطر - كمادة الشعراء الرب « وسقياك وطفاً » ، وببكيها دموعاً مكررة تفوق غزارة المطر ، إذ إنه لا يريد أن يحمل هذه الأطلال منه السحاب :

أأهل الأطلال متة عارض      وسحابٌ دمعي مستهل ماطر؟!  
لا يبكيها دمماً قط ، بل لشدة الألم والحرقه يدعو إلى البكاء عليها دمماً :

فأسفح دموعك في ثراها أو يمازجها الدم

١ - المنازل ، ص ، ٢٧ ، ٢٦ .

وينسها أحياناً ، ويدعو لها بعدم السقيا [ على غير عادة الشعراء الأقدمين ] طالما أنها أقفرت من أهلها :

وما كنت أهوى الدار إلا لأهلها      وبعدمهم لا جاد ساكنها القطر  
فما الدار تلك الدار بعد قطينها      ولا الدهر فيها بدمهم ذلك الدهر  
- « لا جاد بملك من ديار أقفرت » من أهلها صوب الغمام المطر »  
أصبحت حياته بعد أهل بنون معنى : فلم أحظ بعدم من البش الطويل بطائل ، وصعب عليه العيش ، قمتى الحاق بهم : « أرجو الحاق بهم » . إذ لا شيء يزيه لنقدم ، ويواسيه :

وإذا فرغت إلى العزاد دعوت من      لا يستجيب ، ورمت نصرة خاذل (١)  
ويود أسامة ليواسي نفسه طالما أن مواساة الناس خالصة لا تجدي ، فهذه باعتقاده - سنة الكون منذ كان الكون ، بدتني وأخرى تدم :  
هي شيمة الأيام : كف تبنتي      - مذكنت الذي لو كف تبتم (٢)  
وكان واعياً للصبر الحتم إذ يخاطب صاحبه :

ما أنت أول من تاهت داره      فعلم قلبك ليس تحيو تاره؟!  
إما السلوا والحمام وما سوى      هذين قسم ثالث تختاره (٣)

١ - المنازل ، ص ، ٢٦ - ٢٨ .

٢ - المنازل ، ص ، ٢٦ .

٣ - المنازل ، ص ، ٣٠٢ - ٣٠٨ .

والموت عند أسامة معبر كل انسان ، ورحلته تنتهي إلى تلك  
القبور التي انتهت إليها عشيرته :

وغداً تقيم حيث جئوا في القبور وخيموا<sup>(١)</sup>

فالنازل والدار عنده محددة ، إنها منازل آل منقذ الكائنة في  
شيزر ، أساطيرها كائنة ، وهزها الزلزال فدمرها بكاملها . وكل كلمة قلها  
أسامة في هذه الدار كانت تنفيصاً وحرقة وحسرة ، لأنها مسلوان عن  
مصايبه وأهله .

١ - النازل ، ص ، ٣٩ .

## ٢ - المعنى الواسع لمكان السكن

( المغاني والربوع )

تستعمل في اللغة العربية أيضاً بعض الالفاظ التي تثبت معنى  
أكثر اتساعاً وشمولاً ، وتدل على رقعة من الارض أكبر ، حيث ينتشر  
عليها أكثر من منزل أو دار أو بيت أو خيمة . هذه هي :

أ - « المغاني » :

« المغاني » جمع ، مفردة « مغني » ، و « المغني » : المنزل الذي  
كان به أهله ، وقيل : المنزل الذي أقام به أهل ، أو الذي أقام به أهله  
ثم رحلوا<sup>(١)</sup> . « والمغني » مصدر واسم مكان من الفعل الثلاثي « غني » بمعنى  
[ أقام ] . قال الراغب : غني في مكان كذا ، إذا طالك مقامه فيه مستقراً  
به عن غيره<sup>(٢)</sup> . وتأني « غني » بمعنى [ عاش ] [ نقله الجوهري ] ، وبمعنى  
( بقي ) : غنيت لك مني مودة = بقيت ؛ وبمعنى ( كان ) ، إذ يقال لثني  
إذا غني : كان لم يبق بالأسس ، أي كان لم يكن . وغنيست المرأة

١ - لسان العرب ، ج ١ ، ص ، ٣٧٢ وما بعد : تاج العروس ،  
ج ١ ، ص ، ٢٧١ وما بعد .

٢ - انظر هناك أيضاً .

زوجها غُشيّاً وشاءاً ، أي استغنت به عن غيره . ومنه اشتقاق التائية .  
ولأنني عنك : أكفيني شرك .

#### ب - « الربوع » :

« الربوع » جمع ، مفردة « ربع » ، « والربيع » المنزول ودار  
الأقامة والوطن متى كان وبأي مكان كان . « ربع القوم » : محلهم ،  
وجمه ( أربع ، رباح ، ربوع ، أرباع ) . يقال : أراد بيع رباحه ،  
أي منزله ، ومنها ( الرباع ) : الرجل الكثير شراء الرباع وهي المنازل .  
« والربيع والربوع » جماعة الناس . « والربيع » مشتقة من « ربسبع »  
بالمكان يربس ربعاً إذا طمان وأقام ، والاصل « ربع » : أقام في الربيع ،  
ثم أطلقت على كل إقامة ، وكل وقت حتى سعي كل منزل « ربعاً » ،  
وإن كان ذلك مختصاً في الأصل بالربيع . « والربعة » أخص من الربيع ؛  
( وهي قسم من المنزل تشبه « المنزل » )<sup>(١)</sup> .

#### العناصر التقليدية :

في التوجه إلى المغاني والربوع كما عند الشعراء الجاهليين ، كذلك  
عند معظم الشعراء في المراحل اللاحقة ، نعت على نفس تلك العناصر  
التقليدية التي أشرنا إليها سابقاً . فأماكن السكن الواسعة - نسبياً - مقفرة ،  
معفاة ، والربيع ... قفر كأنه لم يلبه في ساحته سامر ؛ « قد ألبس

١ - لسان العرب ، ج ١ ، ص ٤٥٥ ؛ تأج العروس ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

ثوب إلى ، حتى إن علاماته أو آثاره خلقة بالية . بعد أن كان قبل  
الكارثة التي حلت به : « يسحب من بهجته الناظر »<sup>(٢)</sup> .

إن هذه المغاني والربوع خالية من الأهل ، ومسكن الوحش  
والطيور ، وملعب الرياح ، ومدعاة البكاء . وهي أحق بقلب الشاعر « وإن  
هجن لوعة وزفيراً »<sup>(٣)</sup> .

لم يبق من هذه الربوع غير الأثافي ( حجارة القدر ) الثلاثة  
المتدمة التي تشبه ثلاث حمامات سود متلاصقة بالأرض ، بلا حركة ولا  
حرك ، ولا شيء يخبر عن العيش الجليل في الربيع . البهيج البديع  
- فيما مضى - ، حيث « الحلي المخلول ببلوة » عاشوا فيه بنعيم ورخاء<sup>(٤)</sup> .  
« إن قشيب ربهم يريس » ، « حبس على البلى » ، فحبس الشاعر  
دمعه ، وشدت « ربوع الربيع موحشات » ، بعد أن كانت مأفوفة ،  
مأفوسة ، إذ حقق الفراق مراده في الربيع الذي ارتحل مكانه ، فإلام  
الشاعر في الوقوف ، لأنه يسأل الربيع عن خيرهم . لم يدم في الربيع  
العيش المرفه السابق بل إن الرياح في هبوبها السريع قد أثرت على هذه  
الربوع فقيرتها « هربت بعدي » : « إن ربيع موسم انبذات قد غالته

١ - المنازل ، ص ١٣٩ ، شعر حفص .

٢ - المنازل ، ص ١٠٦ - ١٠٨ شعر مهيار .

٣ - المنازل ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، شعر ذي الرمة  
والبحري .

النوى قدما لأصاية موسماً<sup>(١)</sup> .

« المتفاني » و « الربوع » عند الشعراء العرب واسطة البكاء على الأوطان والأهل . وتذكر هؤلاء الأهل ، وهذه الأوطان يـقـود بدوره إلى تذكر الحياة الماضية السعيدة ، ويصور الوضع المؤلم المر الحالي : « أشجاك الربيع أم قدمه ؟ »<sup>(٢)</sup> .

ويستفهم الشاعر عن سبب حزن صاحبه : « أشجاك الربيع أقوى والديار ؟ »<sup>(٣)</sup> . وينظرة ألم وحزن إنهمته المتفاني كل شيء : المزمع الغابر والحاضر المرير . ويلوعة مريرة لفقد جماعته من إخوانه يدعو بالمرض والسقم لكل عين تنظر الديار :

« أي عين أصابت الدار أفدى الله بعدي أجفانها وأضرا » .

وبكاء المتفاني ليس ينرب على الشاعر ، إنما الغريب أن يعيوا عليه ووفاء من يحب ، فكل عاشق يبكي عندما يطالع منى أحبه :

كأنني أول عاشق طالعه منى الأحية فأرفضت مدامه<sup>(٤)</sup> ؟

والربوع والمتفاني لا تزد جواباً إذ :

١ - المنازل ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، شعر أبي تمام .

٢ - المنازل ، ص ١٤٦ ، شعر طرفة .

٣ - المنازل ، ص ١٣٨ ، شعر الفند .

٤ - المنازل ، ص ١٠٦ - ١٠٨ ، شعر ميار .

لو أن ربما راجع القول قبله لرد السلام ربوع سمدى وسلماً<sup>(١)</sup>

والرباع الشديدة الهاتجة تصنف في هذه الربوع والمتفاني - دورياً - : رباح تنثر الزمال فليس الربيع ثوباً أبيض قشياً ، وأخرى تنذري تلك الزمال ، فتسجل عنه هذا الثوب القشيب .

من الضروري أن نشير إلى أن « الربوع » و « المتفاني » عند الشعراء المذريين مقرونان باسم المحبوبة ( ربيع عزة ، مغنى بينسه ) . وإن كان جميل<sup>(٢)</sup> قد عبر في أبياته عن ذلك بصورة غير مباشرة ، إذ إن الربيع الذي كان يسكنه لم يعد يزار « وكيف يزار الربيع قد فارت عامره » ، « أنصرم هذا الربيع أم أنت زائرته : ففي لفظة [ هذا ] تحديد للربيع ، فإن كثيراً<sup>(٣)</sup> يجد هذا مباشرة إذ يقول :

خليلي هذا ربيع عزة فاعقلا فلو صيكناهم أبكيلا حيث حلت

وخلو الربيع من عزة كان الحرك لأحزان كثير وبكائه ، ومن العجب اضطراب قلبه على الفراق الذي لا يرجى بعده لقاء ، إذ إنه كالرثي ظل النمامة ، كما أراد القدوة تحتها زالت وانقضت ، أو كحسابة رجاءها المعجل أن تسقط عليه لكنها لما جاوزته أمطرت .

١ - المنازل ، ص ١٥٣ ، شعر نصيب .

٢ - المنازل ، ص ١٤٦ ، شعر جميل .

٣ - المنازل ، ص ١٤٧ ، شعر كثير .

أما عند أبي ربيعة فإن الربيع والمنى مرتبطان لا باسم امرأة  
عددة ، بل « بربيع الحى » ، - حيث عاشت عدة نساء ، كان قد  
تنزل بهن .

#### عناصر التجديد :

إلى جانب العناصر التقليدية هذه ، وبصورة خاصة بعد ظهور  
الإسلام ، يلاحظ تجديد وانع في مجالسة وتناول المنان والربيع .  
إذا فتر على تناول الادي - الشرعي الجديد للربيع عند قبيصة المهلي (١) :  
إنه يصف ربيع مدينة حضرية ( واقعة في الرصافة والكرخ ببغداد ) ،  
لا أماكن تقليدية منتشرة في الصحراء القاحلة ؛ القوى المؤثرة [الرياح]  
ليست عاصفة ، مذيبة للرمال ، إنما هينة لينة ، ناعمة لطيفة المهبوب ؛ لم  
يصور نوباً وأثافياً وأطلالها المافية ، بل صورها تبين بالروائح الطيبة ، وتفتح  
فيها الزهور فهي كالدار أليم الربيع :

إذا ما كساهن الربيع رباطه تارحين مسكاً أو فضاحكن عن در

وإذا كان الشعراء غير قادرين على التحكم بدموعهم عند رؤيتهم  
بقايا الربيع المافية فإن هذا البكاء عند البحري إرادي حسب مشيئة ،  
إنه طريقة مصطنعة :

إذا شئت أجزت آدمي من شئتوها ربيع لها بالبرقين وأرسم

١ - النازل ، ص ١٤٠ ؛ المخطوطة ، ٨١ ب .

ويدعو المطر للسقوط في الحل رغم إقواء « منانيه » ، ويوحى لنا  
أحباء بمن الماضي ، حيث أن « الألام » الحالية « والباقي » ، « ويضحكن »  
نيابة عن ألبمه وليلاليه الماضية ، وهذا كتابة عن فرحة الشئ الماضية .  
لقد تغيرت عند البحري صفات الجوى المناجاة فندت - تحت تأثير تجديد  
العصر [غانية] ، وهذه صورة من صور التجديد عند الشاعر .  
والمنان عنده لم تصف من الأهل والأقرباء ، كما إنه لا يمن إلى هؤلاء ،  
بل إلى [النواني] ، النواني كن في هذه الدار ، حتى إن المطر الذي  
لا يشعر بالألم والمذاب يبي على هذه النواني « وإن كان خلياً » من كل  
ما يمانيه الاحبة . جاء النث بنفسه على هذه المنان فأكسبها « حلاجة  
الاولان » (٢) . والمنان لم تقو لرحيل أهلها فقط ، إنما أقوت لدم وجود  
الشاعر فيها أيضاً : « شهدت لقد أنوت منانيكم بمدي » ، ويخص  
الشاعر السقم بالسلم والنجاة دون الأطلال [أطلال المنان] التي لا يتركها  
في وجوده وبكائه :

« فليبه السلام لا أنترك الأطلال في لوعتي ولا في نحيبي ، ويصرح  
أنه ليس ممن يقف على الأطلال ، وسواء عنده أن يجيب من غير أن يدعى  
أو يدعو من لا يجيب :

« فسواء إجابي غير داع ودعائي بالفقر غير مجيب (٢)

١ - النازل ، ص ١٠٠ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ؛ ديوان البحري ،  
١١ ، ص ٣٢١ ، ٢٨٥ .

٢ - النازل ، ص ١٠٣ ؛ ديوان أبي تمام ، ١ ، ص ١٢٢ .

من عادة الشعراء العرب اللجوء بالسقيا لذيول اللاحية ، أما المتنبي فإنه يدعو على الربوع بالعطش ، ويسأل المطر إن لم يعطشها فقلبه أن يسقيها سماً قاتلاً ، ويدعو على كل ما فيها عدا ما كان له فيها من زمن الانس ووصف الخلود . . وليست المثاني عند الشاعر بقايا مساكن القوم الذين رحلوا ، إنما هي أماكن الإقامة المسكونة ، التي لم يرحل أهلها . إذ إن « مثاني الشب أطيب المثاني » ، وهي بالنسبة للأرض المحيطة بها « بمنزلة الربيع من الزمان » نضرة ، خضراء . إنها مثاني « مرسدة » تقي فيها « الجنان الورق » وتردد أصداء غناها « القيان » الحسانوات الجليات (١).

التناول الأدبي الشعري الجديد لموضوع « المثاني والربوع » نمسّر عليه أيضاً عند المري . فالنبي عنده لم يقتصر على المعنى التقليدي فقط ، إنما هناك « معنى من خيال » الحبيبة « خلال » . إن هذا نوع من التعبير والاستخدام الجديدين ، وفيه كتابة عن التفكير الدائم بالمحبوبة . والمري من خلال حنينه لحبيته ( المزعومة ) ، وهم مقيم في بندا - دار السلام ، يحن إلى وطنه - مسقط رأسه المرة - . فإن فرق بندا - دار وأهلها ، ورحل ، وإن اشتاقوا إليه ، وسألوا عنه طيس عنده سؤال عنهم ، ولا شوق إليهم ، لأن شوقه كله منصب نحو أهله ووطنه ، لا يبدل بهم غيرهم :

متى سألت بندا - دار عني وأهلها فأنى عن أهل العواصم سأل

شوقه لأهله ووطنه لا يفارقه ليل نهار ، يكابد ، ويسألني منه

١ - المنازل ، ص ١٠٥ ؛ ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ٤٨١ .

دائماً ، فما بلاده أفضل من ماء دجلة ، وأنفع وأمرأ ، وإن كان ماء دجلة صافياً عذباً لذيذاً :

وماه بلادى كان أنصح مشرباً ولو أن ماء الكرخ صهبا جريالاً

ويتناول الربوع بتحديد لم يسبق إليه ، إذ بتخاطبته حبيبته بصرح بأن الواجب يقضي عليه بتحيةة ربهيا ، لكنه لا يجيبه هذه المرة تحية تقليدية بالدعاء والسقيا ، بل كما يحبب الملوك ( ملوك المعجم والعرب ) . يعظم الربيع ويكرمه كتعظيمه ركن الكعبة والحجر .

«أفر ربيع كنت فيه كأنها أمر من الاجلال بالحجروالركن» (١)

في قفا الربوع تعيش الضياع :

«ورباع كانت عربين أسود أصبحت للضياع مأوى ومعنى» (٢)

إن هذه الصورة إنما تجعل شيئاً جديداً بالنسبة «لالملاقاة مع الربيع ، ذلك لأنه لا يثر على الضياع في الحالات المشابهة عند الشعراء الآخرين .

١ - المنازل ، ص ١٥١ ، ١٤٣ ، ١٠٥ ؛ سقط الزند ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

٢ - المنازل ، ص ١٤٩ ؛ شعر المرتضى .

### ٣ - بقايا أماكن السكن

المعاني اللغوية :

آ - « الطلل » : ما شخص من آثار الديار بخلاف « الرسم » :  
مكان لا صفاً بالأرض ، و « طلل » كل شيء شخصه ، جميعاً « أطلال  
وطلول » . وفيقال : « طلل الدار » موضع من صحنها يبيتاً للجلس أهلها  
كالأكانة يجلس عليها ( دكانة : مصطبة ) ، عليه القرب والناكل . ويقال :  
طلاك وأطلاك : أي : دكانة شخص من جسدك . وطلاك وطلاكك : أي  
شخصك ، وأطلال السفينة : أشرعتها<sup>(١)</sup> .

ب - « الدمن » جمع مفردة « دمنه » . « والدمنه » : آثار  
الدار والناس ، وما سودوا من آثار البقر وغيره ، و « الدمن » : البر  
أو الزبل المتلبد ، ومنه دمنت الماشية المكان تدميناً : بعث فيه وبسات  
قوى متدمن . ومنه القوم الموضع : سودوه وأزوا فيه بالبحر ، قال ذو  
الرمة :

منزلٌ دمنته آباؤنا الـ مورثون المجد في أولى الليالي

ومثلها « الدمان » بمعنى الرماد أو الزبل أو غفن النحلة وسوادها

١ - لسان العرب ، ج XII ، ص ٤٣ ؛ تاج العروس ، ج VII ،  
ص ٤١٩ .

« والدمنه » أيضاً : الموضع القريب من الدار . قال الرسول : « إياكم  
وخضراء الدمن » أي الرأه الحناء في منبت السوء . وقال زفر برت  
الحارث :

وقد نبت المرعى على دمن الشرى وتبقى حزازات النفوس كاهي

ومن الجاز « الدمنه » : الحقد القديم الثابت الدمن للصدر ،  
وقيل : لا يكون الحقد « دمنه » حتى أتى عليه دهر ؛ ومنه « دمن  
عليه » : حقد .

ومن الجاز أيضاً : دمن فلان المكان تدميناً ، إذا غشيه ولزمه .  
قال كعب بن زهير :

أرعى الأمانه لا أخون ولا أرى أبداً أدمن عرسه الدار

ومنها « دمن الحرة » : شاربها وملزمها<sup>(٢)</sup> .

ج - « الأثر » : هو بقية الشيء ، أو ما بقي من رسم الشيء ،  
وجمعها « آثار وأثوز » . « آثار المنزل » : بقاياه ، « والآثار » : الأعلام  
يستعمل بها . ومنها « أثر السيف » : ضربته ؛ « وأثر الجرح » : ما يبقى  
بعد برئه . « أثر » في الشيء ، أي ترك فيه أثراً ، ومنه الأثره من  
الدواب : أي المطيعة الأثر في الأرض يخفها . وتأتي « الأثر » بمعنى الأجل ،  
الموت ، ذلك لأنه يتبع العمر . قال زهير :

١ - لسان العرب ، ج II ، ص ١٤ ؛ تاج العروس ، ج I ،  
ص ٣٠١ .

والمرء معايش محمود به أمل لا ينتهي المعر حتى ينتهي الآخر<sup>١</sup>

وأصله من «أثر» مشبه في الارض ، فإذا مات لا يبقى له أثر ولا يرى لأقدمه ذلك الآخر . «والأثر» : سمة في باطن خف البعير يفترق بها أثره ، وجمها «أثور» . «والأثر» : بمعنى الخبر ، جمها «أثرة» . ومنها «الأثر» : الخبر ، وهي اسم فاعل من الفعل أثر الحديث عنه أي أخبر . «وقول مأثور» أي يخبر الناس به بعضهم بعضاً وينقلونه وهو اسم فاعل من الفعل المذكور . ومنه «المأثرة» : المكربة ذلك لأنهم يأثرونها أي يتحدثون بها . «وأثره العلم» : بقية منه تؤثر أي تروى وربما تفضل<sup>(١)</sup> .

د - «الرسم» : هو الآخر ، وقيل : بقيته أو مالم يق بالارض منه ، «رسم الدار» : ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض ، وجمها «أرسم» ورسوم ، «وقلبها» رسم . «رسم الثوب الدار» : غفاه وأبقى فيها اثرًا لاصقاً بالأرض ، «ورسم في الأرض» : غاب فيها ، وبكى بها عن الموت ، ورسم على كذا : بمعنى كذب . «رسم الرسم» : نظير إليه بمعنى «وترسم» : نظر إلى رسوم الدار بتأمل «تفرس» . قال ذو الزمره :

أأن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصباية من عريك سسجوم

١ - لسان العرب ، ٧ ، ص ٦٠ ؛ تلج العروس ، العروس ، ٤ ، III ، ص ٤ .

ومن الجار : «رسم» القصيدة : أي نصرها ودرسها وتذكرها ، ومنها : ثوب مرسوم : أي مخطط بخطوط خفيفة ، وثيقة رسوم : تؤثر في الأرض من شدة الوطء . ويظهر الاسلام اكتسب الأصل معنى إضافياً ، فارتسم الرجل : «أي كبر ودعا وتمود» ، والارتسام : التكبير والتودد ، «ورسوم الدين» : طرائقه التي تبقى ، «ورسوم الخلافة» : عاداتها التي توارثت<sup>(١)</sup> .

هـ - وهناك مصطلحات أخرى منها : العهد ، جمها «معاهد» . و «العهد» اسم مكان من الفعل «عبد» الذي عيدا بمعنى عرف ، والعهد : هو الموضع كنت عبيته أو عبيدته هوى لكفيه أو شيئاً ، وأيضاً المنزل الذي لا يزال القوم إذا اتأوا عنه رجعوا إليه . ومنه العهد : القديم الثيق الذي مر عليه العهد<sup>(٢)</sup> .

و - «علم» : «أعلام» ؛ «معلم» : «معالم» . علم الشيء علماً : أي وسمه . يقال لما بينى على الطريق من المنازل يستدل بها على الطريق ؛ و «العلم» : ما جعل علامة وعلماً لطرق والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه . وقيل : العلم : الآخر ، والعلم : النارة .

قال ابن سيده : العلامة والعلم : الفصل يكون بين الأرضين ؛

١ - لسان العرب ، ٧ ، ص ١٣٢ ؛ تلج العروس ، ٤ ، VIII ، ص ٣١٢ .

٢ - لسان العرب ، ٧ ، ص ١٧ ؛ تلج العروس ، ٤ ، II ، ص ٤٤٢ .

والعلامة والمعلم : شيء ينصب في القنوت تهدي به الصالة : والمعلم : العلامة . ومعلم الطريق : علامته . ومن الجاز : أعلام القوم = ساداتهم<sup>(١)</sup> .

١ - عرصة النار : وسطها ، وقيل : وهو ما لانباء فيه . سميت بذلك لاعتراض الصبيان فيها ، أي لنشاطهم فيها . « والعرصة » : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، وسميها عراض وعرصات<sup>(٢)</sup> .

لا بد من الإشارة إلى أن أشتار الاطلال في قصبي الاطلال في كتاب أسامة إذا غنطت مع أشتار الرسوم ، والأعلام ، والآثار ؛ وفي الواقع فانه في الاستعمال المعنوي المحدد الدقيق لا يمتز إلا على اختلاف بسيط بين هذه المصطلحات .

إن أماكن وقوف البدو تتغير بعد خروج سكانها ، وتبقى منها فقط الآثار ، والرسوم ، والأعلام والاطلال ، ولهذا فمن الصعوبة بمكان التعرف على أماكن الديار المهجورة . والشاعر وهو لا يتمكن من التعرف على أماكن الديار يسأل : من طلل بني خيم قديم<sup>(٣)</sup> .

١ - لسان العرب ، ٧ ، باب « علمهم » ؛ تلج العروس ، VIII ، ص ٣١٢ .

٢ - لسان العرب ، ٧ ، باب « علمهم » ؛ تلج العروس ، VI ، ص ٤٠٥ .

٣ - النازل ، ص ١١٢ ، شعر طفيل .

لمن دمنة أقفرت بالجناب إلى السفتح بين الأعلام الميضاب<sup>(١)</sup>

وإن تعرف عليها فلنا بجيد وتوهم ، فز تمد تعرف ( الاطلال إلا نوحا ) ، وهل يمكن أن تعرف اطلال وتؤي ( كخطك في رق كتاباً منمناً<sup>(٢)</sup> . ويتذكر الشاعر جيداً مكان أماكن السكن المهجورة ، وبالتالي ، فعل هذا المسكان لا بد أن تكون « بقايا الطبيعة ، والمعلم ، حتى والرسوم الدوارس . لكنه يوقفه هناك ويسأله لا يتمكن من العثور عليها وإن قدر له التعرف على هذه الاطلال فإن يكون ذلك إلا بمساعدة ضوء الشمس الساطع في وضوح النهار . والسكان القاطنون بعد خروجهم وحيلهم عن ديارهم إنما يتركون وراءهم « الرسوم الدوارس » ، حيث يقف الشاعر عندها مندهشاً سائلاً : « إن طلل برامة عفا ؟ » . « أمن آل سلى عرف الطلولا ؟ »<sup>(٣)</sup> .

الرياح والأمطار والازمن قد غيرت الديار وأفتتها فقط الاطلال ، وبذلك الحياة السعيدة المهيئة السارة بالآلام والحمرات والمذاب . والمصاب غيرت « الرسوم الدوارس » .

وتنابت الرياح والأمطار الواحدة تلو الأخرى على الديار ففتتها : « عفت الجنوب مع الشمال رسوماها » .

١ - النازل ، ص ١٧٣ ، شعر لقيط بن زرارعة .

٢ - النازل ، ص ١١٢ ، شعر حاتم الطائي .

٣ - النازل ، ١٢٣ ، ١٢٨ ؛ شرح ديوان زهير ، ص ١٩٣ ، ١٩٣ .

وغدت الدمنة قفراً بعد أن كانت « محلة خللاً » . إنه الدهر :  
« يدل الأبدالا » . « وآثار الاحبة باين » ، وبقيت الموم عليها فيصدر  
الشاعر ، ويناجي الشاعر الريح :

« محوت آثارنا » وتركنا « آثاراً برقع الحبيب لم تكن »<sup>(١)</sup> .

بقايا هذه الاطالال : [ علامات خفيفة كـوني على ثوب يميني  
مزركش ] ، « حاج الفؤاد معارف الرسم قفراً .... كالوشم » .

أو « كخطاك في رقبتي كتاباً منمنماً » ، أو « يلوح كان باقيه  
وشوم » ، أو [ ككف خاة أعيد صنع الوشم فيها أكثر من مرة لعدم  
وضوحه ] ، أو [ كجلد رقيق يكتب عليه بغير آثار الكتابة غامضة ]  
( والربع غدت آثاره كترقيش الأفعلى ) ، ( والطلل البالي غدت فيه  
مرابط الخليل الهدمة كأنها التراب القليل الذي نخرجه البال من بيوتها ) ،  
( وأطالال مية قد غدت كالرقص في الثياب )<sup>(٢)</sup> استمرت الرياح الماصفة  
في هذه الرسوم حتى غفها ، ولم تترك إلا كل صاب قاس من الحجارة  
- ( الأتاني الثلاثة - التي تبسو وكأنها حمامات متوقفة للماركة )<sup>(٣)</sup> .

١ - المنازل ، ص ١٢٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٩٢ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ،  
١٧٥ وغيرها . أشعار ، طنطيس ، النابغة ، شر ، جبر ،  
علي السكاتب وغيرهم .

٢ - المنازل ، ص ١١٨ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١١٤ ، ١٢٩ ،  
١٧٨ : أشعار طرفة الطائي ، زهير ، ذي الرمة ، أبي نواس .  
٣ - المنازل ، ص ١٧٨ شعر الصمة القشيري .

لقد غفت الرسوم رغم بشاشتها فغدت وكأنها ( سطور كتاب ) :

أرسوم دار أم سطور كتاب درست بشاشتها مع الأحقاب؟<sup>(١)</sup>

وشبه المتنبي معني ( ربنا ) في الصحراء بنائين في خد قناة ،  
والطاول في العراس المداكنة بالنجوم في الليلة الظلماء ، إنها الدمن التي  
تكاثرت الموم على الشاعر في عرساتها كتكاثر الموم :

قِفْ عَلَى الدَّمْسَيْنِ بِالْذَوِّ مِرْيَا كَخَلٍ فِي وَجْهَةِ حَسْبِ خَالٍ  
بَطُولٍ كَأَنْهِنَّ نَجُومٌ فِي عِرَاصٍ كَأَنْهِنَّ لِيَالِي

وقال :

ذَكَرْتُ الصَّبِيَّ وَمَرَامِ الْأَرَامِ جَلَبْتُ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حَيَايِ

دَمِنَ كَثُرَتِ الْمُمُومُ عَلَيَّ فِي عِرَاصَاتِهَا كَثَاثَرُ اللَّوَامِ<sup>(٢)</sup>

إن الشراء يكون هذه القفا والاطالال دموعاً غزيرة مدرارة ،  
رغم يقينهم بعدم جنوى البكاء :

يَأْيُ الْخَلِيلُ بِكَاهِ النَّزْلِ الْخَالِي ، والنوح في أروم أوت واطلال<sup>(٣)</sup>

١ - المنازل ، ص ١٧٧ ، شعر البحتري .

٢ - المنازل ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، شعر المتنبي [ ذكر : جمع ذكرى ] .

٣ - المنازل ، ص ١١٣ ، شعر البحتري .

ورغم أن الوقوف على الرسم لا يعني [ لو أغنى الوقوف على الرسم !! ] فإن الشاعر يقف ويكيي الرسوم والديار « بكاءً على الآسى » ، « بكيت فما أبقيت للرسم من رسم » ، إنها الديار الحزينة مثله لفقد أهلها ، كلاهما تاحل سقيم ، سقاها المطر ، لكنها لم تزهر إلا عندما سقاها هو دموعه :

هو الرسمُ لو أغنى الوقوفُ على الرسم  
هو الحزمُ لولا بُعدُ عهدك بالحزم  
عشية جنَّ القلبُ فيها جنونه  
ونازعني شوقي منازعةً الخضم  
فلما أبى إلا البكاء على الأسى بكيتُ فما أبقيت للرسم من رسم  
سقاها الحياءُ قبلي فلما سقيتها  
دموعي رأيتُ فضل الولي على الوسم (١)

إن هذه البقايا [ الآثار والاطلال والرسوم ] بكاءً ، تكون واسطة إيقاظ الشوق والحنين ، والحزن والام والحسرة . ويسدعو لها الشعراء - كالعادة - بالسيا والطر ، وأحياناً ، « بالسلم والخلص » (٢) .

١ - المنازل ، ص ١٧٧ ، شعر ابن الخطيب .

٢ - المنازل ص ١١٩ ، شعر عمارة بن بلال .

من الضروري أن نشير إلى أن الاطلال والدمى والرسوم والآثار المغاة ، القفرة ، التي درسها الريح والامطار المتقادمة تبقى دوماً - كما كانت المنازل والديار - مبعثاً للشوق ، ومبعثاً للحسرة ، ومصدراً للتذكرى عند الشعراء المعزين .

فكل من جميل وكثير يكثر من استعمال ألفاظ [ تبيح ، أشناب ، تذكر ] : [ فالعارف والطلول [ الاولاني [ عفون وخف مئنه الطول [ قد ( أشناب ) جيلة ( وذكرته دنيا قد توت ) ، ولكن سؤال هذه الطلول لا يجدي أحياناً أخرى إذ :

[ كيف سؤال خيمات يوالٍ ونؤي عهداً أحدثه سجيل ؟ ] (١)

وكذلك الامر عند كثير ( لمة اطلال تبيح مغاني الطروب ) ، ( أحاجك من سمدى طلول ) ، ( طلل أقوى من الحى ) ، ( تبيح ) المنازل ( أحزان الطروب ) ، وإذا ما سأل عن سمدى فان ( سمائم أو اطلال دار موائل ) ( يحنه لتكرها ) ، تلك الاطلال التي أضرت بها ( الأنواء والريح والندى ) وغير مغناها تاقب الابل (٢) .

وكذا الحال - في هذا المجال - عند الشعراء المعزين [ قلاطلال ] القفرة التي [ تعفت ] حتى [ رسوماها ] - وهناك تفريق بين الطلال

١ - المنازل ص ١١١ ، ١٢٦ . شعر جميل .

٢ - المنازل . انظر . أشعار كثير وجميل في فصلي « الاطلال ، والرسوم » .

والرسم - ، والتي غدت مع تماكب الالام وكأنها وشم خافت في كسف  
القناة قد [ حاجت الذكرى والشوق ] للحبيبة عند عمر بن أبي ربيعة<sup>(١)</sup> .  
وعلاوة على تلك النثبات والناصر التقليدية في التوجه إلى أماكن السكن ، وفي  
استعمال هذه المصطلحات الدالة على بقايا الدار يتكهن الثور على عناصر  
أخرى جديدة .

يورد أسامة من أشعار ذي الرمة ثمانية مقاطع [ ٤٣ بيتاً ] ،  
فيها وصف للطبيعة والصحراء البدويتين . ولا عجب في هذا وذو الرمة  
الشاعر الذي برز في وصف الطبيعة الصحراوية خاصة ، حيث نشأ في  
الصحراء . ثم نزل في البصرة والكوفة ، فقلق ما كان فيها من ثقافات ،  
وشرقي رغم ذلك شغوفاً بصحرائه الفدنية ، برحل إليها ، ليتأملها ويصور  
جمالها وسحرها تصوير المائمه الفنون ، وبهذا الهيام دبج لوحات رائمة  
لصحرائه ، مبعلاً شعره في كثير من جوانبه رؤى وأحلاماً ببيجة . إن  
هذا الاكثار في وصف الاطلال والدمع كان في أي الفرزدق سبباً في  
عدم ذكر ذي الرمة في طبعة النحول<sup>(٢)</sup> . نغتن بصديقته (مي) فكثر ورود  
اسمها في هذه المقطوعات ، وارتبط بالاطلال والرسوم والآثار . وهو -

- ١ - المنازل ص ١٢١ ، ١٣٢ ، انظر . أشعار عمر بن أبي ربيعة .
- ٢ - انظر . ابن قتيبة ، طبقات ، ص ، ٣٣٣ . ( جاء الفرزدق  
فوقف عليه ) على ذي الرمة ( فقال له : كيف ترى ما تسمع  
( من شعر ذي الرمة ) يا أبا فراس . قال : ما أحسن ما تقول .  
فقال : ما بلي لا أذكر مع الفحول ؟ . قال : قصر بساك عن  
غلاتهم بكاوك في الدن والاطلال، وصفتك للعطن والابار ) .

بإستخدامه طرائق جديدة في الماملة - معاملة هذه البقايا - إنما يعطينا  
لوحة فنية حية عن بقايا دثار البدوي - المسلم . يدعو إلى التسليم ( على  
الاطلال ) البالي : « عليكن يا أطلال مي سلام » ، رغم حداثة عهده مع  
إيمانته بأن الزرع الذي غدت آثاره كثرقيش الافاعي لن يرد على التسليم ،  
كما أن الطلل صامت لا يجيب . ويدعو خليليه إلى الزور على ( الطلل )  
البالي الذي غدت فيه مرابط الخيل المتدعة وكأنها شبهه بالتراب القليل  
الذي تفرجه أنبال حول بيوتها .

الصورة الحية الكاملة لبيوت وأطلال وبقايا البدوي الاسلاميية  
يعطيها ذو الرمة بلسات جديدة في التناول والوصف : طلب من صاحبه  
أن يقف في ( أطلال مية ) ليسأل الرسوم الخارقة ، دموعاً لا ألفاظاً :  
فلم ير إلا الدمن التي حاجت شوقه ، إذ لم تبقى إلا مرابط اللواب  
( وجوانب المسجد ) ومناسب القدر ، التي هي رواجل للرجل والريح  
الحارة تجر فيها التراب الرقيق كأنها تسكبه من نقوب المنخل .

وتعرف بصوبه على ( أطلال ميه ) التي غدت كالرقص في الثياب،  
فقلبه الهوى ، وتذكر ، وهل له عنبر في انصافي ؟ لم يجد عنبراً ه بعد  
عشرين حجة ، مضت لي وعشر قد مضين إلى عشر ، ، فسكان ذلك  
سبباً لاختفائه شوقه عن رفيقة ذي العقل الراجح ، لكن لا حدود  
بذلك ، فالدار هيجهت رغم أنه يخادع قلبه بالنسيان . وعندما يذكر ويشكف  
النسيان ويظهر بالسوان<sup>(٣)</sup> .

- ١ - المنازل ، انظر شعر ذي الرمة في : فصل في ذكر الاطلال .

والدموع والأمطار قد سقت « الاطلال والدمع والرسم » ،  
وعشها بالاعتشاب الخضراء الجيلة ، وبالأزهار المفتحة المطرة (١) . ولم يتوان  
أبو نواس - وهو الذي وقف ضد التقليد والمطالع النثرية والاطلال - عن  
استعماله لتمايزه المتضمنة بوحز الاطلال والتهكم عليها : « لمن طلل عافي  
الحل دقيق ؟! » .

« لمن طلل أشجه وشجاني وهاج الصبي أوهاجه لأوان؟ » (٢)

وعبر أحياناً أخرى بوحز شديد - وهو في معرض التأسف  
عليها - إذ شك في معرفة الرسم الذي لمرآته تتأذى منه العين ويافظه  
لوهج :

ألا لأرى مثلي امتري اليوم في رسم تَمَصُّ به عيني ويلقظه وهمي (٣)

لكنه ، أحياناً يمود لمناجاة هذه الاطلال لمناجاة لطيفة جديدة  
بمناصر جديدة ، إذ لأول مرة نسمع ان الهمن حسنة الرسوم ، وطنية  
النسيم ، كما أننا لأول مرة نرى ان الهمن لا تبلى ، وباقوانها من مكانها  
ليست توب النعم :

١ - المنازل ، ص ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ،

شعر يهيس ، جرير ، ابن خياط ، أبي تمام .

٢ - المنازل ، ص ١١٤ ، ١٢٩ ، ديوان أبي نواس ص ٤٦٨ ، ٦٨ .

٣ - المنازل ، ص ١٧٦ : ديوان أبي نواس ، ص ٨٧ .

تجافى البلى عنهن حتى كأنها ليسن على الافواء توب نعيم (١)

أما « الايادي » فانه يدعو إلى ترك الخنن والكاء على هذا  
الرسم :

أَمِنْ رَسْمٍ تَمَسَّى أَوْ رَمَادٍ وَسُجْمٍ كَالْحَمَامَاتِ الْفَرَادِ  
أَطَاعَتِكَ الشُّوْنُ فَظَلَّتْ صَبَاً كَأَنَّ وَكِيفَهَا وَهِيَ الْمَزَادِ  
وَهَلْ يَشْتَاقُ مِثْلُكَ فِي دِيَارٍ عَفَّتْهَا الرِّيحُ وَالذَّيْمُ الْغَوَادِ  
ذَكَرْتَ بِهَا سُمَادٌ فُجِعَتْ جِبَالاً عَلَى رَسْمٍ تُسَائِلُ عَنْ سُمَادِ (٢)

لم يمر الربيع مرة « على الاطلال » عند أبي تمام إلا وسقاها  
أمطاراً كثيرة . والجديد عنده أنه - بعكس باقي الشعراء - يوضح آثار  
فعل هذه الأمطار ؛ فهي في كل مرة تنهر فوق الاطلال تغطيا بالأشجار  
الكثيفة ، والأزهار الكثيرة القواحة (٣) .

بقايا آثار أماكن السكن

عند أسامة

لم يكن أسامة ، في استخدام الانعام الشعرية المرتبطة بقايا

١ - المنازل ، ص ١٦٨ : ديوان أبي نواس ، ص ٤٤٧ .

٢ - المنازل ، ص ١٨٥ .

٣ - المنازل ، ص ١٨٢ .

أماكن السكن ، إلا مقلداً لشعراء الجاهليين ، بنض النظر عن كورت حياته مرتبطة بأكبر مدن الشرق وقتها ( حلب ، دمشق ، القاهرة وغيرها ) . إن « الرسوم » التي أيقظت مشاعره وأهاجته فوقف عليها لم تكن حصرية بل بدوية : إنما [ وقتت على رسم ] ببدء [ يقع ] . بقايا أماكن السكن عنده « بكاء لا ترد على الدعوة » ، والرسم [صوت إذا دعي ] ، لم تعرفه عينه إنما أتفهم أنها دار الاحبة . ولا تستغري من الدهر ( اخلاق جلدة وتشتت آلاف وإحاشي جمع ) ، إذ ( الموت سكان الدار ، والبنى منازلهم ، وشملهم للتصدع ) .

ثما على المرء إلا الصبر على هذه القوايجع الاليمة لأنها سنسة الكون<sup>(١)</sup> . أما فيما نقى من أثمار فإن أسامة لم يذهب بعيداً عن هذا بل كان مقلداً .

لكن من الضروري أن نؤكد على التالي :

آ - « الآثار » عند أسامة لم تقتصر على معناها المادي فقط ، فقد ذكر معناها المعنوي إذ كي يؤكد رأيه يورد خبراً : بأن أرسطاطاليس كسب إلى الاسكندر كتاباً يوصيه فيه بمصالح ملكه ، ثم قل فيه : ( اعلم أن الألبم تأتي على شيء ، فتخلق الأفعال ، وتثبت الذكر ، إلا مارسخ في القلوب بحجة تتوارثها الأعقاب ، فاجد أن نظفر بالذكر الذي لا يموت ، بأن تودع الناس حجة يبقى بها ذكر مناقبك ) . وكان ( الذكر ) هو الجانب المعنوي ( للآثار ) . ثم يورد آياتاً للفرعي

١ - المنازل ، ص ١٨٣ .

يدعو فيها إلى ترك الآثار يراعي ملحوب ، إذ باتباع طريق المدي يبقى الذكر الحسن :

اتبع طريقاً للهدى لأحباً وخلّ آثاراً ملحوب<sup>(١)</sup>

ب - إن الشعراء على امتداد جميع العصور لم يورثوا تفسيرات واضحة ملحوظة في استعمال مصطلحات ( بقايا أماكن السكن ) وفي التوجه إليها ، رغم تطور الحياة الاجتماعية والحضارية . فقد كان تقليد السلفي شاملاً في هذا المجال ، وضعة واضحة بارزة . ولقد نتج هذا لربنا - لأن المطالع القزلية للقصيدة إنما تعتبر عناصر تقليد أساسية في بناء القصيدة ، وحافظت بذلك على هذا التقليد والتبع .

١ - المنازل ص ١٩٥ ؛ ديوان الزروميات ، ج ١ ، ص ١١٧ . [الاجب : الواجب] .

## ٤ - معنى الوطن الرابع

كما أشرنا سابقاً ، للدلالة على « أماكن السكن » في الشعر العربي قد استعملت عدة مصطلحات ، تعود بجماعتها إلى الحياة البدوية . وتوجد أيضاً مصطلحات أخرى تعني « أماكن السكن » ، لكنها توسع هذا المعنى حتى تصل إلى مفهوم الوطن ، وهذه هي :

أ - « المدينة » . « مدن بالسكان » : أقام فيه . فعل محبات ، ومنه « اندبنة » ، وجمعا « مدائن » أو « مدائن » أو « مدن » وهو الأكثر استعمالاً . ومدن الرجل : إذا جاء المدينة . « والمدينة » : الحصن يبنى على مرتفع الأرض ، والنسبة له ( مدائي ) ، جمعا : مدائن . « والمدينة » : اسم مدينة بجانب الكعبة ( مدينة الرسول ) ، ويقال للرجل العالم بالأمر هو ( ابن مدينتها ) ، والأمة : مدينة أي ملوكة ، وللمد مدائن<sup>(١)</sup> .

ب - « الوطن » : المنزل تقيم به وهو : موطن الإنسان ومحل . جمعا « أوطان » وأوطان الغنم والقرى : مرايضها وأماكنها التي تأوي إليها ، كقول الأخطل :

كروا إلى حرككم تغربونها كما نكروا إلى أوطانها البقر

١ - لسان العرب ، ١٢/١ ، ص ٢٨٨ ؛ تاج المروس ، ٢ ، ص IX ، ص ٣٤٣ .

فعله ( وطن بالسكان ) ( وأوطان ) : أقام به والتخذه موطناً أو محلاً ومسكناً . وأوطنت الأرض ووطنها وتوطنها أي اتخذتها وطناً ، وكذلك الأتلات . ومن الخبز : مواطن مكة : مواضعها . والوطن : الشهيد من مشاهد الحرب . ووطنه على الأمر : أخبر ففعله معه وواقته ، ووطن نفسه على الشيء وله فتوطن : حملها عليه فتجتمعت<sup>(٢)</sup> أما في اللغة الحديثة فإن المعنى الأساسي للفظ ( وطن ) إنما يدل على المفهوم المعصري الحديث الشامل .

ج - « البلدة والبلد » : كل موضع من الأرض عامر أو غير عامر ، خال أو مسكون . « والبلد » من الأرض ، مكان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء . جمعا بلاد وبلدان . وقال بعضهم : « البلد » : جنس المكان كالعراق والشام ، « والبلدة » : الجزء المخصص منه كالصرة ودمشق . « والبلد الحرام » : مكة والمدينة ( منى إسلامي ) . « والبلدة » : الأرض أو القلعة . « والبلد » : القرية من القمل « بلد » بالسكان ، أي أقام به وزعمه . « والبلد » : الآخر ، جمعا أبلاد . قال القساضي : ( في اللجور كلوم ذات أبلاد ) . وقيل للتجوير متبلد لأنه شبه بالذي يتجور في قلاعه من الأرض لا يهتدي فيها<sup>(٣)</sup> .

١ - لسان العرب ، ١٧/١ ، ص ٣٤٢ ، تاج المروس ، IX ، ص ٣٦٢ .

٢ - لسان العرب ، ١٧ ، ص ٦٢ ؛ تاج المروس ، ٢ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

د - « الأرض » : تأتي عليها الناس - مؤنثه وهي اسم جنس تأتي بمعنى الموضع والمكان نادراً . والأرض : سفلة البعير والدابة وملوك الأرض منه . وأرض الإنسان : ركبته ثما يدها ، وأرض النمل : ما أصاب الأرض منها . فطها « تأرض » بمعنى ثبت ، وقيل : التأرض : التأي والتأطار<sup>(١)</sup> .

إن حياة التنقل والترحال عند العرب - البدو ، وعسديم الاستقرار ، وضرورة الانتقال من مكان إلى آخر معياً وراء السكك والمرعى - كل هذا ينعكس في الشعر الجاهلي . ولهذا فإن مفهوم الوطن منذ الجاهلية كان مرتبطاً بطرواف الحياة المادية : الحياة في مكان ما تنتم ، طالما أن هذا المكان يؤمن للشخص حفظ كرامته ، وحياة هنيئة سعيدة ؛ أما إذا لم تكن الظروف تناسب هذا وإن نبهت القلم ، فعل الشخص أن يبدعه ، وينتقل إلى مكان آخر جديد إلى الوطن الجديد الذي يؤمن الحاجات فيه . وينفض النظر عن هذا ، فإن الإنسان ( البدوي ) يحميه الجديدة في مكان آخر جديد - [ وطن ] ، يمين إلى « الوطن القديم » . إن زامل بن عفير الذي غادر وطنه مكرهاً إلى الشام ، وانتهى بسبه الحارث الضماني الأكبر ، وأكرم مثواه ، حين إلى وطنه الأول ، إلى مواطن طي في الحجاز . ورغم زوله عند الحارث ذي النجد والكرامات الواسع الشهرة والملك ، رغم زوله بمثوى كرم ناعم البالي بقي وطنه الحجاز يحنّذه :

١ - لسان العرب ، ج ٨ ، VIII ، ص ٣٧٩ ، تاج السروس ، ج ٧ ، ص ٣ .

غير أن الأوطان تجتذب المرء إلى الهوى وأن عاش كدًا ورغم حياته الناعمة بالشام ، فإن حسراته على وطنه تقد قلبه قدًا . إذ :

ليس يستعذب الغريب مقاماً في سوى أرضه ، وإن نال جنداً<sup>(١)</sup> ذلك لأن الأوطان جاذب .

« وطن » الإنسان هو مسقط رأسه ، ومكان سكن أهله وأقربائه ، أكان خيمة أو منزل ، ربما أو منى ، إنسه المكان الذي أمضى فيه الراء طفولته وقوته<sup>(٢)</sup> . وتألف النفس الوطن حتى كأنه [ لها جسد إن بان غشور هالكا ] ، وعبة الرجال للأوطان لأنها تذكرهم بتأرب قضوها فيها في قوتهم :

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم

عبود الصبى فيها فحتوا لذلك<sup>(٣)</sup>

وأشلى « البلاد » على الإنسان ، ذلك « البلد » الذي ولد فيه ، وزرع ، وتلك الأرض التي أول ما لمسها<sup>(٤)</sup> . « والوطن » هو موطن

١ - المنازل ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، شعر زامل بن عفير .

٢ - المنازل ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٢٩ .

٣ - المنازل ، ص ٢٢٢ ؛ ديوان ابن الزومي ، ج ٢ ، ص ١٣ .

٤ - المنازل ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

قد نالت نجد والحجاز بشكلى عام ، والمدنية ومكة بصورة خاصة  
اعتقاداً أساسياً عند الشعراء . وموجودون في بلد عن هذه المواطن ،  
يحنون إليها ، رغم أن بعضهم - أحياناً - لم يمش فيها :

ذهب الرجال فلا أحس رجالاً وأرى الإقامة بالعراق ضلالاً  
وأرى المرجسي للعراق وأهله ظمآن هاجرة يؤمّل ألا  
وطربت أن ذكر المدينة ذاكر يوم الخميس فهاج لي بآلها  
وجعلت أنظر في السماء كأنني أبني بناحية السماء هلالاً  
طرباً إلى أهل الحجاز ونارة أبكي بدمع مسيل إسبالاً (٢)

فالمدينة هي مدينة الرسول في الحجاز ووطنه ، وما زاد حنين  
الشاعر هنا وشوقه إلفاقه في العراق ، فالارتباط بالزمان قرن بالحالة  
الاقتصادية المادية حتى إنه يلمس المساعدة من السماء .

أما فيما بعد - في الوقت اللاحق المتأخر - فإن لفظه « وطرت »  
عني بها « مدينة » مع التي تربط الشاعر روابط معنوية ، فالتنبي وهو جسر  
يشترك إلى حلب ، إلى بلاط سيف الدولة ، حيث كان عزه ورفاهيته ،

١ - المنازل ، ص ٢٥٠ ، شعر المازني .

٢ - المنازل ، ص ٢٤٥ . شعر ابن المولى . [ الليل : شدة الهم ] .

فبأي شيء بطل نفسه ، وهو بعيد عن وطنه وأهله ، وليس له ما يلهو  
به ، ولا أحد يسكن إليه ؟ . مولساته في أن ظروف الزمان القاسية  
زائلة ، ولا بد من عودة إلى الوطن (٣) . وغلبة بنت المهدي ، في صحبتها  
لأخيها الرشيد الخليفة : وهي معتربة بيده عن بغداد ، بالقرب من  
همدان ، اشتاقت وحنّت إلى بغداد ، حتى إذا ما أتتها [ الركب من نحو  
أرضها تنعمت تستشفي برائحة القرب ] ، فأرضها - بغداد ، لا أرض  
الخلاقة كلها ، وحنيتها للساكنين المخبين هناك (٤) .

أما اليمنية ، التي زوجها عنها إلى شامي غلبا إلى السلام ، فإن  
الشوق يأكلها إلى بلادها ، داعية لتلك البلاد بالسقيا ، حبث قومها  
مجمعون ، رغم بقيتها أن لا مجال لبقاء . وداعية على كل عينة تترك اليمن  
( إد لا بارك الله في وجه كل عينة تحب شامياً ) (٥) .

و « الوطن » عند أبي العباس الأعمى هو سورية عامة ، ودمشق  
بصورة خاصة ، حيث يعيش أهله وأبناء قومه بنو أمية . وهو في الحجاز  
يحن إلى دمشق والأقرباء (٦) . وأبو العلاء ، وهو في بغداد ، يحن إلى  
سورية وخاصة إلى مدينته الصغيرة ، مسقط رأسه المرة (٧) .

١ - المنازل ، ص ٢٢٥ ؛ ديوان المتنبي ، ص ١١ ، ص ٤٦٧ .

٢ - المنازل ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٣ - المنازل ، ص ٢٤٩ .

٤ - المنازل ، ص ٢٥١ ، والنظير : أيضاً ص ٢٥٢ ، شعر ابن  
حمدان .

٥ - المنازل ، ص ٢٥٨ .

إن عمران بن حطان - برأبنا - غوّج لشعراء المغايد الديبسية والسياسية ، الذين كثروا في عصره ، وكافوا عظماء الخليفة وولاته ، قلا مكان إقامة دائمة له ، آزدي مرة وأوزاعي أخرى ، متنقل في الاقطار الاسلامية على نجد مأمناً على حياته ، إلى أن زل بين قوم من عقيدته فاستقر وطابت له الحياة ، إذ زل في خير أسرة ، يقوم بجميع الله شعليم من الأزدي إن الأزدي أكرم معشر ثمانية إذا انتسب البشر ، وأهله وقبيلته هم رجال معقده ، وهو موطنه ، الربيع هو مكان سكناهم :

فتنصن بنو الاسلام والنواحد وأولى عباد الله بالله من شكر<sup>(١)</sup>

« والوطن » عند مجموعة من الشعراء « ليس مكان لمبا الصبي ، حيث ولد الانسان وترعرع » ، لكنه ذلك البلد الذي يؤمن الحياة الاقتصادية الكريمة للرء . إذا كان الانسان في بلد عن وطنه ، وقال معاشاً ، فلا عليه أن يكثر زراعاً إلى الوطن ، فهاهنا والبلد الجديد، إلا وطناً كالفديهم ، لكن خيرها ما كان عوناً على الزمن ، وكتم تفق في البلاد ، لا يبيعاً بالخيرين ليؤمن راحته وحياته . إذ ( وأحب لوطان البلاد إلى الفتى أرض بنال بها كريم المكسب ) . لقد غدت الدعوة صريحة للزومة المكان التي ( يكسب ) فيه بشكلى جيد<sup>(٢)</sup> .

إن موافقة البلاد وطيب العيش فيها هما معيار ارتباط بعض الشعراء

- ١ - المنازل ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٥ ؛ المبرد ، الكامل ، ٥٣٠ - ٥٣٤ ؛ انظر أيضاً ، ص ٢٣١ ، شعر ابن حيوس .
- ٢ - المنازل ، ص ٢٣٧ ؛ ديوان البحتري ، ج ١ ، ص ٦٠ .

بالوطن . ( وشعر البلاد بلاد ) لا يوجد فيها من يستراح إليه ، ويؤنس يوده ، وشعر ما كسبه الانسان هو مانابه وأذله ، وشعر صيد ساهه ماشركته فيه التام ، و ذلك الانسان هو ما يوافقه ، وأقربيه هم أصدقائه ، وكل مكان واقفه ، وطلب فيه عيشه « بلدة » ، وكل قوم صادقوه وأستفوا له الحبة هم رهله الأذنون . فإذا ما أعجزته صداقة صديق لم يعجزه الرحيل عنه ، إذ في سعة الأرض يتفرقها ويترها مكان واسع الذهب والخيء ، وبسهولة يستعوض عن هذه البلاد ببلاد أخرى<sup>(٣)</sup> .

أما عند إلس بن قبيصة الطائي فيعثر أيضاً على عودة إلى الارتباط العام « بالارض الرحبة الفسيحة » ، التي لا يعجزه إدراك أمة بقعة من بقاعها . ينكر انتسابه إلى أم ربيعة أو مضرية ، ويؤكد أن وطنه « هو الأرض بأكملها » ، وفي هذا تنمكس وحدة الأرض الكاملة ، هذه الوحدة التي تماكس التصور القبلي المحدد<sup>(٤)</sup> . وعلى العكس من هذا فإن حب وجهة بنت أوس للأرض يتلقى لا بالأرض بأكملها ، لكن بأرض عشرينها فقط :

فما لي أن أحببت أرض عشريني وأبغضت طرفاء القصية من ذنب<sup>(٥)</sup> .  
إن هذا المفهوم الانساني العام للأرض « كوطن » معبر عنه بشكل ساطع في شعر شاعر متأخر عاش في عصر لاحق ، هو ابن الفرات .

- ١ - المنازل ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
- ٢ - المنازل ، ص ٢١٧ .
- ٣ - المنازل ، ص ٢٠٨ .

إنه في تنقل وترحال دائمين ، في شرق الأرض ومغربها ، فان بان ع-ن  
وطنه ، فله من أكوام الثنائ التجانب موطن . ولا خير عنده في هذا  
فعلما أصله من زاب [ فكها ( كل الأرض ) بلاءه ، وعلى السالين  
أقاربه ] . إنها دعوة انسانيه مفتوحة<sup>(١)</sup> .

في المفهوم الجديد « لاطن » والحنين إليه تظهر آثار دينية  
اسلامية . « الكعبة » - « البلد الحرام » « موطن » السلم ، حتى قوم  
يولد فيها أو يبعث . إنه يحن إلى الكعبة ، وإلى شاعر الحج ، وإلى  
« المساجد هناك » .

أعلنت كيف تصبري عن رؤية البلد الحرام  
والمشعرين ومسجد بالخيف يشهد كل عام  
وعن التزام المشعرين وعن صلاة بالمقام  
وعن زيارة النبي المصطفى خير الأنام  
كتصبر المدفوع بالأستقام عن طيب المنام<sup>(٢)</sup>

« وطن » الانسان هو « بلدة » ، إنه الحياة الدنيا (دار القنم) .  
والانسان يترك الحياة الدنيا يبقى على الدوام في القرية :

١ - النازل ، ص ٢٢٣ .

٢ - النازل ، ص ٢٤٧ ؛ شعر « الرجل المريض » .

تَيْقَنَنَّ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ جِيرَةٍ فَأَزْمَعُ عَنْ دَارِ الْفَنَاءِ رَحِيلًا  
فَأَنْ أَقْرَتُ مِنْهُ الْعَيُونُ فَبِأَنَّهُ تَعَوَّضَ مِنْهَا بِالْقُلُوبِ بَدِيلًا<sup>(١)</sup>

إن بعض الشعراء بأخذ العبرة والظة من « الدائن » الخالية ؛  
فمضير الجميع إلى زوال ، ونهاية الجميع الموت ، ويسأل أبو نواس عن  
كان قبله من ذوي البأس والخطر :

أَيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنْ ذَوِي الْبَاسِ وَالْخَطَرِ  
سَأَلُوا عَنْهُمْ الْمَدَاثِنَ وَاسْتَجَبُوا الْخَمَرِ  
سَبَقُونَا إِلَى الرَّحِيحِ لِي وَلِنَا لِيَا لَأَتَرَ  
مَنْ مَضَى عِبْرَةً لَنَا وَغَدًا نَحْنُ مُعْتَبَرُونَ<sup>(٢)</sup>

ويسأل أبو نغم المدينة الخربة على شط القرات لماذا أصبحت  
خراباً ؟ على الرغم من كونها عجا ، لا تنطق . قابل والتبر بينان  
فيها ، ممران عن هلاكها ، كأننا سكن القنم في فائها ، أوصال فيها  
الدحر سولة منضرب :

١ - النازل ، ص ٢٤٨ ، ٢٢٩ ، شعر ابن حديد  
الأندي .

٢ - النازل ، ص ٢٤٢ ؛ ديوان أبي نواس ، ص ٦١٢ .

قد قلتُ للزَّبناء لما أصبحتُ  
في حدة نأب الزمان وميخلتُ  
لمدينة عجماء قد أمسى إلى  
فيها خطيباً باللسان المُعرب  
فكأننا سكن القناه فتأها  
أوصال فيها الدهرُ صولةً مُعَضَّب (١)

ويدعو أسامة لسؤال ( المدائن ) عن كان تلكها ؟ وهل علت  
من بهم خيراً ؟ فلو أجاب - وهي حالة بشأن الماضيين التاريخين -  
قلت : لقد أرتهم الدنيا العبر ، فما اعتبروا ، فصيرتهم لقوم يدم عبراً :

سل المدائن عمن كان عليكها هل أنست منهم من بعد خبيراً  
فلو أجابتك قالت وهي عالمةٌ بسيرة الداهب الماضي ومن عبراً  
أرتهم العبر الدنيا فما اعتبروا فصيرتهم لقوم يدمهم عبراً (٢)

في أشعار شعراء الراحل المتأخرة غالباً ما تصادف الفاظ ( غربة  
وغريب وغربة ) . ويصف الشعراء في هذه الأشعار عذاب  
وحسرة الانساق وهو في ديار الغربة ، ويعبرون عن شوقه وحنيه  
للوطن .

١ - المنازل ، ص ٤٣٤ ؛ ديوان أبي تمام ، ج ١ ، ص ١٠٣ . ( الزيادة :  
مدينة خربة على شط الفرات ) .

٢ - المنازل ، ص ٢٤٣ .

٢٩٢

- « الغريب ليس يستعذب مقاماً في سوى أرضه وإن نال جدها »  
- « لا تنهرن غريباً طال غربه فالدهر يضربه بالذل والحن  
حسب الغريب من الدنيا ندامته

عض الانامل من شوق إلى الوطن (١)  
- « مامن غريب وإن أبدى نجده إلا سيدكر بعد الغربة الوطن » (٢)  
- « فكل حر إلى الأوطان ملتفت إذا لح عليه الدهر بالحن » (٣)  
- « لا يدكر الرمل إلا حين مغترب

له بني الرمل أوطار وأوطان  
تهفو إلى البان من فلي نوازعه وماني البان بَل من داره البان  
أسد سمعي إذا غشي الحمام بها كي لا يبين سر الوجد إعلان (٤)  
« ومغترب ينقضي ليله فُسُوناً ومُتَلِّتَه تدمع  
يؤرقه نأيه في البلاد فما يستقر به مضجع

١ - المنازل ، الفصل عن الوطن .

٢ - المنازل ، ص ٢٢٢ ؛ ديوان الرازي ، ص ٥٢٤ .

٣ - المنازل ، الفصل عن الوطن .

٤ - المنازل ، الفصل عن الوطن ، شعرا الشريف الرضي .

٢٩٣

إذا الليلُ ألبسه توبته تَقَلَّبَ فيه فتى موجع<sup>(١)</sup>

لقد أمضى أسامة معظم حياته في «الغربة»، وهو في مصر،  
يحن إلى شيزر وأهله هناك، ويشير إلى أن الوطن الحقيقي أغل ما على  
الدنيا إلى قلب المرء، ولو توفرت للمرء في «الغربة» كل ملاءة الدنيا،  
فالحياء في الوطن تبقى دوماً أفضل وتجمع :

هَبْ أَنْ مِصْرَ جَنَّاتِ الْخُلْدِ مَا لَشَ

تهت الشفوس فيها من اللذات موجود  
ما فيك في سائر بلاد مصر عن بلد في أهله الفضل والإقدام والجود  
ماذا انتفاهي إذا كانت زخارفها موجودة وحبيب النفس مفقود  
وما الحياة لمن بادت أحبته رضى ولا هو في الأحياء معدود<sup>(٢)</sup>

لكن من جهة أخرى يبرر «غريبه» وبؤكدها، ويزيد من فضلها،  
ذلك لأنه في «الغربة» قد أمتلك الجود والشهرة وعلم المنزلة :

أظنَّ العبدى أن ارتحالي ، ضآري ؟!

صلاًلاً لما ظننوا ، وهل يسكسُدُ الشجرُ ؟

١ - المنازل ، فصل في ذكر البلاد ، شعر أشجيم السلمي .

٢ - المنازل ، ص ٢٥٣ .

وما زادني بُعدي سوى بُعدِ همة

كما زاد ثوراً في تباعده البدر

وهل في ارتحالي عن بلاد تنكسرت الخلي أو للساكنين بها فخر  
وإن بلاداً ضاق عني فضاؤها لأرحب من أكتافى العلمى فيشر  
وأرضاً تبث لي وهي أهلة الرثي

هي القفر لا بل دون وحشيتها القفر<sup>(١)</sup>

انطلاقاً من الأسماء المختارة في «كتاب المنازل والديار» ، في  
فصول : [ المدن ، والبلاد ، والوطن ، والأرض ] ، يمكننا تقسيم  
الشعراء إلى المجموعات التالية حسب ارتباطهم وعلاقتهم بالوطن :

أ - بعضهم يأبى الرحيل من مكان إلى آخر ، ويناضل ضده ،  
ويدعو إلى التمسك في الوطن مهما كانت الظروف . والبحث عندهم عن  
عن الحياة النعمة في بلاد غريبة إنما هو دعوة غير عقلانية :

يطيب خبيث الأرض بالقرب منكم ويخيب عندي بعدكم كل طيب<sup>(٢)</sup>

« وقيل لبعض الحكماء : ما البسدة ؟ قال : الكتابة مع لزوم  
الأوطان ، ومحادثة الإخوان ، قيل :

١ - المنازل ، ص ٢٦٠ .

٢ - المنازل ، ص ٢٥٢ .

ما اللثة ؟ قال التزوج عن الأوطان ، والتفصل بين البلدان (١) .  
ويميد الدار بيني دائماً وطنه ، وكما طالت به المسافة ، طال به الشوق  
والوجد :

« ولرحمتنا للغريب في البلد الناء نحر ماذا بنفسه صنعاً  
فارق أحبابه ثما انتقموا بالعيش من بعد ولا انتقموا »  
- « تأيتُ بشخص في البلاد مُشترقٍ  
وقلب إليكم بالحنين مُعربٍ  
لحى الله رأياً زَيْنَ البُعْدِ عنكم  
وهيمَةً قَلْبٍ رَحَصَتْ في التَلَبِّ (٢) »

ويظهر هذا الانتماء أيضاً بصورة واضحة جلية في شعر الوصلي :  
ماذ مَمَّتُ المَقَامُ في بَلَدٍ قَطُ فَعَاتَبْتُهُ بِعَمِيرِ الرَحِيلِ  
إِنْ تَلَقَّانِي الزَّمانُ بِمَكْرُو هِ تَقْفِيَّتُهُ بِصَبْرٍ جَمِيلِ (٣)  
وسعادة الانسان ، رأي الخليفة علي بن أبي طالب ، تكمن في

١ - المنازل ، فصل « الوطن » .

٢ - المنازل ، فصل في ذكر البلاد .

٣ - المنازل ، ص ٢٥٤ ، أيضاً : ص ٢٥١ ، ٣٥٢ .

حياة الانسان بشكل لائق في وطنه .  
« قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : من سعادته الرجل خمس :  
أن تكون زوجته موافقة ، وأولاده أحراراً ، وإخوانه أئقياء ، وجيرانه  
صالحين ، ورزقه في بلده » .

ب - وفي الطرف المناكس لهذا الانتماء يقوم اتجاه المجموعة الثانية  
من الشعراء التي ترتبط علاقتها بالوطن بنوفر الكرامة ، والمزة ، والحياة  
الوديمة . الانسان سعيد إذا كانت خيانه في وطنه كربة اجتماعياً واقتصادياً ،  
أما إذا كان الأمر خلاف هذا فقلبه المحرب من الظلم والدينية ، وهجران  
الوطن ، والبحث عن وطن آخر حيث تؤمن له الحياة الهنيئة . إذ  
- حسب تعبير الشاعر - لا يقبل الهوان إلا الجمار ، أما الناقة الحرة  
فتنكره . وإذا كانت المناوأة في البلد فلا بد من الرجل إذ لا يرضى  
بالدينية أحد :

إِنْ الهَوَانُ حَمَارُ البيت يَعْرِفُهُ والحرُّ يَنْكِرُهُ وَالرَّسْلَةُ الْأَجْدُ  
وَفِي البلادِ إِذَا مَاخَفَتْ نَائِرَةٌ مشبورة عَنْ وُلاَةِ السُّوءِ مُشْتَقْدُ  
إِنْ الدِّيَّةُ لَا يَرْضَى بِهَا أَحَدٌ إِلَّا الْأَذْلَ لَأَنَّ عَمِيرَ السُّوءِ وَالْوَيْدُ  
هَذَا عَلَى الحَسَفِ بِعُيُوساً بِرَمْتِهِ وَذَا يُشْجِ وَمَا يَكِي لَهُ أَحَدُ (١)

١ - المنازل ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، شعر المنطس . [ الرسالة : الناقة  
السهلة ، والأجد : النوقة الخلق : المنشد : التنتحي : الرمة :  
قطعة من جبل ] .

فالأرض واسعة عريضة ، خلقت « ليسكن منها السهل والجبل » ،  
ولذا ما على المرء إلا أن يتنقل من مكان إلى آخر طلباً للمكاسب والحياة  
الحرّة الكريمة :

- إن كنت تزعّم أن الأرض واسعة

فيها لعيرك مرئاد ومرتحل  
فارحل فإن بلاد الله ما خلت  
إلا يسكن منها السهل والجبل  
وابن المكاسب من أرض مطالبها

من حيث يحمل حتى يشقّد الأجل (١)

- ففي الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيها لمن رام القلي متحول (٢)

فالأرض واسعة عريضة ، ليس فيها ضيق على المرء الذي يحكم  
عقله في تسيير الأمور ، والمرء بخارب الجوع ، ولا يقبل الضم والأذى ،  
والمضايقة النفسية . لولا اجتناب العار والقيسب لأقام في الترب والتأكل  
المؤمنين له ، لكن هذا لا يكفي ، فالمرء يطلب الكرامة في موطنه ،  
فإن لم تتوفر فما عليه إلا هجران ذلك الوطن ، ذلك لأن الرجل عت

١ - المنازل ، ص ٣١٤ ، شعر حاتم الطائي .

٢ - المنازل ، ص ٣١٣ ؛ لامية العرب . في ملحّن للملقات ، ص ،  
٩٧ . وانظر . المنازل . ص ٣١٤ ، شعر الكلابي .

مثل هذه الأرض ضرورة حتمية لا مناص منها ، لأن الداء البلاء لا بد  
من حسمه جذرياً بلا هوادة :

تعمل عن الأرض المريضة غادياً ولا ترض للداء الغيا سوى الجسم  
وما فتئت روح الفتي في نوايب نمارسها حتى استقالت عن الجسم  
إذا ما قرّنا خلصنا من الأذى ولم يحتج الراعي المسيم إلى الوسم (١)  
وفي أشعار الشعراء المجهولين تظهر الدعوة صريحة لتنقل والترحال  
عن الوطن ، فلي المرء ان :

( لا يصرفه عن عزم بهم به نزوع إلى أهل وأوطان ) .

وهو في الوطن الجديد يلقي الأهل والأخوان :

يلقي بكل بلاد هو ساكنها أرضاً بأرض وإخواناً بأخوان

إن مخالفي أوطانهم أشبه بسكان القبور ، لأنه بالرحلة والتغرب  
- الفتي والتقدم ، إذ لولا التفرع ما ارتقى در الجسور إلى النجور ،  
وليرحل المرء حتى لو كان إلى الصين أو عدن إذ :

كل خل إذا صافيته سكن وكل أرض إذا أهدتها وطن (٢)

١ - المنازل ، ص ٣١٣ ، ٣١٧ ، شعر المري ، وانظر ، ص ٣٤٠ ،  
شعر السلياني .

٢ - المنازل ، ص ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٧ ،  
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

وفي اشعار معاصري أسامة [ ابن أبي جرادة ، ص ١٧٠-١٧١ ،  
وأبي نصر ، ص ٢١٩ ] نثر على الحنين إلى مسقط الرأس ، والشاعران  
يعيشان حياة كريمة هائلة في القرية يسعيان إلى العودة إلى الوطن ،  
والموت خير لهما من أن يبقيا على الدوام في القرية :

أصبح شملنا إلى الشّتات وأصبحت غريباً وما بنا وطني  
الناس لاهون في أماكنهم ونحن في رحلة وفي ظمآن  
كأننا من متيبي العربالـ عرباء تهوى المعاج بالدّمين  
لاصبر لي قد خرجت من جدي

وقد سلبت الحصين من جنّتي  
ومجّ سمعي لنعو الحديث فما يطور شيء منه على أذني  
جمعت ، والهفتاه ! قلب فتي يغرر عن همّ شارخ يفتن  
ورتبة في العلاء تنبها صورة مستبدل وممتحن  
[ الشارح : الشاب ؛ اليقن : الشيخ ]

وسيد الملك - جد أسامة ، الدافع عن ملكه ووطنه شيزر ،  
والمتند لاعطاء كل شيء في سبيل حفظ شيزر ، وصيانة حسرتيها ،  
يستغرب تصميم المهاجر على الرحيل ، وقطع التباقي كأنه قلمي القلب ،  
لا يقلل حسب الوطن عنده من عزمه على الرحيل ، ولا يهسي  
الحنين إلى رسوم الدار :

لله ما طيف ألمّ بقتية تحنو رؤوسهم على الأكوار  
يطويهم عرض القلاة مسر بل حُلّك البناء ممزق الأطار  
لافتت الأوطان عزمتها ولا يهدي الحنين إلى رسوم الدار (١)

أما أسامة فقد غادر وطنه الأم مكرها وأمضى قسما كبيرا من  
حياته « غريبا » ، وحن إلى وطنه طيلة حياته سواء أثار في نيم أو في  
عذاب . لقد كان ارتباطه بأهله ووطنه من الصفات الميزة له ، وهو  
الذي عاش كالطريد من بلد إلى آخر ، بلا وطن ولا خلان ، عيدا آخرين  
موسم لعويله بما يشيره من الذكرى ، ومرورهم عنده أحزان ، إذا ما  
رأى شمل مجتمعا تراحت في قلبه الهجوم والاحزان لا حدا بل من الذكرى  
المؤلمة لماضيه ، لقد أفردته الحوادث فلم يبق له أنيس ، ولا في طسارقه  
الخطب أعوان ، حتى لكأنه ليس كباقي البشر ، فقد ثبت به البلاد فماله  
على وجه الأرض ومان ، ينقل ويحول بلا استقرار ، فإذا ما حط عصا  
الترحال ، وحلوا الاستقرار دعاه إلى الترحال ظلم وعدوان ، حتى غدا  
القبر أرفق به من دار سكناها [ بصور ] . حتى إن مصر التي قضى  
فيها من حياته عشر سنوات لم تنسه ووطنه ، ولم تنه عنه . إنها ليست  
أول أرض مس ترثها جلده ، فليس له فيها وطن ولا وطن ، إنما وطنه  
هو مكان مولده ، لكنه قطن مصر مكرها إذ : « إذا حمت الاعتدال كان لها  
قوى تؤلف بين الماء والنار » (٢).

١ - النازل ، ص ٣٣٩ .  
١ - النازل ، ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ؛ ديوان أسامة ،  
ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٧٥ .

بعد استقراء هذه المعلومات التي أوردناها فيما سبق ، وتبجسة  
لدراستنا وصلنا إلى تقرير النتائج التالية :

إن البكاء على أماكن السكن ، [ البيوت والدور والننازل ]  
وآثارها في الجاهلية ما كان إلا فناً شعرياً منفصلاً مستقلاً مفعماً بالحياة  
والشاعر الصادقة . وفي العصر الأموي كان التوجه إلى أماكن السكن  
بشكل عام ، وإلى آثارها بشكل خاص في الحب العذري ، كما في الحب  
العمرى الواسطة للتعبير عن الشاعر والآلام والمنافة عند الشاعر . وأماكن  
السكن هذه عند الشعراء المذيرين مرتبطة عند كل منهم بلسم محبوب  
محددة واحدة ، وعند العمرين - بعدد من المشوقات ، أما شعراء البلاط  
فكانوا مقلدين في هذه المطالع - مطالع القصائد الطللية ، لا يتكفون أية  
رابطة مع هذه الأماكن [ أماكن السكن ] التي يبكونها ، وآثارها  
وبقائها ، باستثناء بعض الحوادث عندما وصفوا القصور الفخمة [ قصور  
الخلافة ] ، أو بكوا دمارها وخرابها ، ذلك الخراب الذي أيقظ عنده  
الشاعر المشاعر الحزينة الصادقة . أما فيما بعد - في الوقت المتأخر - فقد  
ظهر اتجاه التجديد الذي وقف ضد هذه المطالع ، ودعا إلى نسيانها وإهمالها :

دع الرسم الذي دثراً يعاني الريح والمطر

لقد وقفنا على حقيقة جديدة وهي أن الدعوة إلى الكف والامتناع  
عن بكاء النازل في المطالع الطللية يجب ربطها باسم الكمية من زيد  
الذي عاش تقريباً بنصف قرن قبل بشار وأبي نواس ، لكنها لم تأخذ  
عنده ، كما لم تأخذ عند من سبقه صورة اتجاه أدبي متكامل .

وبالاستناد إلى هذا فقد قررنا أن الدعوة إلى الامتناع عن هذه  
المطالع الطللية ، وبكاء النازل والدبار ، كانت قد ظهرت لا بدافع  
الشعورية عند بشار وأبي نواس ، بل بسبب الشروط والظروف الاجتماعية  
والاقتصادية الجديدة في حياة العرب التي كانت قد توطدت في البلاد والامصار  
الجديدة ، لاستقرارهم الدائم في ائدن بيدين عن الصحراء .

لفظة « منازل » تستعمل أيضاً بمعنى « القبر » و « المسجد »  
و « القصر » ، أما « البيت » فبمعنى « القبر » و « الحام » و « شرف  
القبيلة » ، كما أنها امتلكت أيضاً بعض المعاني الدينية الجديدة . وعند بعض  
الشعراء ، في تناولهم لموضوع « البيت » تنقصر بعض الإلحان الأجنبية  
الطليقة .

إن العناصر التقليدية في وصف وتصوير أماكن السكن مع بقائها  
تركزت في كونها : [ معفاه ، غير مدروسة ، غير مسكونة ، خالية ،  
أماكن سكن الحيوانات والطيور ، تنبت تحت تأثير الرياح ، والامطار ،  
والزمن ، والقدم ، والقراق ، بقاياها شبيهة بقايا الوشم في ظاهر اليد ،  
وبرسوم واهية على ثياب خلقة ، وآثار القم الباهتة على الورق ، وبجملد  
الافى الزركش .. الخ ] .

وتحت تأثير شروط الحياة الجديدة يلاحظ تحديد واضح في وسائل  
التجسيم والتصوير ، وفي طرائق تناول أماكن السكن ، وبقاياها : لقد  
خفت المحبوبة [ غائبة ] ، والمغاني تكتسي أليسة جديدة ، إنها غير خالية  
هي الريمع بالنسبة لما يحيط بها من أرض ؛ على أنصان أشجارها ينرد  
الحمام ، وسدى هذا التبريد زرده الغائيات المدهشات الجيلات . وأصبحت

الربيع معدنية ، يب عليها النسيم الطفيف الليل الرطب ، وتغطيتها - مع نقايا  
القيار ( الرسوم والاطلال .. الخ ) - الحدائق الجميلة المزدهرة ، ويرتبط  
بها بمشاعر أشبه ما تكون بمشاعر الاحترام والاجلال للكعبة ، وتجسد  
كألوك والقياصرة ، إنها لا تنفو ، لكنها على العكس ، تلبس مع الأيام  
الثياب اللينة الجميلة القشبية .

أما فيما يخص المصطلحات التي اعني اليها الاوسع للوطن ( مدينة ،  
وطن ، بلد ، أرض ) فيلاحظ أن معظم الاشعار إنما تخص شعراء  
العصر الاسلامي . عندئذ لم يعد « المنزل ، أو « المقي » هما « الوطن »  
و « مكان السكن » ، إنما غدا « الوطن » هو « المدينة » ، « قطعة من  
الأرض » ، « بلد » حتى « والأرض » بشكل عام كامل .

ويتكلم هؤلاء الشعراء أكثر وأكثر عن « الغربة » و « الغراء »  
في الوقت الذي يعثر فيه على هذه الأنماط بشكل قليل نسبياً في الشعر  
الجاهلي . وربما كان هذا مرتبطاً بحياة التنقل والترحال عند العرب - البدو ،  
الذين يتنقلون في مناطق واسعة من الأرض لم يجدوا المعنى بشكل دقيق  
محدد لكلمتي « وطن » ، و « غربة » .

لقد دعا بعض الشعراء الجاهليين إلى التنقل في كل الأرض ، وإلى  
ترك ذلك القسم من الأرض الذي يقتصر للمدانة . أما علاقة الشعراء  
بالوطن فقد كانت على مر العصور مهزوزة غير ثابتة . إذ دعوا في أكثر  
الجالات إلى التنقل والرحلة ، وإلى عدم الاستقرار في الأماكن التي هم  
فيها مظلومين ، وكرامتهم مهانة ، ولا عدالة عندهم ، وأحياناً قليلة دعوا إلى  
الاستقرار الدائم في هذه الأماكن رغم على الميقات والظروف .

في شعر بداية القرن الثاني عشر XII الميلادي لا نلاحظ تغيرات  
كبيرة في تناول موضوع الوطن ، وتطور هذا المفهوم . فأسامة ومماصروه  
لم يسيروا هكذا بعيداً عن الشعراء السابقين لهم ؛ أنصف شعرهم أيضاً  
بذلك الأسلوب ، وتلك التغيرات القوية السائدة سابقاً ، وبذلك المجموعة  
من أنتم المطالع الطالاية للقصيدة أيضاً . وما « الوطن » في مفهوم أسامة  
إلا ذلك المكان المحدد ، عبر الكبير ، ما هو إلا « شجرة مسقط رأسه » ،  
حيث ولد ، وبیش أهله . لكن ( دراما ) حوادث عصره ، وعميق  
آلامه الشخصية - كل هذا صبغ شعره بالخالص والصدق والواقعية .  
ونحن نقرأ شعر أسامة نشاركه أحزانه ، ونحس بآلامه ، ذلك لأن  
ما يخرج من القيد يدخل في القلب مباشرة . إن هذا الاحترام للتقليد  
[ للشكل التقليدي ] ، ولحيوية الخوى « إنما مدين له شعر أسامة » ،  
ومدين له أيضاً ظهور هذا الكتاب « كتاب المنازل والقيار » .

★ ★ ★

رَفْعُ  
عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّجَافِيِّ  
السُّلَيْمَانِيِّ النَّجَافِيِّ

الفصل الثاني

الأهل والأخوان (المواطنون)

رَفْعُ  
عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّجَافِيِّ  
السُّلَيْمَانِيِّ النَّجَافِيِّ

« أهل الرجل » هم عشيرته وذوو قرياه ، وأخص الناس به ، وعلى التخصيص زوجته وربما أولاده فقط . وقيل : من يجمعه وإمام نسب أو دين ، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد . « فأهل الرجل » - من يجمعه وإمام مسكن واحد ، « وأهل المذهب » وأهل الاسلام : من يدين به . « وأهل الأمر » : ولاته . « وأهل النبي » : أزواجه وبناته وصهره علي . « وأهل كل نبي » : أمته . « وأهل القرآن » : حفظه . « وأهل الله » المؤمنون به . جميعا : أهالي وأهلون . مأخوذة من الفعل : أهل الرجل بأهل أهولا : فهو أهل ، ومأهول به أهله . وأهل وتأهل : اتخذ أهلا ، وقيل تزوج ، والميلونات الألفية : أهلية ، والمستوحشة : برية . وفي الدعاء : أهلا : أي آتيت أهلا لا غرباء ، فاستأنس ولا تستوحش ، وأهل به : قل أهلا ، ومنها آل الرجل : أهله (١) .

أما الاخوان : فيجمع مفردة : أخ . وهو من ولده أبوك وأمك ، وأحدما ، ويطلق على الأخ في الرضاع ، وقد يكون الصديق أو الصاحب وخصص في ( التهذيب ) « الاخوة » : إذا كانوا لأب في الولادة ، « والاخوان » : إذا لم يكونوا لأب ، في الاصطفا . وهذا رأي أهل البصرة ، إذ يقولون : رجل من إخواني وأصدقائي ، فإذا كان أخاه في النسب ، قالوا : إخواني ، ويرى بعضهم أن هذا خطأ إذ [ إنما المؤمنون

١ - لسان العرب ، ج ١ ، XIII ، ص ٢٨ ؛ تاج النروس ، ج ١ .

إخوة [ في القرآن الكريم لا على النسب . وعلى الجواز : « إخوان العزاء » و « إخوان العمل والصدق » : أي أصحابه وملازميه . فقلبا - آخى - رجل مؤاخاة وإخاء : أي اتخذته أخاً ، « آخى » بين المهاجرين والانصار : أي ألف بين قلوبهم . « والاخوة » : قرابه الاخ ، أما اتآخى : اتخاذا الاخوان<sup>(١)</sup> .

يقول أسامة في مطلع هذا الفصل : [ هذا الفصل كان موضعه صدر الكتاب ؛ إذ كانت المنازل والديار إنما تبكى لسكانها من الاهل والاخوان والاجباب ، لكي آخرته ؛ لاختم به الكتاب ] .

ومن أشعار أسامة أيضاً - إضافة الى قوله هذا - يظهر انه من اولئك الناس الذين يكرهون الديار لسكانها لا لنفسها . فالتعلق بالارض والوطن إنما تعلق من خلال التعلق بأهلها .

« الاهل والاخوان » في شعر شعراء المراحل الاولى ( امرئ القيس والجهمدي ، وأبي ذؤاد اليبادي وربان بن منظور ومقاس بن شريك وابن مقبل ودريد بن الصمة ) ما هم إلا أفراد القبيلة ، أو الفخذ ، أو العشيرة ، أو الأسرة ( الاقرباء بالدم ) ، فالمرؤ القيس في سيره هارباً إلى قيصر باحثاً عن حياة عنده تذكر اهله الصالحين ( أبناء عشيرته ) ، وهو في بدعهم ، في حوران ، وحماه ، وشير ، يمن إليهم ، ويفقد الامل بالبقاء بهم . إن رحلته شاقة ، تتطلب منه الجهد والصبر . فهو

١ - لسان العرب ، ج ٨ ، XVIII ، ص ٢٠ ؛ تاج العروس ، ج ١ ، ص ١٠ ، X .

« أخو الجهد »<sup>(٢)</sup> . و « الاهل » ايضاً في شعر الجهمدي هم اقرباؤه اعضاء « فخذ » عشيرته الاقربين ، الذين مرت عليهم عوادي الزمان . إن مقطوعاته الشعرية في رثاء اهله تجسد احزانه وانراحه وتقل حزناً وأسى . إذ لسنوات ثمان خلت قد ألت بهم السكرانة ، فما الدار الآت كعده بها ، لقد عذب فيها ( حياً كراماً ) كأنهم الملوك عظيمة وفروسية ، فتيان صدق من مددن اصيل ، اغتياهم كرماء ، فمرت عليهم عوادي الايام ولم يبق سوى الليل والالام من تلك الديار وأهلها إلا ( مغائباً ) ، مغائ قوم غائهم المنيبة ، ففدت اماكن حلوهم بكي وتبكي ... لقد غفت ديارهم ، ففدت كأغلبية السيوف الرقيقة الهزيلة . إنها ( دار قومهم ) الذين حاولوا بها قبل ان تصيبهم البلية ، وهم ( من خير حي على الارض ) ، يفتنون من يستنجد ، ويكرمون الضيف ، ويرتاحون للمساء والكرم السريع ، ولا يستخفهم الطيش عند الفارة لانهم ذوو رزانة ، علامتهم واضحة يعرفون على الدوام بفعلهم الخير ، اصحاب مروءة وشرف ، طكوا فسادته جارتهم ( زوجته ) عن ( أمته ) ( اهل قومه )<sup>(٣)</sup> - وذو القل يسأل إذا لم يعرف الخير اليقين - سأله عن اناس هلكوا ، واكل الدهر عليهم وشرب . إن اولئك الذين يرقدون في التبور - هم ( رعية الاقرب - اهل داره ، فخذهم من عشيرته ورهطه ، إخوته بالدم )<sup>(٤)</sup> .

١ - المنازل ، ص ٤٣٩ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ٦١ .

٢ - هناك ، ص ٤٦٣ - ٤٦٧ ؛ شعر الجهمدي ، ص ١٦٦ ، ٨٥ ، ١٣ ، ٢٢٣ .

٣ - هناك ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ .

بعض الشعراء المخضرمين ( الخنساء وقس بن ساعدة وأميمة بنت عبد شمس وأبو خراش، وأبو زيد الطائي، وأبو طالب ) يستعملون الصلجان « أهل » ، « إخوان » تقريباً بهذه المعاني الشار إليها سابقاً . فالنكية المؤلة قد قضت على « إخوة الخنساء » ، « وأهل بيتها » ، تركة لها الأئم والأئمة ، والقلب الجريح المكوم<sup>(١)</sup> .

وموت « أخي » قس السمين ( بالهم ) الاثنين جلب له الارق والحزن ؛ يسكنها وهو قائم على قبريها . ولو كانت القدية ممكنة لندما يحجمه وحياته<sup>(٢)</sup> . وفقد أميمة لقومها ، وفي الخرائ لاخوته انقط عند الشاعرين شعورالأم والنجوى والحزن على الاقرباء ، والثني يجدهم القار وكرمهم<sup>(٣)</sup> . وفي اختلاف عن هذا فإن الخليفة علي بن أبي طالب يحسن ويسكن بكاء مرأ على « رفاقه » ، الذين غادروه واغناهم الموت ، « فهو يذكركم دائماً نسباً من يحيطون به حتى لو كانوا أهله » ، إنهم بالنسبة له ليسوا رفاقاً ، وأصدقاء فحسب ، بل « إخوان في الصداقة » ، ومن الشوق والحنين إليهم يشتهي الموت ليتقي بهم<sup>(٤)</sup> .

لقد كانت الصفة الاساسية عند شعراء عصر بني أمية ، كما هو

١ - هناك ٥٠ : ديوان الخنساء ، ص ١٤٢ .

٢ - المنازل ، ص ٤٥٣ ؛ الأغاني ، ص XV ، ص ٢٤٧ ( دار الكتب ) .

٣ - المنازل ، ص ٤٤٥ .

٤ - المنازل ، ص ٤١٨ .

الحال عند شعراء الجاهلية ، بكاء المشيرة ، والمائلة ، والاقرباء ، والاصدقاء ، مما جعل أشرافهم مملوءة بشاعر الأئم الصادقة ، والذئاب ؛ يكي الشعراء هنا قددهم لأقربائهم ، ويتنون ، ويعجبون ، ويخسرون بـ [ أجداد الشهداء ، ويوزون ويواسون نفوسهم ] ، بزاء ديني : [ إن الإنسان لا يستطيع أن يهرب من القضاء والقدر ، الذي حسب قوائمه يسير كل الناس لانهاية - الموت . لفظة « الأهل » تستعمل عندهم كما عند من سبق وأشرنا إليهم بمعنى : « عشيرة » ، و « قبيلة » و « عائلة - أسرة » ، و « أقرباء » ؛ أما لفظة « إخوان » : فيعني « الأخوة بالدم » ، و « الاصدقاء » ، و « الزفاق » ، و « الزفاق بالمتقصد الديني » [ . وأصبح ابن فورية الذي يكي أخاً بالدم ( مالكاً ) رمزاً لكفاء في الرأ . ويرقي أشرم بن حميد « بني أسد » ، وحارثة الغداني - أهله ، وبصورة خاصة عائلته وأسرته ؛ ويندب ابن مباد « بني ذر » ، ويس - اخوته المقتولين ، وثوبه بن الفرس : إخوانه ، وأصدقاء القتال ، والمفرزق : الاقرباء الوثي - أعضاء قبيلته ، وأولاده المقتولين ؛ والعتي وأبو ذؤيب يسكيان أيضاً أولادها ، ( عند الاخير قد ماتوا دفعة واحدة بالطاعون )<sup>(١)</sup> .

وكذلك فإن السمويل ، ونهار بن توسعة ويلي بنت طريف يعبرون عن أحزانهم في قصائد رثاء يرتون بها إخوانهم ، ووضاح البجلي - لإخوانه وإياه ، أما شبيب البرصي ، وأبو سعيد ، وعبدالله البجلي ، فانهم

١ - المنازل ، ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٣٥ ، ٤١٥ ، ٤٥٠ ، ٤٢٤ ،

٤٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٦٠ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ .

يرثون بائتهم والأقرباء المقربين<sup>(١)</sup> . ويعطي محمد بن خالد - في رثائه عمر بن عبد العزيز - الحقّ العالم والمواساة الدينية ، إذ لا يمكن صد النون ، فالوت قدر عظم على كل مره حيث سمعوت في وقته دون تأخير أو تقديم . أين الملوك ، وعيشهم ، وزملائهم ؛ إنهم ذهبوا ، ونحن على طريقهم ، فمن معجوج إلى منجوع ..!

إن معظم الشعراء يكون أقرب المقربين لهم بالدم ، لكن ، علاوة روابط القرابة الدموية ، فإن الناس يرتبط بعضهم ببعض بعدد من الروابط الأخرى القوة لتينة ؛ هكذا ، مثلاً ، المعتقدات الدينية - السياسية التي تجمع حولها الرفاق الأصدقاء بالمعتقد ، أصحاب الرأي الواحد . ومثله في هذا أيضاً عمر بن الحسين ، وأبو عباس الأعمى . عند مرداس ، كما عند جميع شعراء الخوارج ، الشعر ممتلئ بالصدق والاخلاص ، ويمتصر بالأم والحرز والامسى ، وبكس تلك الروابط القوة بين أبناء مذهب الخوارج ، هذه الروابط التي صبت بالدم ، والنيات والقتال<sup>(٢)</sup> . وشيئية هذه الأشعار أيضاً : أشعار ابن الحسين الذي يبي فيه مقتل (الاباضية)<sup>(٣)</sup> . لكن أبا عباس الأعمى ، على العكس ، يبي أعداء الخوارج - الخلفاء السابقين ، بعد أن فني على ملكهم<sup>(٤)</sup> .

١ - المنازل ، ص ٤٣٩ ، ٤١٢ ، ٤٧٤ ، ٤٢٩ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٤٢ .

٢ - المنازل ، ص ٤٦٧ ، البرد ، ص ٥٨٦ .

٣ - المنازل ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

٤ - المنازل ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، الاغني ، ص ٧٧ . ٦٠ ( يولاف ) ، ص ٢٩٩ ( دار الكتب ) .

وفي أشعار شعراء العصر العباسي غالباً ما يعثر أيضاً على بسكاه الأقرباء والأهل ؛ لكن في هذا العصر - إضافة إلى ذلك - وبشكل واضح يعبر عن بكاء الأصدقاء - « الأخوة بالصدقة » ، وبسكاه أولئك ، الذين قضت عليهم النوائب . ويعثر على الاشارات الدينية في أشعار أبي النخابة ؛ إذ يبي « الأخوة » ، الذين أثنى عليهم الموت ، فالوت لن يقي على أحد ، إن الناس لا يباؤون به ولا يهتمون ، لكنه ينهم ، وسيفقي على الجميع<sup>(١)</sup> .

إن « تراجيدنا » البرامكة مشهورة لنا ، إذ بعد مقتلهم ، غنوا مائة بكاء ورثاء عدد من الشعراء . هذه النكبة قد أبكت جاريهم : ( إن التفرق الاحباب بكاء ) ، إذ دارت عليهم عوادي الأيام حتى أفتتهم ، فظلت تبكيهم طوراً ، وطوراً تنهيم حتى نضبت الدموع في عينها<sup>(٢)</sup> . ويقوم الشاعر الزبير بن دحمان بتسجيل هذه النكبة بطرف خفي ، ويمدد أمجادهم ، وحكمهم وإخلاصهم<sup>(٣)</sup> . أما الخليفة النذول ووزيره ابن خاقان فانها بالنسبة للبحري كقيلاني الأوس والخزرج عند الرسول . ولقد عكس شعره نكبتها « تراجيدنا » مؤلة<sup>(٤)</sup> . إن بعض الشعراء - محمد بن صالح والمرضى وابن خفاجة - يكون أصدقاءهم - « إخوان

١ - المنازل ، ص ٤٣٤ ؛ ديوان أبي النخابة ، ص ٢٨٥ .

٢ - المنازل ، ص ٤٣١ .

٣ - المنازل ، ص ٤٤٥ ، ٤٧٧ .

٤ - المنازل ، ص ٤٥١ ؛ ديوان البحري ، ص ١٠٥ ، I ، ص ١٠٥ .

الأخلاق<sup>(١)</sup> ، وآخرون ، وهم يحنون إلى الأهل والأقرباء ، يمدحونهم ، ويددون مفاخرهم وآثرهم ؛ ويندب قبيلته خزاة ، وابن الرومي .  
القرين والأهل ( أهل وده ) وابن المعتز - الأهل ، والراني -  
ابناء ابيه<sup>(٢)</sup> . ويثر أيضاً في المظبوطات الأخرى ، المسافة من قبل اسامة  
في هذا الفصل على بكاء الاقرباء ، والاصدقاء ، والأهل . ويندب الاخوة  
موجود أيضاً في شعر البراء ، والفضل ، والبريق الهذلي وفارعة المريه<sup>(٣)</sup> .  
ندب الاصدقاء في شعر الغزاز (ص ٤٣١) والاب في مراثيه فاطمة بنت  
الاحجم ( ص ٤٤٩ ) ، والأولاد في شعر أبي الشنب البسي  
( ص ٤٦٧ ) . إن معظم الشعراء يكونون الاصدقاء ، وأفراد القبيلة<sup>(٤)</sup> .

من المواد التي قدمناها فيما مضى ، يرى بأن الشعراء يبرأهم ،  
عامة ، إنما يندبون من الاقرباء الذين اصابهم المصائب ، والاصدقاء ،  
والقبيلة والعشيرة ؛ لكن يثر على بعض الحالات حيث لا يندب الشاعر  
قومه وعشيرته وقبيلته ، بل على المكس يدعو عليهم ، ويطلب لهم الشر .  
وكثال على هذا يمكن ان نسوق اشعار عبيدة النجدي ، الذي يكي بني  
غياث ، عندما مات بهم الصبية ، ويدعو لقبيلته بهذه المعية ذلك لانها

١ - المنازل ، ص ٤٥٦ ، ٤٧٦ ، ٤٣١ .

٢ - المنازل ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٣ ، ٤١٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،  
٤١٧ ، ٤٧٢ .

٣ - المنازل ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٧٥ .

٤ - المنازل ، ص ٤١١ ، ٤٢٦ ، ٤٦١ ، ٤٧٤ ، ٤٧١ .

لم تكن غلصة عادلة منه<sup>(١)</sup> .

إن أشعار الشعراء الآخرين [ غير المدروسة أسبقهم ] محتواها ومضمونها  
إنما تشبه المظبوطات التي حللناها فيما سبق . فلا يموت عند دم دم أبناء  
الأرض ، ومن بقي حياً لاحق بهم ، وبعد حلاوة الحياة من معايشرة  
الأحباب لم يبق إلا دكرياتهم . لقد ذهب مرور الشاعر بعد صبحه كأنما  
طار به نسر فأرق وتمذب ، وأصبح ينفو عن ذنوب كثيرة ، ويتجمل  
زلات الاصدقاء . ويتحول إلى الناس في الأرض وإليها مرجعهم ومآلهم .  
أما « أهل القبور » - الوثن ، فلا يسمعون دعوة ، ولا يرجون جواباً ،  
ولا يطلبون حيلة . لقد سكنوا ظلم الأرض ثم جوتهم باطنها . إنها الأمم  
تعاقب على ظلم الأرض . وجوت الاصحاب تقوض صبر وتجلد الصاحب ،  
فلم يستطع حيلة لدفع الموت ، أما حالته الوحيدة فهي البكاء ، إذ ان  
البكاء سلاح كل مصاب ، ويدعون على أنفسهم بالوت الذي أخطأهم وأصاب  
من يرونهم<sup>(٢)</sup> .

لا بد من تركيز الانتباه إلى أنه في شعر الشعراء الجبيلين ،  
والشعراء الذين لم يتمكن من نسبتهم إلى عصر معين ، ولأول مرة ، في  
الفصل عن « الدار » يثر على تذكر « بلجيران » .

١ - المنازل ، ص ٤٣١ .

٢ - المنازل ، ص ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ، ٣٣٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٣ ،  
٤٦٩ .

- رأيتُ دُوءَ الدارِ ليس ينفعُ إذا لم يكن بين القلوب قريبُ  
- وأنزلي طُولُ التوى دار غربةٍ  
إذا شئتُ لاقيتُ امرءاً لا شاكِلُهُ  
أحاطه حتى يتالَ سجيَّةٌ ولو كان داعِئُ لَكنتُ أعاقله  
وقال آخر :

- سقى الله داراً وأرضاً تر كسها إلى جنبِ دارِي مَعْقِلٍ وتبار  
أيومالكِ جارٍ لها وابنُ برٍّ فبالكِ (جاري) ذِلَّتُهُ وصغارِ  
وقال آخر :

- [إن] جارٍ السوءِ حِمْلٌ فادِحٌ فاستعِذْ بالله مِنْ [سوءِ الجوار]  
ما جارِ السوءِ عندي جيلةٌ في جميعِ الأرضِ إلا بيع دارِي (١)

ورأينا ، فإن هذه الظاهرة ظاهرة متأخرة ، ذلك لأن الشاعر  
الجاهلي - البدوي ، يعيش في جوار مع أبناء قبيلته وأقربائه ، ومع أفراد  
عشيرته ، ولذا فإنه قليلاً ما يتكلم عن « الجيرة » . لكن ، بعد استقرار  
القبايل العربية في البلاد المفتوحة ، حتى وبدءاً من المهاجرين إلى المدينة ،

١ - المنازل ، ( طبعة المكتب الإسلامي ) ، ج ١١ ، ص ١٥٤ ،  
١٧٦ .

ووجودهم فيها ، فإن « الجار » قد امتلك مكاناً خاصاً في حياة العربي ،  
والرسول العربي ذاته قد أعطى النصيحة بضرورة بشكل جيد مع الجار .

لقد أصبح الناس يتعمقون بالجيرة الحسنة ، وهذا ما انعكس في  
الشعر العربي ، إذ يدعو الكثيرون من الشعراء إلى حسن اختيار الجار  
الحسن . والجار الذي يكون سبب بيع « الدار » ، والانتقال إلى  
جار أفضل (٢) .

وأصبح الخبير إلى الأشخاص ، فيما بعد ، الموضوع المادي للرسائل  
الأخوانية (٣) . وخلافاً لما قلناه سابقاً يعتبر على أشرار لشعراء يقفون ضد  
« الجيرة » ويرون الحسير في الزيادة فقط ، لا في التعامل مع الجار  
باستمرار :

لا تطلبين دُوءاً رِ منْ خليلٍ أو مُعاشِرِ  
أبقى لأسبابِ المودِّ قِ أنْ تزورَ ولا تُجاوِرِ

وقال أحمد بن إسحاق بن الخصيب : شكاً إلى ميمون بن هارون  
بعد داره إذا أراد زيارتي ، قلت : من هذا المنزل أقصدك إذا زرتك ،  
ثم كتبت إليه :

١ - هناك أيضاً ، ص ١٧٦ .  
٢ - انظر ميمون ، ص ٢٠٧ .

لا تَحِلِّسَنَّ بُعْدَ دَارِي مُخَسَّسًا لِنَصِيحِي  
فَرُبَّ شَخْصٍ بَعِيدٍ إِلَى الْفَوَادِ قَرِيبِ  
وَرُبَّ شَخْصٍ قَرِيبٍ إِلَيْهِ غَيْرِ حَبِيبِ  
مَا الْبُعْدُ وَالْقَرَبُ إِلَّا مَا كَانَ بَيْنَ الْقُلُوبِ (١)

وبعض النظر عن بكاء أسامة أهله في الكثير من أشعار ديوانه ، فإنه في هذا الفصل من كتاب المنازل والديار ، قد قدم مقطوعة واحدة ، تشرح - على حد قوله - حاكاً صحيحة ، لا على مذاهب الشعراء ، وذلك لأنه مر به قول الرسول : [ من زار قبر أبيه ، أو أحدهما في كل جمعة غفر له ، وكتب برأ ] ، فألفه ما حرمه من زيارتهما ، لثبات تسليم أحياء وأمواتاً فقال :

نافستني صروف دهرِي في الفوز زِيرَ الْآبَاءِ فِي الرَّجَمِ  
لو كنتُ أسطيعُ أنْ أزورها مشياً على الرأسِ لا القدمِ  
بادرتُ أمشي إلى نَرَى جَدَّتِي أعزَّ أَهْلِي عَلَيَّ كَالْقَلَمِ  
لكنْ بمصرِ قَبْرِ وَفِي شِيزِرِ قَبْرُ وَدَارِي بِمَشَايِ الْعَجَمِ  
والظلمُ في الأرضِ ما يفي كلَّ ما أبشيه حتى زيارةَ الرَّمَمِ  
وما ظننتُ الذي لقيتُ من الدُّنيا تراه عيني في الحُلُمِ (٢)

١ - المنازل ، ص ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ - ٢٩٨ ، ٣٠٩ - ٣١٩ ،

٣٢٩ - ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ - ٣٥٣ .

٢ - المنازل ، ص ، ٤١٩ .

في ختام دراسة وتحليلنا يمكن القول أن كل المقطوعات المسافة في هذا الفصل ه فسد الادل والاخوان ه هي مقطوعات في رثاء أم ، أو صديق ، أو أهل ، أو عشيرة ، فيها الحسرة على المفقود ، وبكاء مرير ، وتحييد وصبر طالما أن الموت قدر كل انسان ، ونهايته ، وضف في الصبر أحياناً ، إذ المصاب كبير خطير ؛ ووصف للربي بالكريم والشجاعسة والمقدرة . الدهر لا يخطيء ، والناس من تراب وإلى تراب يعودون ، مع دعاء بالسقيا للغيور ، وتوجع وتفجع .

ولا يلاحظ الخلل بارز بين الشعراء ، وعلى امتداد المصور ، في تناولهم هذا الموضوع بـ بكاء الادل والاخوان ه .

وربما كان التشابه بين الشعراء في هذا نتيجة لوحدة التعبير عن الآلام ، والحزن على النوتي والشهداء ، عند جميع الشعوب ، وفي مختلف العصور .

★ ★ ★

رَفَعُ  
عبد الرحمن بن أبي بكر  
أبو بكر بن أبي بكر

الفصل الثالث

الذين إلى الوطن والمواطن

رَفَعُ  
عبد الرحمن بن أبي بكر  
أبو بكر بن أبي بكر

لقد كانت التجمعات الإسلامية الناشئة في الوطن الجديدة نتيجة من نتائج هجرة العرب من جزيرتهم ، ودخول مواطني هذه البلاد الأصليين في الإسلام . ولهذا فإن تطور الأدب العربي في هذه المناطق مرتبط بانقلا العرب إليها ، وبانتشار لغتهم هناك .

والجزيرة العربية - مهد العرب الأول وموطنهم - ليست فقط صحراء كما تصور ذلك الأسماء الإسلامية ، عندما يتحدث عن وطرت العرب الأول ؛ الأمطار في الشمال غير منتظمة ، لكنها أحياناً كثيرة ، وكانت غزيرة ، بسبب عارمة غالباً ما هددت مكة والمدينة (١) لكنها كانت سبباً في توليد حياة زراعية ضئيلة ، حيث إن القسم الأكبر من الأرض إنما كان واحات صالحة لرعي الماشية فقط . أما في الجنوب ، في عسير واليمن ، فإن المناخ المطر ، على العكس ، كان سبباً في نشوء حياة زراعية راقية منتظمة .

كل هذا كان سبباً في نشوء نوعين من طراز الحياة عند العرب - « أما حياة استقرار ، وإما حياة تنقل وترحال » ، إلى جانب التجارة الناشئة بسبب موقع الجزيرة من العالم القديم المتحضر .

ولم تكن القبائل قبل الإسلام دائماً بمنزلة بعضها عن بعض ، ولا متعادلة على الدوام ، ذلك لأن الحركة الدائمة في انتقال القبائل ، كانت

١ - البلاذري ، فتوح ، ص ٥٣ - ٥٥ . « سيول مكة » ، ( طبعة بريل ) .

سبياً في قاربها بالجوار والواسم والاحلاف . ويثر على حوادث انتقال الفرد - في التسمية - من قبيلة إلى أخرى<sup>(١)</sup> ، ومشهور أيضاً الانتقال الجماعي للعرب من الجنوب بعد دمار سد مأرب ؛ « فصار كل فخذ منهم إلى بلد ، فمنهم من خرج إلى العراق ، ومنهم من سار إلى الشام »<sup>(٢)</sup> .

في الماضي القديم ، حيث كان ليمثين دولتهم الخاصة ، وأنهم ، وكتابتهم الخاصة ، عاش المدنايون ، في الشمال على شكل قبائل متفرعة ، لا تربطها وحدة عامة تؤلف بينها ، وتكون منها شعباً متجداً منظملاً تقوم به دولة عربية كدولتي الفرس والروم اليتين عاصرتا العرب في ذلك الوقت . لقد عاشت كل قبيلة مستقلة إلى حد ما ، فانهصر الفرد في القبيلة وكانت بالنسبة له كالدولة بالنسبة للانسان الحديث . ولذلك فقبيلة العرب الشاليين حملت الطابع القبلي ، لا الوطني الشامل .

وسمى علماء الاجناس والانساب أصل القبائل العربية - [ الاصول الكبرى في انساب العرب ] - ، كمدنان وقحطان - شعوباً<sup>(٣)</sup> ، وأجناساً<sup>(٤)</sup> . أما فيما بعد ، في الاعمال العلمية ، فالتناثر على الترتيب

١ - السموذي ، التنبية ، ص ٢٠٧ ، يمدتنا عن حاتم الطائي ، كيف ترك قبيلته ، والتحق ببني فزارة ، ومدحهم .

٢ - الحمذاني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٦ - ٢١٠ .

٣ - المقد الفريد ، ج ١ ، ص ٣٣٣ ( ١٩٤٠ ) ؛ النعمري ، الانباه ، ص ٤٥ ؛ نشوان ، منتخبات ، ص ٥٥ .

٤ - النوري ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ؛ ابن حزم ، جبهة ، ص ٦ .

الثاني لطبقات النسب ، [ شعب ، قبيلة ، عمارة ، بطن ، فخذ ، عشيرة ، فصيلة ]<sup>(٥)</sup> . وإضافة إلى رابطة الدم المباشرة غدت المصالح ، والرغبات المتبادلة المشتركة ضرورة جداً لحفظ القبيلة ، وتأمين ظروف البقاء ، واستمرارها . ولذا فقد غدا في تعداد القبيلة ، إلى جانب الربا الاصلا ، انوالي أيضاً ، إذ لم تعد رابطة الدم وحدها كافية<sup>(٦)</sup> .

وغالباً ما تصادف الألفاظ التي تدل على التجمعات القبيلة ، في أشعار الشعراء الجاهليين والاسلاميين لكن الشعراء ، باستمالمهم هذه الألفاظ ، لم يقصوا التحديدات الدقيقة التي أكدها علماء النسب<sup>(٧)</sup> .

١ - المقد الفريد ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ( ١٩٤٠ ) .

٢ - انظر : R.S.Mith: P.H. . وقف الباحث روبرتسن سميث طويلاً عند رابطة الدم هذه ، ويرى أن الجماعة القائمة على وحدة الدم هي أكثر تماساً في المجتمع السامي ، وأن إطلاق ( الحي ) على الجماعة التي هي من دم واحد يملأ بالبداء السامي القائل بأن حياة الجسد قوية في الدم .

٣ - القفاض ، ج ١ ، ص ٦١٢ . الفرزدق مثلاً وهو يتكلم عن قبيلته ( بني قيس ) يدعوهم ( عمارة ) : ( ولبي وإن كانت قيم عمارتي ) في نفس الوقت في مكان آخر من هذه القفاض ، ( ج ١ ، ص ٩١٧ ) ، وهو يتكلم عن ( بني سمد ) وهم فرع من بني قيس بسميم قبائل : لعلنا أن قبائل وقبائل من آل سمد لم ندن لكمير .

ومن الشعر العربي يرى بأن لفظي « قبيلة » و « حي » قد استعملتا أكثر من غيرهما ، وكانتا ندلان على معاني أبناء القوم ، قلا أو كمواء وعني بها كلمة « مجموعة من الناس » تحتوي على أرباء الدم من الجنسين ، ومن مختلف الأعمار ، وكذلك الأبناء بالثني ، بغض النظر عن كون عددهم كبيراً أو صغيراً (١) .

وأعلاقاً من التوزيع الجغرافي للقبائل العربية يلاحظ أنه كان عند كل قبلة مكان حدد من الأرض ، حيث تعيش (٢) وفي حالات انتقال القبيلة ، فلها كانت تحرك في مجال هذا المكان ، أو تركه عامسة إلى مكان آخر ، حيث يصبح هذا بالنسبة لها موطناً جديداً . وعلى أساس هذه الحقيقة الحياتية يمكن القول بأن الوطن بالنسبة للقبيلة ولشاعرها ما هو إلا ذلك المكان المحدد ، الذي توجد فيه القبيلة في هذه اللحظة التاريخية المعينة .

أهل المواطن ، حسب التحديد القبلي ، هم أقرباؤه على الأغلب : والوالدي ، والتابون للقبيلة ، ونتيجة لهذا كانت القبيلة العربية وكأنها صورة مصغرة للدولة السادة ، وشاعرها - « صحيفة القبيلة » الرسمية ، التي تظهر برباطة الدم والصالح المشتركة ، وتضم أفراد القبيلة في إطار واحد ، فيشعر كل فرد في القبيلة أنه مسؤول عن سمائه ، كما أن القبيلة كلها تشعر أنها مسؤولة عن كل فرد ينتمي إليها .

وتذكرنا العصبية في المجتمعات القبلية بالاتجاهات القومية العالمية

١ - النص ، إ . ، العصبية ص ٦١ .

٢ - أمين ، إ . ، فجر الاسلام ، ص ٨ .

التعصبية في النظام السياسي الحديث (٣) ، فكما أن القومية المتطرفة تنصب لجنسها وتمتد بتفوقها على سائر قوميات ، فكذلك العصبية القبلية تقوم على هذه العقيدة التوفيقية . والعصبية القبلية تنافي الشعور القومي ، لأن من شأنها تجزئة الجنس الواحد ( الأمة الواحدة ) . لكنها رغم كل هذا كانت متنفساً للعربي في الولاء ، كما يرتبط الانسان المعاصر بفكرة الوطن أو القومية أو المذهب السياسي .

إلى جانب هذا النظام القبلي في الجزيرة العربية قبل الاسلام كان أيضاً نظام اجتماعي آخر ، متمركز في الامارات ، والممالك العربية ، التي أقامها الناذرة والفسانة والكنديون ثم قرين في مكة في هذه الامارات ، بصورة خاصة واضحة ، يظهر المفهوم الاوضح عن [ الشعب ، والاقليم ، والسيادة ، والوطن ] ، ذلك المفهوم الخارج عن نطاق التصورات القبلية .

وبمجيء الرسول حدثت الهزة الدنيبة في هذا التركيب الاجتماعي ، والتوضع الاقتصادي في حياة العرب . فالنظام الذي ظهر بطور الاسلام وبعمده ، أنكر ، نصاً وروحاً ، العلاقات والمفاهيم القبلية القديمة ، ووضع البداية ، على أقل تقدير في الأفكار ، للعلاقات الأخوية بين القبائل . إذ إن أقوال الرسول وأحاديثه وأفكاره نفت كلها العصبية ، وهذا ما جر إلى بداية التقارب بين القبائل ، هذا التقارب والفاء المرتكز على العقيدة ، والدعوة ، ووحدة الله ، ووحدة العقول الدينية ، والمساواة والتقوى . لقد قام كل هذا مقام الدم ، والتنافر ، والنسب ، واتشفت والافتراق .

١ - حتى ، ف . ، تاريخ العرب ، ص ٥٣ .

وأخذ الاعتبار القبلي يبدأ بالاصحاح ليحل محله الاعتبار العربي ثم الانساني ، إذ ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، والناس جميعاً كأسنان المشط ، لا امتياز لقبيلة أو جنس . حتى إن الرسول نفسه قد ترك قبيلته قريش ، وهاجر إلى الأوس والخزرج وبدأ القتال ضد أقربائه ، ثم إنه بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . لكن هذا كله لم يقو على سحق العصبية القبلية ، وهذا ما تؤيده الأشعار المكتوبة إلى الرسول من قبل وفود القبائل المختلفة [ إذ لم تدخل الإسلام بعد ] ، إن هذه الأشعار - أشعار الوفود - مثال للشعر القبلي الجاهلي .

لكن ما إن توفي الرسول الكريم حتى اتخذ هذا الشاعر طابعاً آخر : مهاجرين وأنصار ، بني هاشم وبني سفيان .. الخ . إلا أن هذا لم يمنع من توسيع الإطار ، والمساهمة في الاختلاط بين هذه القبائل العربية ، فكان لحروب الردة الأكبر في هذا الاختلاط ، وفي تقسيم المجتمع ، بشكل جديد . إذ انقسم كل العرب المسلمين بملابقتهم مع الديانة إلى شطرين كبيرين : [ المؤمنين والمؤمنات ] ، في نفس الوقت الذي حوى فيه كل شطر قبائل متنوعة . هذا ما خدم العلاقة الأقوى بين تجمعات القبائل العربية ، وأدى إلى ظهور نظام جديد في العلاقات الاجتماعية . لكن هذا لم ينف تماماً روح العصبية القبلية ، التي حملتها أيضاً هذه الحروب - حرب الردة .

هذا الخطبة يقول :

أطعنا رسول الله ما كان يبتنا فيا لبياد الله ما لأبي بكر  
أيورتها بكر ، إذامات، بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

الجيش التي تشكلت بعد وفاة الرسول وجهت من الخلافة الإسلامية إلى اليمن ، والبحرين ، وعمان ونجد ، وظفرت واتصرت . وإذا بالجنود لا يمدون جميعاً إلى قتالهم ، كثير منهم بقي بعد الفتح الإسلامي في البلاد المفتوحة ، ومن جديد بدؤوا يتفاعلهم مع هذه المجتمعات الجديدة التي أنشؤوها<sup>(١)</sup> . وفي هذا المجتمع الجديد حدثت حوادث الزج بين جيوش الخلافة والعرب القدماء ، الذين كانوا مقيمين في هذه البلاد المفتوحة قبل مجيء هذه الجيوش .

نتيجة لهذه الحياة المشتركة ( الموحدة ) كانت حوادث زواج متنوعة بين مختلف القبائل<sup>(٢)</sup> ، هذا التزاوج الذي قاد إلى تكوين وتشكيل جيل جديد ، ذلك الجيل الذي أثر بشكل فعال على تكوين ذلك المجتمع الجديد .

في مرحلة الدعوة الإسلامية وفي مجرى الفتوحات الإسلامية ، استمر - أيضاً - هذا التزاوج بين القبائل العربية . وبفض النظر عن كون التاريخ لم يحفظ لنا معلومات دقيقة محددة ، بفض النظر عن هذه

١ - الطبري ، المجموعة الأولى ، ص ١٧ ، ص ١٩٧٤ وما بعد :

[ فرجع إلا من أحب المقام ] .

٢ - الطبري ، المجموعة الأولى I ، ص ٧ ، ص ٢٣٦٣ - ٢٣٦٤ .

الحقيقة ، فإن على المصادر في حوزتنا تسمح لنا أن نقرر بأن الخلافة لم تعتمد على قبيلة معينة في هذه الفتوح ، والخليفة لم يأمر قبيلة بذاتها وبأمرها على الجهاد، أي لم يتخذ الانتداب شكلاً قبيلاً ، بل اعتمد على التطوع الاختياري من القبائل جميعها ، إذ يمتد الخليفة إلى القبائل المتصل والمثلث يستنصرها ويرغبها في الجهاد فتوافد عليه الجموع ، ويصرفها في الوجهة التي يراها<sup>(١)</sup> .

هذا الجمع بين القبائل ( التوحيد ) ساعد على امتزاج قبائل مختلفة وتشكيلها بجمجمة قوة عسكرية (واحدة) ، ذلك لأن ظروف الحرب تطلبت تعاوناً مشتركاً من قبل جميع المحاربين ، وترك العصبية القبلية ، والمداخلة القبلي والسمو بالروح الفالحة من نطاق القبيلة إلى التجميع من مختلف القبائل (٢) . لقد أثرت هذه الظروف كلها على تشكل تجمع جديد [ قوم ] ، وقادت إلى حياة الاستقرار ، وتأكيد العيش في مناطق محددة ، كما أدت أيضاً إلى تدعيم نموذج الحياة في المدن .

ولم تكن غلبة قبيلة على أخرى في جيش خالد بن الوليد ، التي فتح العراق ، بل على العكس ، فقد تميز هذا الجيش بوحدة القبائل ، وتآلف من صفوة المسلمين المقاتلين . ثم ظهرت التجمعات المدنية [ في المدن ] ، القرية بعضها من بعض ، مما أثر بشكل أقوى في تدعيم العلاقات بينها . إضافة إلى هذا فقد وحد هذه التجمعات من مختلف

١ - الطبري ، المجموعة الأولى ١ ، ج ٧ ، ص ٢٧١٤ .  
٢ - الطبري ، المجموعة الأولى ١ ، ج ٧ ، ص ١٣٦٣ .

القبائل ، المسجد الواحد ، وعارسة القلوس والفروض الدينية الواحدة . شعر كل الناس بأنهم أعضاء مجتمع واحد ، وأبناء هذه البلدة في وقت واحد ، ونتيجة لئله هذه التوحيد بين القبائل ظهرت مصطلحات ، مثلاً : أهل البصرة ، أهل الكوفة ، أهل العراق .. الخ ..

من الضروري أن نؤكد الحقيقة التالية : وهي أنه بعد كل هذه الحوادث والتغيرات توسعت المصداقات والاتصالات والتآزر مع الشعوب الأخرى ، وبصورة خاصة مع الفرس ، ذلك لأنه بعد انتصار جيوش الخلافة فإن معظم البيزنطيين تركوا الأقطار التي فتحها العرب ، لكن الفرس ، بصورة أساسية ، بقوا ، ولم يترك هذه الديار المفتوحة منهم إلا الأغنياء ، والطبقة الحاكمة ...

بعد مقتل عثمان وقع الخلاف بين أهل الشام وأهل العراق ، بين الهاشميين ، والأمويين ، وظهر التشيع السياسي : أنصار علي ، أنصار الأمويين ، الخوارج ... الخ ... هذا التشيع قاد إلى ظهور الأحزاب السياسية فيها بعد ، مما أدى إلى إضعاف الشعور القبلي ، وإلى تقوية التبعة للأحزاب الناشئة والالتزام بها ، لكن رغم هذا فقد كانت السودة إلى الجاهلية في العلاقة قد ظهرت وبقوة في عهد بني أمية، فلم تعد العصبية للبطن أو لرهط بل غدت للشعب ، أو الجند - للمغناطة أو القحطانية ، مما أدى بدوره إلى توسع رقعة الارتباط - ارتباط الإنسان بشيخه ، وساعد على ظهور الشاعر القومي بمفهومها الأولي البسيط ، تلك الشاعر التي كانت تطلق على الشاعر القبلي بصورة قوية حية - خاصة عند اصطدام العرب بالمانسرات الأعجمية الأخرى .

لقد بلغ الصراع بين العرب والشعوب الأخرى درجة كبيرة من  
الحدة عندما نهضت الدعوة الباسية ضد الأمويين للاستيلاء على السلطة .  
وكان [ الثمور القومي ] يقوى عندما يظهر خطر هجوم شعوب أخرى  
على العرب مستولي السلطة ، أو على السلطة العربية .

من المثير أن نلاحظ أنه عند بعض الشعراء العرب تظهر علامات  
التنبه واليقظة ضد خطر الصراع الداخلي ، ودعوة العرب جميعاً للوحدة  
ضد العدو . هذا مثلاً ، ما قاله القائد العسكري نصر بن سيار ، عندما  
توجه إلى القبائل المتنازلة فيما بينها :

أبلغ ربيعة في مرو وأخوتهم فليعضبوا قبل أن لا ينفخ الغضب  
وليتصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا

حرباً يجرى في حافاتها الخُطْبُ  
مابالسيم تلحقون الحرب بينكم كأن أهل الحجاز رأيتكم عذب  
وتتركون عدواً قد أظلمكم مما تأشَب لادين ولا حسب  
فن يك سائلاً عن أهل دينهم فان دينهم أن يقتل العرب

لقد قام حكم بني الباس على أقطاف التباخرات العصبية ، وعلى  
أكثاف الفرس ، وزاد ظهور المنصر الاجنبي في الحكم بعد أن كان شبه  
عربي خالص . واتصف العصر الباسي بتأرجح وتبادل الثقافات - تقاسمات  
الشعوب المختلفة . وطبعت الخلافة بطابع إسلامي بدرجة واضحة ، أكثر

من الضفة العربية . وتوسعت حدود الخلافة ، وغدا الناس ينتقلون بكل  
حرية من طرف إلى آخر ضمن هذه الدولة ،

كل هذا قد ترك أثرًا على معتقدات ، وتطلعات الناس ، وحياتهم  
الاجتماعية ، أو على فهم الوطن ، والوطنية ، والوطنية ، كوحدة جملة  
اجتماعية ، وهذا أوجد انعكاساً وصدى في الشعر العربي .

إن ارتباط الإنسان مع الأرض يمكن رسده من ارتباط مادي  
عضوي ، كارتباط النبات بها ، إلى ارتباط معنوي ، حين اتصل بقضايا  
الحرية : « لا وطن بلا حرية ولا حرية بلا وطن » . وأحياناً يصبح  
شعور الوطن بشكل مباشر متعلقاً بمفهوم الفقر والغنى : « الفقر في الوطن  
غربة ، والغنى في الغربة يزيل شعور الاغتراب عن الأرض » . لكن ،  
بعض النظر عن هذا ، فإن الأرض التي ولد عليها الانسان وفيها نشأ  
وترعرع ، تشهد إليها دوماً ، مما تطورت مفاهيمه عن الوطن ، ومما  
حاول الاغتراب والتنقل والارتحال .

إن جذور هذا الاغتراب قديمة في الشعر العربي ، إذ إن العربي  
قد حمل ضروباً من الاحساس بالغربة في هذه الصحراء الترابية ، وربما  
كانت أسطورة المارث الجري - التي يذكرها وهب بن منبه في كتاب  
التيجان ، وتصور زوال الجراخمة ، وبقاء ، المارث وحده في التيه  
والغربة - في الواقع رمزاً لحياة العربي التي تضرب في انتاحات بلا انقطاع ،  
ورحيله الذي لا يهدأ وراء الطر والكلأ . ولذلك كانت مطالع القصائد

١ - المقد الفريد ، ص ١٧ ، س ٤٧٨ القاهرة ، ١٩٤٠ .

الجاهلية في كثير من الأحيان حديثاً عن الأطلال - بقايا وطنه المهجور - وإحساساً بالثوب بعد الأتس ، وحنيناً طويلاً إلى ديار أحبابه الراحلين ، الذين هم بالنسبة له كآباء ، الوطن بالنسبة للمعاصر .

إن الشاعر الجاهلي « موطن » قبل يسخر كل شيء في سبييل قبائله والدفاع عنها ، ويتجلى هذا في المقلات وخاصة مقلتي عمرو بن كلثوم والحارث بن حازم ، فكانتا سجل للقبيلة ، و امرأة لماثرها ، وهذا عبيد بن الأبرس يقول في مقلته :

أقفر من أهله محلوب فالتقطيتُها فالدُّنوب  
وبُدلت منهم وحوشاً وغَيَّرتُ حالها الخطوب  
فشكل ذي نعمة مخلوس وكل ذي أمل مكذوب

لا شك أن الأفكار والجلب هنا صورة لانعكاس النظر على نفسه الشاعر الذي أحس بتبدل المكان ، وامتلاكه بالوحوش . فهو ينقل الطرف ، مستوحشاً ، بين محلوب فالقطيان ، فلا يجد إلا الأمل الضائع . وتكرر نفس الصورة فيها حللناه من مطالع ومقدمات طليبة : فعند لبث قد عفت الديار ، وبذلك تطلعت الأسباب بينه وبين نوار ، وانطلقت الحياة في هذه الأرجاء :

عَفَّتِ الدِّيارَ مَحَلِّها فَمَقامُها بِعُني تَأبَّدَ عَوْلُها فَرِجامُها  
فَمَدافِيعُ الرِّيانِ عُرِّيَ رِسمُها خَلَقًا كَأَصْنَعِ الوُحْيِ سِلامُها

بل ماتد كثر من نوار وقد نأت<sup>١</sup> ونفطعت أسبابها ورمامها<sup>(١)</sup>

وفي معلقة النابغة أوت الدار ، وما بالربع من أحد ، وأضحت خلاه بعد الانس ، والحركة ، والحياة ، لا رجعة لكل هذه الاحلام ، لانها جزء من الماضي ، الذي ابتلعه الدم :

يأدار ميمّةً بالملأيا فالسند أقوت ، وطال عليها سالف الأبد  
وقفت فيها أصيلاً أسألها أعت جواباً ، وما بالربع من أحد  
أضحت قفاراً ، وأضحى أهلها اختلوا  
أخني عليها الذي أخني على أجد<sup>(٢)</sup>

ويعبر ذو الرمة - الشاعر الاموي - في شعره نبيراً أشد وأقوى عن هذه الوحشة :

١ - الزوزني ، شرح المقلات . ص ٢٠٤ . [ من : موضع : تأيد : توحش : القول والرجام : جيلان : المدافع : أماكن يستدفع عنها الماء : الريان : جبل معروف : الوحي : الكتابة : السلام : الحجارة : الزمام : جمع الرمة وهي قطعة من الخيل خلقة ضيقة ] .

٢ - النزال ، ص ٣١٥ : ديسوانت النسابة ، ص ٣٣ [ القاهرة ] .

عشية مالي حيلة غير أني بلقط الحصى والخط في الدار موع  
أخط وأعو الخط، ثم أعيدته بكنسي، والغريبان في الدار موع

فقد صور نفسه وحيداً في الرءاء إلى جوار بقايا الاطلال، تبت  
يده بالحصي كأنها هي قلع من الذكريات يدها، فيبره الخنين، ولكن  
إحياء قوياً بالكلمة والفربة يأتي من توقيع الغريبان، وهي تنق في رقابة  
مذكرة الشاعر بأنه أمام بقايا دارسة لا حياة فيها. فالاعتراب هنا كامن  
في فقدان الاحباب والاهل وفي دمار الوطن، أو أنه مماثل موضوعي  
للمعم والجذب والدم، وهذه حقيقة كبيرة في بيئة الشاعر القاحلة التي  
لا تعرف الحب والطاء. ومحاولة التخلص الوحيد لديه هي: الرحيل  
على ناقته، وكأنه يقابل الفربة باعتراب آخر كما علمته الصخرة (١).

وربما كان امرؤ القيس، وعنترة أكثر شعراء المملكات شوقاً وحنيئاً  
وإحساساً بالفربة. فقد هام امرؤ القيس شريداً يبحث عن يستعين به  
في استرداد ملك أبيه، والأخذ بثأره حتى وصل بلاد الروم، وهناك  
أحسن بقرب منته بعد أن امتلأ جسمه بالقرح. [ لقد سبق امرؤ  
القيس، إلى أشياء أيدعها، واستحسنتها العرب. وأتبعه عليها الشعراء  
كاستيفاف صجبه في الديار (٢) ].

١ - المنهازل، ص ١٦١ - ١٦٢: ديوان ذي الرمة،  
ص ٤٣١.

٢ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٥٢ ( أبريل ١٩٠٤ ) . مع  
الاختلاف في تحديد أول من وقف على الديار، وبكها.

وهو في أنفة رأى قبرا لامرأة من بنات ملوك الروم هلكت  
هناك، فقال وهو يشعر بقرب موته:

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب  
أجارتنا إننا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب (١)

أما الشاعر الثاني - عنترة فهو غريب بين أهل، إنه عبد أسود،  
فاعتراه نفي، حين تشكر له أبوه وعمه، وقاسي الأمرين من لونه  
وغيبوته، أبه عبد وعبوديته وفقت حائلاً في وجه جبه. إننا عندما  
نسمعه يقول:

المبد عبدكم والمالك مالكم فهل عذابك عني اليوم مصروف (٢)

نترك إحساسه بلغوان والضياع، وكذا الأمر عندما يهتف: أنا  
الهلج عنترة... إن هذا لون من اعتراب الفرد في البيئة التي  
يعيش فيها.

أما الأعشى فرغم تطوافه الطويل في البلاد، واختلاطه إلى الملوك  
لم يكن لينسى قومه، ولا يخفي إشتياقه إليهم:

« إنني منهم وإنهم قيو مي وإني إليهم مشتاق (٣)

١ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء. ص ٤٠، ٤٧، ( أبريل ١٩٠٤ ).

٢ - الأغاني، ج ٨. VIII.

٣ - ديوان الأعشى، ص ٢١٣ ( طبعة لندن، ص ١٤٣ ).

الزربة والوحشة والحين كانوا على أشدهم عند ذي الاصبع المدوني الذي فنيت قبيلته بتخاصمها مع بعضها ، فكان فناؤها مصدر ألم وحنين وتنن جاشها وقوتها وشجاعتها وملكيها ، ولقد شاركتها في بكاء هذه الفاجعة ابنته أمامة الشاعرة ، التي تحسرت على هؤلاء الفتيان من قومها الذين هلكوا لجبالهم وطيشهم ، فساقوا كأشبههم ظلماً ، وتبكي معهم أوطانهم - أوطانها ، التي غشت بعد إبلتهم رسماً مقفراً دالراً (١) .

ولقد ظهر في الشعر النبطي عن محسوسة هجر الأرض [ أرض الوطن ] إلى مكان آخر من أجل البحث عن مصادر الرزق والحياة :

دعني للغني أسعى فأنني رأيتُ الناس شرم الفقير (٢)

وملك هذا البيت الشعري بألفاظه قوة عجيبة حتى إن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب منع معلم ولده من أن يروي لهم القصيدة التي منها هذا البيت ، لأنها تدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم (٣) .

وكانت هذه الدعوة بارزة عند الشعراء الصماليك قبل الاسلام ، رغم أن هؤلاء الشعراء قد قسوا الوليات في حياتهم في الزربة . إن كل الذين عاشوا بعيدين عن وطنهم ، عن مساقط رؤوسهم حسبوا وقتسوا هالكين ، فقراء ، خلوعيين ، خارج نطاق قبائلهم ، هائمين في مختلف

١ - الأغانى ، ج ١ ، III ، ص ٨٩ - ١٠٨ ( دار الكتب ) .

٢ - الأغانى ، ج ١ ، III ، ص ٧٣ - ٨٨ ( دار الكتب ) . شعر عروة ابن الورد .

٣ - الأغانى ، ج ١ ، III ، ص ٧٣ - ٨٨ ( دار الكتب ) .

أصقاع الأرض . ولهذا يحس بتلك الحرارة التي تفيض فيها مشاعره وأشعاره . وهم يبعثون على وجوههم في الفلوات ، أحراراً ، فيما يبدو ، لكنهم في الواقع مشردون غرباء . لقد ترك هذا الطلع في نفوسهم أثراً عظيماً سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الزربة ، ووطأة الوحدة النفسية ، وقوة الحرمان من السكن والأهل والذليل . حتى إن سلوكهم نفسه كان يخفي وراءه الاستهانة بالحياة ، والاضطراب في الفضاء العريض ، والظلمة الفتاكة المثيرة ، لقد كان هذا سخرية مريرة من الحرية الفردية ، وشعوراً عميقاً بالتمزق والضيق .

ولامية الشنري تنبع بهذه الشاعرة ، مشاعر التمزق والضيق ، حيث حلول التكيف مع وحش الصحراء بعد أن فقد الأهل ، وذات مرارة الزربة عن الديار (٤) .

أقيموا بني أمي صلور مطيكم فاني إلى القوم سواكم لأميل  
أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل  
وأستف الأرض كي لا يرى له علي من الطول امرؤ متطول

هذا الاحساس بالحرارة طبيعي ، لأن التضامن في سبيل العيش قد جعل العرب يقدسون الحياة القبلية ، والشعور بالوحدة القبلية شعور عميق الجذور في نفوس العرب . فالظلماء الذين فروا إلى الصحراء مشردين ،

١ - انظر لامية العرب .

لا بد إلا أن يقاسوا من الاحساس بالترية، والحزن المارم إلى حياة الجماعة،  
مهما صقلت حياة الوحدة من شخصياتهم . فذاقة أبي الطمحسان مثلاً قد  
حنت تذكر أرماءاً فذكرته بعشره :

ألا حنت المرقال وأنتب ربيها      تذكر أرماءاً وأذكر معشري (١)  
والواقع إن هذا الاعترا ببهذه الصورة القاسية ، أو النفي ، كبيراً  
ما كانا يدفعان المرء إلى اليأس حتى نجي الموت ، فقد وصل الشنفرى إلى  
مرحلة الامبالاة : « إذا ما أقتي مني لم ألقها » ، وفيه المبالاة ؟ حتى  
يموته لن يتفجع الاقرباء عليه ، كما أنهم لم يتفجعوا عليه في وحدته د ولم  
تذر خلالي الدموع وعيني . ، (٢)

على أن معنى الاعترا بتطور أيضاً في الجاهلية ، فلا يتوقف عند  
الشعور بالوحشة في الرحيل ، والبعد المكاني ، بل يمتد ذلك إلى الشعور  
بالترية في البعد عن جسد القبيلة السابق ، ذلك لأن أوقات عظيمة وملاك  
هؤلاء الناس قد غدت بعيدة . فالجياة القبلية كانت مقدسة ، ذلك لأن  
الإنسان الواقع خارج دائرة العلاقات بين الناس ، خارج المجتمع ، كان  
معرضاً للإهلاك ، وكان هذا الوضع سبباً في التألم والخوف ، والحسب إلى  
الجياة السابقة النشيطة في مجتمع الأهل والاقرباء . ولقد ظهرت كل هذه  
الشاعر عند الشاعر الجاهلي ليس فقط بمشاعر الترية والوحشة في الرحيل ،  
أو الاحساس بالضيق في مضارب الوحش بعيداً عن الرابطة القبلية ،

١ - ابن قتيبة ، ص ٢٢٩ : الأخاني ، ج ١ ، Xill ، ص ١٣  
( دار الكتب ) .

٢ - انظر ، لامية العرب .

أو غير ذلك ، بل تعدت ذلك إلى الشعور بالترية .. عزبة الوحدة ،  
والانزلال بعد الموت في القبر . وهذه أبعد صور الاعترا باماناً في الزهرة  
والجزع ، كما ظهر هذا في أشعار : ليد ، والحارث بن حلزة ، والقياني .  
لأن الإنسان ، ينظر ، قد يستعين على اعترا به بالرحيل ، ينسى به أشجانه ،  
وقد يأنس إلى وحش الصحراء كما أنس الصماليك ، وقد يتخلص من  
اعترا العمودية واليون حين تمتحه الطبيعة قوة ودكاء يصارع بها حسيق  
يظفر بالخلاص كما فعل عنترة ، لكن غربة الموت لا أنس فيها ، ولا  
أمل في الخلاص منها على أية حال . إنها النهاية الحتمية الطبيعية لكن  
إنسان ، التي لا مفر منها : « كفى بالموت نأياً واعتراياً » (٣) ، وبهذا  
المعنى كتب العلي بن النعمان :

ألا علاني قبل نوح النوائح      وقبل ارتقاء النفس بين الجوائح  
وبعد غد ، بالهف نفسي على غد      إذا راح أصحابي ولست برائح  
إذا راح أصحابي تفيض دموعهم      وغودرت في الحدي علي صفائحي  
يقولون هل أصلحتم لأخيكهم      وما للحد في الأرض الفضاء بصالح

وهكذا ، فأكثر ما يجشاه الشاعر من الموت وحدته ، إذ بعد  
فراق الأهل والأصحاب يتركونه وحيداً في الغراء .

ولعل ظروف الاجتماعية ، بل لوضع الحضاري الأثر الأكبر في نوعية

دوافع الاغتراب ومهرات الحنين ، إذ نجد في بيئة ثانية دوافع أخرى للفرية وصوراً للحنين مختلفة ، فالشعراء الذين عاشوا في العراق ، كأمين جعفر مثلاً ، نموا وحنوا إلى قصور ( آل محرق ) : الخورنق والسدير ، لا إلى الاطلال والرسوم :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم على ميماد  
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد  
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميماد (١)

لقد أشرنا سابقاً إلى أن النزعة العربية ( القومية ) تظهر إلى جانب النزعة القبلية - عندما يكون الصدام مع الأعداء ، فمثلاً أعنى قبس يفتخر بيوم ذي قار الذي كان لبكر على المعجم ( على كسرى وجند الفرس ) مذكراً بأجداد بكر الماضية :

أما تميم فقد ذاقت عداوتنا وقبس عياله من الخزي والأسف  
وجند كسرى غداة الجنو صبّهم  
متأ غطاريف ترجو الموت والنصفوا  
لو أن كل معد كان شاركتنا في يوم ذي قار ما أخطأهم الشرف (٢)

١ - الأملاني ، ج ١٧ ، ص ١٧ ( دار الكتب ) .

٢ - العقد الفريد ، ج ١١ ، ص ٨٢ ؛ ديوان الأعشى ، ص ٢١٠ .

وفي هذا المعنى يقول المديب المجلي :

وما يعدون من يوم سمعتُ به للناس أفضل من يوم بني قار  
ما أوقد الناس من نار لمكرمة إلا اصطلينا وكننا موقدي النار  
جئنا بأسلابهم والجيل عابدة لما استلينا لكسرى كل أسوار (١)

لكن يتراجع فيما بعد الأساس القبلي العربي للحنين ليحل محله أساس إسلامي عام ، ويتجمع الجند أول الأمر ، في معسكرات هناك ثم لا يلبسون أن يستقروا بعد ذلك . وقد يستعجب الوالي معه بعض جماعات من قومه ، الاعتقاد عليهم ، أو بدافع القرابة بتشجيع بعض أقرانه للسفر إليه ، إلى ولايته ، لالتباس أسباب الرزق والحياة ويختلط ويتأزج هؤلاء القادمون بالسكان الأصليين ، وهكذا أخذت تتكون في البلاد المفتوحة جاليات عربية ، بدأت تتلاءم مع ظروف الحياة الجديدة من الاختلاط والتنوع والاستقرار ، محافظة في البدء على الكثير من عاداتها العريقة البدوية . إن الضرورة الملحة دوماً للدفاع أو الهجوم ، وللحفاظ على المناطق المفتوحة ، لم تسمح للعرب أن يجنحوا في البداية حياة استقرار وهدوء ، إذ إن العمليات الحربية قد أخذت منهم قوة ووقتاً كبيرين ، وهذا ما أثر أيضاً على بلاد العرب غير الحجازية - الجزيرة العربية ومراكز انطلسلاق الزواجر وجيوش الفتح ، ذلك لأنهم كانوا دائماً في قلق واضطراب وتتبع لاختيار النصر والمعارك والفتوحات - أخبار جنسهم الذين ما هم إلا

١ - العقد الفريد ، ج ١١ ، ص ٨٢ .

أقرباؤهم وأهلهم . وما يوضح هذا الوضع الحقيقة التالية ، وهي أنه في هذه الظروف المعسبة والاضطرابات الحاصلة عند العرب ، فإن الشعراء - لكونهم « المواطنين » الحقيقيين بلديهم - ، لم يكتبوا قصائد طويلة . لكن شعرهم قد حمل صفة البطولة - الملحمية ، والوطنية ، والقصيرة والمختصرة . وكقائدهم ، فإن أشعار تلك المرحلة تألفت من عدد من الأبيات ، نصف بطولتها الحارين ، أو تمر عن الحنين إلى الوطن الأم ، قبلت هذه الأشعار في تخليد بطولة ، أو في ذكر الأشواق والوجد إلى الأرض الأم ، وكانت تعبيراً عن الآلام ، التي تلغ كبد الحارب ، وهو يشتاق إلى مراحله الأولى ، ويحن إلى موطنه التي أقبل منها . في كل من هذه القصائد عبر عن شوق وحنين وألم المقاتل ، الفاعب للزور والفتوحات ، والذي يقع في بعد عن موطنه وأهله ، وعبر عن أحلام المقاتل في أن يكون بقرب أهله . فالغربة والحنين هنا ليسا بسبب البعد عن القليلة ومضاربها ، لكنها بشكل أقوى ، بعد عن الجزيرة العربية كلها ، عن سائر وعث الأهل هناك ، وعن نموذج الحياة فيها ، وعن طبيعتها . ونلج في هذا اللون الجديد من الحنين الضيق الشديد بالتربة ، وبلورة الشعور العاطفي تجاه مسقط الرأس ، فكل شيء في المكان الجديد يذكر الشاعر بوطنه ، شبه جزيرته : الجبال والنوق ، والحلم ونوحه ، وأسماء الأمكنة ، وأشجار النخيل . ولا يزال الشعر القال في القانسية عن نخلي حلوان شمرًا رطباً مبرراً قرؤه فتشعر ما لهؤلاء الواجدين من عمق المواطن وقوتها :

أسعداني يا نخلي حلوان وإبكيا لي من ريب هذا الزمان  
واعلم أن ريبه لم يزل يف رقب الألف والجيران

ولعمري لو ذقتنا ألم الفرق قد أبكا كما الذي أبكاني  
أسعداني وأيقنا أن نحسأ سوف يلغاكما ففتقران (١)

إضافة إلى هذا لا بد من الإشارة إلى أن الناس ، الذين بقوا في شبه الجزيرة العربية ، كانوا قد عاشوا أيضاً مشاعر الحنين والشوق إلى أولادهم وأصدقائهم ، المسافرين مع الزواجر في عداد الجيوش الفاتحة . إن هذا الشعور بطير يوشح في أشعار ذي البريق الهذلي ، الذي تركه أولاده وهو شيخ هرم ، وبعد الفتوحات في مصر لم يعودوا إليه ، وهو غالباً ما كان يقف على طريق قوافل العائدين من مصر ، مسألاً عن أبنائه . ومثل هذا النموذج نجده ، عند أبي سحر الهذلي أيضاً ، الذي تركه أبنائه وذهبوا في الحملات ، مما ولد عنده الشوق الزائد لهم والحنين إليهم . إن شعر الحنين والوجد هذا ما كان إلا تسمية لشعر الأطلال ، وبكاء الدليل وندب الأحبة ، وتطوراً له . أما شعر البطولة والفتوح فلم يكن إلا تعبيراً لشعر الفخر . لكن هذه الأشعار الوطنية البطولية إنما تمتاز عن أشعار الفخر التقليدية ، بالرغم من الاجتماعي الذي كانت تطبعه ، وبالزعماء العربية الأوسع ، والشاعر الأعم . هذا ما يبدو ، مثلاً ، في الأشعار المقالة بعد وأمة القانسية :

فحييت عنا عكرم بنة خالد وماخير زاد بالقليل المصرد  
وحيتك عي عصبه نخيرة حسان الوجوه آمنوا بمحمد

أقاموا الكسرى يضربون جنوده بكل رقيق الشفرتين مهتد

وقول آخر :

وجدنا الأكاذين بني تميم غداة الروع أصبرهم قتالا  
بحور للأكسر من رجال كأسد الغاب تحسبهم جبالا  
تركن لهم بقادس عز فخر وبلخفين أيتاماً طوالاً (١)

إن ذلك الجيل الذي كان يرى نفسه غريباً ، ملارثاً في تلك الديار المفتوحة المزوة ، قد حل محله جيل ثان ، كان يشعر بأن هذه البلاد التي كانت - مفتوحة - هي وطنه الذي تربط به حياته ورغباته وآماله . إذ كان عليهم كثير من الضرب في الحياة والمعيش كأبناء البلاد الأصليين . لكن رغم هذا ففي أواخر أعمارهم البلاد لتلك الوقت لا تزال تتردد الالامات عن الجزيرة العربية ، ربما فقط للامعة ذوق البلاط في التمسك بالتقاليد العربية ، وبعداً عن التعبير الواقعي .

إن كل الصعوبات التي ظهرت نتيجة سوء العلاقة بين الحجاز والحلافة الإسلامية في سورية قد انعكست في الحياة الثقافية في الحجاز ، واضطهاد ، والتمييز في الدولة الإسلامية بالنسبة للعلاقة مع الحجازيين قدا إلى طواهر جديدة من الاغتراب والحزن وعدم . فمثلاً كان الاحوض منفياً إلى اليمن ،

١ - الطبري ، المجموعة 1 ، ص 7 ، س 3365 ( طبعة  
أوروبية ) .

والعربي سجيناً في مكة . وبعد سقوط دولة بني أمية هرب بعض الشعراء كبند الرحمن الماخول إلى المغرب ، وبعضهم الآخر كان ممتقلاً ، وفريق ثالث أجبر على الغربة والاضطراب . وعلى هذا الأساس سنتتبع التطور التالي لمشاعر الحزن والغربة ، حيث مجالاتها الاطر الثلاثة التالية :

- ١ - الشعراء المسجونون .
- ٢ - الشعراء المنفيون والمهاجرون .
- ٣ - الشعراء المهاجرون .

\* \* \*

## ١ - الشعراء المسيحيون

إن سجن الشعراء كان مستخدماً منذ القدم ، حتى في العصر الجاهلي ، في الإمارات العربية ، واستمر في عهد الدولة الإسلامية . واقد شعر الشاعر وهو في السجن أنه وحيد ، معزول عن الحياة ، وعن أهله وإقربائه . وهو في طلبه السباح والرحمة والدفء من سيده ، كان يمدحه ، ويتوعدده ، وبسبب وهيجو الوشاة ، ويصف ليالي الارق التي يجيهاها ، وهو مكبل بالقيود ، ويطلب أحياناً الخلاص عند الاسدقاء ، أو يدركه الموت فيريحه .

ليت أني أخذتُ حتفي بكفي ولم ألق ميتة الأفتال

أحظه في الحياة من سيده سلسلة وقيد ؟ ! ورغم أن حبه قد طال لم يبقأ به سيده ، وترك عياله في فاقه :

فبيتي مقفر إلا نساء أرامل قد هلكن من النجب

وبناقض منطقياً : إن أخطأ فقد نال عقابه ، معالياً بالأفراح عنه ، وإن عل قد عوب . ما يريه ويحسه هو الموت الخيف ، فان وقع فالندم يصيب السيد الساحن :

وإن أهلك تجد فقدي وتُحْدَلْ إذا التقت العوالي في الحروب

ثم يئس فيوكل أمره إلى ربه ، لقد أرق فم يفو على السلام ، حتى كأن الصبح ليس بآت ، موثق شديد الوثاق في الحديد ، وماله إلا أن يستنجد بأخوته لاقادته من هذه القرية ، ومن خطر الموت المحتق به<sup>(١)</sup> . وترتبط بهذا اللون اعتذاريات النابغة من النعمان بذاته ، الذي توعدده فندلا لا يتوى على النوم كأنه للنبغ أضي رقطاء ، وهو ثائه في الصحاري يهرب سقوة النعمان :

فأنت كلاليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

وتجد الحنين وشعور الوحدة والقرية عند المسيحيين الشعراء في أشعار شعراء المصور المتلاحقة أيضاً ، فقرية السجن والحنين لأمائه والأهل هي غربة الخطيئة الذي سجنه ابن الخطاب لهجائه الزرقان :

ماذا تقول لأفراخ بذى مريح زغب الحواصل لأماء ولاشجر

ألقيت كاسهم في قمر مظلمة فأنقر عليك سلام الله يا عمر

أهلي فداؤك ! كم يئس وينهم من عرض دلوية تعمى بالخير<sup>(٢)</sup>

وتظهر وحشة القرية بشكل أوضح في شعر ضامي من الحارث البرجمي

١ - الأغاني ، ج ١ ، ص ٩٧ - ١٥٦ ، شعر عدي بن زيد ، الذي سجنه النعمان بن المنذر في سجن منزل .

٢ - الأغاني ، ج ١ ، ص ١٨٦ ( دار الكتب ) . شعر الخطيئة . [ الداوية : القلاذ ] .

الذي حبسه عثمان بن عفان في المدينة ، ولم يزل في حبسه حتى مات . إذ إنه غريب في المدينة رغم كونه فيها :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فاني وقياراً ، بها الغريب  
وما عجالات الطير تدني من الفتى رشاداً ، ولا عن ريشه يخيب (١)

وهذه بين حشرهم العذري وهو في سجن المدينة أيام معاوية بصور قسوة العيش في السجن ، إذ المنيّة متوقفة ، ويشنق لاهله ، متعباً أن تكون الرياح الواسطة بينه وبينهم :

ألا ليت الرياح مسخرات نحتاجتنا تباكرُ أو تؤوب  
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا وتخبر أهلنا عنا الجنوب (٢)

ويحس بالأم الشديد في شعر الرجي الذي أمضى في سجن محمد ابن هشام [ حال هشام بن عبد الملك ] ، تسع سنوات ، ومات فيه بعد أن تعرض لأبشع أنواع التشكيل والقتل والتعذيب ، وبلغ في أشعاره الضياع الكامل :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد نفر  
وصبر عند معترك المنايا وقد شرعت أستثما بنجري

١ - ابن قتيبة ، ص ٢٠٣ (بريل) .

٢ - الخلفي ، أدباء السجون ، ص ٦ .

أجرُّ في الجوامع كل يوم فبا لله مظاتي وصبري  
كأنني لم أكن فيهم وسيطاً ولم تك نسبتي في آل عمرو (١)

حتى إن عبد الله بن علي في حبس المنصور كان يفتي بهذه الأبيات (٢) ، والحبس مصدر أرف الشاعر السجين ، الذي يربى النجوم :

أقول ليحيى ليلة الحبس سادراً ونومي به نوم الأسير المقيّد  
أعني على رعي النجوم ولحظها أعينك على تحبير شعره مقصّد (٣)

وتختلف طريقة مناجاة الشاعر السجين باختلاف معتقده ، فأبو العتاهية الزاهد سجين الرشيد إننا بذكر الرشيد بمسيره ومصير الناس أجمعين : بيوم اقيامة الحساب ، وبصبر الأمم الفائرة ، وبأن الحكم بينها سيكون الدين يوم الحساب :

إلى ديّان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم  
تروم الخلد في دار المنايا وكم قد رام غيرك ماتروم (٤)

١ - الأغانى ، ج ١ ، ص ٤١٣ ( دار الكتب ) . الجوامع : الأغلل ؛ عمرو بن عثمان بن عفان [ .

٢ - هناك أيضاً : ص ٤١٣ - ٤١٦ .

٣ - الأغانى ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ . شعر الحكم بن عبد الله عندما حبس في الكوفة مع صاحبه الأعمى .

٤ - الأغانى ، ج ٢ ، ص ١٧ ، ٣١ ، ٦٩ ( دار الكتب ) .

وإن يوم الحبس الطويل عند بشار ما هو إلا يوم البعث والحساب،  
الذي منه الخوف لا من حبس في طول :

كيف يبكي لمحبس في طول سيقضي ليوم حبس طويل  
إن في البعث والحساب لشغلاً عن وقوف برسم دارمجل (١)

وإن حنين وشوق الشاعر السجون إنما توظفه الحمامات ، التي  
تنوح بقرب السجون :

ومما هاجني وازددت شوقاً بكاء حمامتين تجلويان

ولقد قلى شمراء المراحل الاخفة أيضاً من مرارة السجن ، وم  
في السجن قد حنوا إلى الأهل والأقرباء :

هم في الحشا إن أعرقوا أو أشأموا أو يمنوا ، أو تجردوا ، أو أتهموا

وهم مجال الفكر من قلبي وإن بعد المزار فصفو عيشي معهم

أحياناً ما كان أعظم هجر كم عندي ، ولكن التفرق أعظم  
وغدوت بعد فراقكم وكأنني هدف نمر بجانيه الأسهم (٢)

١ - ابن قتيبة ، ص ٧٦ ، ( بريل ) .

٢ - محمد ، ك . أدب مصر ، ص ٢٠ شعر القاضي ، الذي نفي إلى  
اليمن وسجن فيها .

وحنوا أيضاً إلى ( الوطن ) وهذا ما ظهر في شعر الحنين إلى  
إربيل عند أبي الفضل الأربيلي الذي سجن عام ٦٢٦ هـ :

قيد أكابده وسجن مغلق بأرب شاب المغموم المفرق

يا برق إن جئت الديار بأربيل وعلا عليك من الدمامي رونق

بلسنم نجية نازح حسراته أبداً بأذيال الصبا تعلق

قليل الحبيب لك الفداء أسيركم من كل مشتاق إليكم أشوق

والله ما سرت الصبا نجدياً إلا وكدت بدمع عيني أغرق

كيف السبيل إلى اللقاء ودوننا شيا شاهدة وباب مغلق (١)

إنه شوق للوطن ، ووصف دقيق للسجن الرتيب الذي أوصدت  
أبوابه في وجه الشاعر المتحسر السجين .

وشعراء الأندلس ، الذين ألقوا في السجون ، لم يقصروا في

الافصاح عن حنينهم وشوقهم إلى وطنهم ومواطنهم ، فالشاعر عبد الملك  
الخلولاني مثلاً كتب في لياليه الأرق ، وقد شحط به الزار عن الأحبة  
والوطن :

ألوى بعزم تجلدي وأصبري نأي الأحبة واعتيادت كسري (٢)

١ - الحافظي ، ص ٢٣٢ .

٢ - الحافظي ، أدباء السجون ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وبهذا المعنى كتب الشاعر أبو الحسن بن زرار - من أغبيان وادي  
آشن بالاندلس ، والمهجور في مرسية ، كتب شعراً يفتقر شوقاً إلى بلاده ،  
طامحاً بالوعدة والمسرة :

أشد بلغ الشوق فوق الذي حسبتُ قبل للتلاقي سبيل  
فلو أني متُّ من شوقكم غراماً لا كان إلاّ القليل  
لقلاني بالتداني المنى وينشدني الدهر صبر جميل (١)

وسرب القفا قد حرك أشجان العتمد بن عباد وهو سجين في  
أغصان فقال مناجياً :

هنيئاً لها أن لم يفرق جمعاً - ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل (٢)

١ - هناك أيضاً ، ص ٢٤٦ .

٢ - هناك أيضاً ، ص ٢٤٦ .

## ٢ - الشعراء المنفيون والهاربون

إن غربة النفي والحرب شديدة القسوة على الشاعر فلجأ في الغالب الذي  
يعتري الشاعر فيمنع عنه النوم . وإذا كان النفي تطوراً لمعنى الخلع الذي  
رأيناه في الجاهلية ، فإن الحرب صورة أخرى من صور ترك القبيلة ،  
والالتحاق بأخرى ، إنما هنا الحرب إجباري من سلطة أو سياسة ،  
ويكفي توضيح هذا مقارنة ترك أمراء القيس قبيلته ، وهرب عبد الرحمن  
الفاخل من السلطة الباسية . الخلع والتارك للقبيلة يرتبطان حياتهما على  
هذا الأساس ، لأن القبيلة تنكرت لأول فلا سبيل له للمودة إليها ، أو لأن  
الثاني تركها طوعاً واختياراً . واليأس من المودة إلى القبيلة عندهما شبه  
استقرار على أية حال ، لكن النفي والحرب السياسي شيء آخر ، فالشاعر  
المنفي أو الهارب سياسياً يبقى على الدوام محافظاً على أمل المودة إلى وطنه  
حين تتبدل الظروف السياسية ، لكنه لا يدري متى تتبدل هذه الظروف ،  
وهل يتم به العمر حتى يشهد هذا التبدل ؟ أم يحترمه الموت قبل أن يرى  
وطنه مرة أخرى ؟ ، ومن هنا كان الاحساس العميق بالغلق الذي نلجحه  
مثلاً في شعر أبي تظيفة وهو في الشام منفياً عن المدينة من قبل ابن الزبير  
بعد وقعة الحرة :

أقرمني السلام إن جئت قومي وقيل لهم لدي السلام  
أقطع الدهر كله باكتئاب وزفير فما أكاد أنسام

نحوقومي إذ فرقت بيننا الدار ر وحادث عن قصدها الأحلام

ثم يأخذ بتداعد مواضع وطنه وقصوره ، حيث يشتاق إليها كثيراً  
ويحن . إن هذه الحسرة وهذا التأثر يحس به في قصيدة ثانية أخرى له :

ألا ليت شعري هل تغير بعد نأقبياء وهل زال العتيق وحاضره؟  
وهل برحت بطحاء قبر محمد أراهطُ غرُ من قرين ثبا كره؟  
لهم منتهى حي وصفو مودتي ومحض الهوى مني وللناس سائره (١)

وهذه أبيات لمجسول بأبي بها صاحب الأغاني [ ج ، ١ / ٣٠ ]  
شبية بما أورده لأبي قطيفة ، فيها الوعة والحنين والشوق :

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا حبوب المصلي أم كمهدي القرائن؟  
وهل أدو رحول البلاط عوامر من الحلي أم هل بالمدينة ساكن؟  
إذا برقت نحو الحجاز سحابة دعا الشوق مني برقها المتيامن

ورغم أن أبا قطيفة في مكانه ( أهدأ ) عندما أجلى بنو أمية  
عنه ، يولي نفسه بالتطلع إلى الشام ، أهل عشرته :

بكى أهدأ لما تحمّل أهلُه فسلع بفقد المآل أمست تصدّع  
وبالشام إخواني وجلّ عشريني فقد جمعت نفسي إليهم تطلّع

١ - الأغاني ، ج ١ ، ص ٢٦ - ٣١ ( دار الكتب ) .

إلا أنه يصرح في مكان آخر ، حيث هو في السبام ، بأنه لم  
يذهب إليها برغبته ، ويحن إلى الحجاز وإلى أهله الفاطنين هناك :

وما أخرجتنا رغبة عن بلادنا ولكنه ما قدر الله كائن  
أحين إلى تلك الوجوه صبابه كئاني أسير في السلاسل راهن (١)

ونعثر في أشعار عمر بن أبي ربيعة (٢) والأحوص (٣) ( الذينين إلى  
إلى اليمن من المدينة ) على عبارات الحنين والشوق ، والرغبة في العودة إلى  
الوطن . إذ يكتب ابن ربيعة شعراً على لسان حبيته ، متوجهاً لثريا قائلاً :

بالله قولي له في غير محتبة ماذا أردت بطول الكث في اليمن؟  
إن كنت حاولت دنياً أو ظفرت بها فما أخذت بترك الحج من يمن

ويلاحظ عند هؤلاء الشعراء بأن الغربة هي الحياة في بعد عن  
الوطن ، وعن الأهل والأخوة والأصدقاء والرفاق . هذا الحنين إلى  
الأصدقاء والرفاق ، من شبه المؤكد ، أنه ظاهرة تجددت قد حلت مكان  
الحنين إلى القبيلة . لكن ، هذا كله لم يعق ظهور المواطن والشاعر  
الدينية عند الشاعر ، والتعلق الطائفي بآل البيت ، وهذا ما يظهر في شعر  
أبي عدي البجلي الذي كان إلى جانب العلويين .

١ - هناك أيضاً ، ص ٢٩ ، ٣١ .

٢ - هناك أيضاً : ص ١١١ .

٣ - الأغاني ، ج ١ ، ص ٢٢٤ - ٢٦٨ .

ولذا أخذ ينسكب به بنو العباس . لقد ذهب إلى الطائف حيث ولها محمد بن عبد الله بن الحسن ، لكنه لم يكذب بمضي إليها حتى أحس بهزيمة العلويين فيها . فخرج هائماً على وجهه إلى اليمن حيث يقول :

هيبات تلك معالم من ذاهب أمسى بجوحى أو يحقل قباب  
شطت نواحي الألب وسافه لقرى يمانية حمام ككتاب

واللاحظ ان الاغتراب هناعن الاخوان ، والاصحاب، والآلاف قبل كل شيء . وأكبر الظن أن تلك هي الرواية الجديدة التي بدأت تحمل محل الروابط القبلية ، وإن كانت الجديدة لم تقو على منع الشاعر من عصبية مذهبية ، دينية لآل البيت . وهكذا فقد ساق التطور الحضاري إلى هذه الرابطة كما ساق المجتمع البدوي القديم شاعراً الجاهلي إلى الحديث عن رابطة الدم . هذه الروابط لا بد وأن تجد صداها ، لأن مجتمع المدينة يختلف عن مجتمع البادية ، حيث تنقلص في المدينة القيم البدوية لتظهر مكانها القيم الحضارية . ولكن يجب أن لا ننسى ان عاصمة الخلافة بغداد خاصة ، والعراق عاصمة من أكثر المناطق معاناة للصراع بين البسماوة والحضارة . فلى الرغم من قدم التراث الحضاري في العراق فإن القيم البدوية الآتية إليه من الصحراء المجاورة لها تأثيرها الدائم . على أي حال، منذ أيام الاستقرار، بدأت القبائل تلحظ في مجتمع المدينة ، وتقوم العلاقات الجديدة على أساس روابط الصداقة . ومن هنا يكتمل الحديث عنها في كتب ابن القفيع ، وفي شعر بشار ، وعند أبي فراس الحمداني ، وأبي حيان التوحيدي . فلنكسحاً قالت قديماً : « رب أشرك لم تله أمك » ، ويرى أبو تمام :

فامذا القراية لا تقرب قاطماً وإذا المودة أقرب الأنساب (١)  
وهذا المعنى قل المبرد :

مالقرب إلآلمن صحت مودته، ولم يحنك، وليس القرب للنسب  
كم من قريب دوي الصدر مضطفن ،  
ومن بعيد سليم غير مقرب (٢)

وهذا ما يلاحظ في وقت متأخر من استعمال الحنسين ، في المراسلات الثرية ، للاخوان والاصحاب ، كما عند أبي العلاء، والهمذاني (٣) .

ولم يخرج ( البجلي ) وحده هائماً على وجهه عقب انحصار العباسيين ، بل هناك غيره كثيرون ، إنفا برزم عبد الرحمن الداخل ، الأمير الشاعر ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . كان له من العمر عشرون عاماً عندما اوقع السفاح بقبلاً الأمويين ، لكنه فر مع بعض الجند عبر نهر الفرات سباحة . في حياته المضطرات ، والتمار ، إذ سار متنقلاً من الشام ، إلى مصر ، إلى شال أفريقية ، حتى وصل المغرب ، واحتفى بقبيلة « نفرة » ، التي بت لها بصلة الخوولة ،

- ١ - المقد الفريد ، ج . ١ ، ص ٢٢٨ ( القاهرة ، ١٢٩٣ هـ ) .
- ٢ - المقد الفريد ، ج . ٢ ، ص ٢٢٩ ( القاهرة ، ١٢٩٣ هـ ) .
- ٣ - متر ، آدم . الحضارة الإسلامية ، الترجمة العربية ، ص ٣٥٠ ، الترجمة الروسية ، ٢٠٧ .

واستغل الخلاف بين البعنين والمضربين في اسبانيا ، فانهت بذلك قصة عبد الرحمن الشريد ، وبدأت قصة عبد الرحمن الملوك الاموي في أقصى المغرب . وكان ينس عن آلامه من حين إلى آخر بقطوعات شاعرية . رأى ذات يوم نخلة بقصر الرصافة في ضواحي قرطبة ، وتصور المشابهة بينها ، كالجمل مجلوب إلى الغرب ، وسيد عن بلده فقال :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

نشأت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت : شبيه في التغرب والنوى

وطول التناهي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك في الاقصاء ، والمتأني مثلي

سقتك غواذي المزن من صوبها التي

يسح ويستعري السماكين بالوبل (١)

وله قطعة أخرى رقيقة يصور فيها البعد عن الوطن :

إن جسمي كما تراه بأرض وفؤادي ، وما يكن بأرض

١ - راجع صورة أخرى لاغترابه ، واغتراب النخلة في ( الشعر الأندلسي ) لجارسيا جومس ، ص ٢٧ .

فبو يعيش في بلاد الغربة بحجمه ، أما عواطفه فتترك في الوطن . والملاحظ أن الشاعر يستخدم ضمير الجمع [ نا ] معبراً عن نفسه . ونجد هذا أكثر وضوحاً عند المتنبي ، حيث نجد الاحساس بالثبات قد تضخم . ولا شك في أن حياة المتنبي الشخصية ، كانت عاملاً من عوامل بروز ( الأنا ) .

نوع آخر من السجن هو الأسر ، وفيه يظهر المذنبين ، وتبرز الروع بشكل أوضح ، وأكبر ، وبخاصة إذا كان الأسر في بلاد الأعراب . وغادجنا عن شعراء الأسر ثلاثة : أبو الطمحان [ جاهلي - اسلامي ] ، وأشع همدان [ ادوي ] ، وأبو فراس الحمداني [ عباسي ] .

ففي حرب الفساد بين جذيلة والنوث الطائفتين وقع أبو الطمحان أسيراً ، فقال في أسره ، واصفاً أرقه وهمومه :

أرقت ، وآبتي الموم الطوارق ولم يلق مالاغيت قبلي عاشق (١)

أما أشع همدان فقد وقع في أسر الدلم مدة عندما أغزاه المجاج ، وله في أسره قصيدة فيها شوق للجزيرة ، ولظلمات تسير في وادي ذي خشب ، بالمدنية ، ولجولتها التي من نخل يرب بظلمها ذي الرائحة الذكية ، ولحيوته . وبعد كل هذا يدعو لتحرير ، والتجمل لما ألم به من أسر في يد الأعداء ، بعد أن كان مقاتلهم الصنديد :

١ - الاغاني ، ج ٣ ، XIII ، ص ١٠ ( دار الكتب ) .

وإذا تصبكت من الحوادث نكبةً فاصبر، فكل مصيبة ستكشفُ  
 ولئن بكيت من الفراق صبايةً إن الكبير إذا بكى ليعتفُ  
 عجباً من الأيام كيف تصرقت والدار تدنو مرةً وتقدفُ  
 أصبحت رهناً للعادة مكبلاً أمسى وأصبح في الأدام أرسفُ  
 ولقد أراني قبل ذلك ناعماً جدلاً أن أرى أن أضم وأنفُ  
 واستنكرت ساقى الوثاق وساعدي

وأنا امرؤٌ بادي الأشاجع أعجفُ (١)

أما أبو فراس الشاعر العربي والفارس، ابن عم سيف الدولة،  
 [ توفي - ٣٥٧ هـ ]، وواله على منبج فقد وقع أسيراً بيد الروم،  
 وقضى في أسره ثلاث سنوات في حصن خرشنة، وسنة في القسطنطينية،  
 يكاد يقتله الحزن، والشوق، والشكوى الخائبة. لقبسد أفراد الروم له  
 قصراً بطل على البحر، لكن في سمع أبي فراس كانت تكرر أسوأج  
 البحر، فتزكي إحساسه بالوحشة، والغربة، فيزفر زفرات تقطع القلب.  
 ولعل صورة أسره ما تزال، بصدقها، وحرارتها، وعفويتها، أثرًا خالداً،  
 من أخلد صور الأسر في الأدب العربي. فقليل أن نغزف الجسراح في  
 صدر التجارب الإنسانية الحزينة بثل الحرارة التي نزت بها جراح أبي

١ - الأغانى، ج ١، ص ٣٦ - ( دار الكتب ) . [ أعجف :  
 قليل الإجم ] .

فراس في روميته . وروميته تشبه أن تكون مذكراته ، ورسائله في  
 الأسر ، فقد كان يبكي في بعضها ما ضيه الرائع ، وبناجي نفسه ، وينسج  
 جراحه ، ويجاور في بعضها عظماء الروم ، ويرد عليهم مقلاتهم في العرب،  
 ويرسل سيف الدولة ، فيذكره بالثاني الجليل ، ويلاطفه في بناء الامارة ،  
 ويرابط الدم التي تجمعهما ، ويعتب عليه شوره في السبي لخلاصه ، ويرسل  
 أمه الوحيدة القيمة في منبج فيوصيها بالصر ، ويرسل أصدقاءه ، فيصف  
 أسره ، ويغني هذه القديم . وأم ما يستوفنا عنده : شكوى الغربة ،  
 والشوق ، والحزن . فلتسمه يقول مناجياً سيف الدولة :

وقد كنتُ أخشى الهجر ، والشمل جامع

وفي كل يوم لقيت وخطاب

فكيف وفيما بيننا ملك قيصر والبحر حولي زخرة وعباب؟

إذ يشر هنا بالبعد الوهيب ، لا عن سيف الدولة فقط ، بل عن  
 وطنه ، وأهله ، وعزبه الغابر :

بلى أنا مشتاق ، وعندي لوعة ، ولكن مئلي لا يذاع له سرّ

إنها ألفاظ الشوق ، والحزن ، لكنها كبرياء الفارس التي تتدحر  
 أمام عظمة الشوق . وشكوى الأصدقاء ، وخيانتهم :

كثر التدبر والحياة في لنا س فذا أن ترى صديقاً صدوقاً

قلّ أهل الوفاء ، واتسع لنا س ، من التدبر ، والجفاء طريقاً .

إنها غربة الأسر ، وغربة الأصدقاء ، حتى ولم البعد عن الأم  
الوحيدة ، الحزينة ، القابعة بعيدة عنه تسأل الركبان عن حاله :

يا حسرة ما أكاد أحملا آخرها مزعج ، وأولها  
عليلة بالشأم ، مفردة بات بأيدي العدا معلها  
نسأل عنا الركبان جاهدة بأدمع ما تكاد تمها  
يا أيها الركبان! هلا لكنا في حمل نجوى ، يخف محملها  
قولا لها إن وعك كلامكيا - وإن ذكرني لها لينهلها-  
يا أمتا! هذي منازلنا تركها تارة ونزلها (١)  
فمر الساعات بأي فراس وكأنها اعوام :

تطول بي الساعات وهي قصيرة وفي كل شيء لا يسرك طول  
وتب عليه نسيات [ منبج ] العلية ، فيستقبلها ، وقد فتح صدره ،  
وأخذته نشوة الماضي الذي ازهر في ربوعها ، حاناً لها :

قف في ربوع المستجبا ب ، وحي أكفاف المصلبي  
تلك المنازل والملا عب ، لا أراها الله محلا

١ - ديوان أبي فراس ، ج ٢ ، ص ٢٢ - ٢٣ ، ٢٠٩ ، ج ٢ .  
III ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

أوطنتها زمن الصبا وجعلت منبج لي محلا  
حيث التفت رأيت ما ء سائجا ، وسكنت ظلا (١)

وتشتد به الآلام ، فيخاطب الحام شاكياً له القيد ، والغربة عن  
الوطن ، والوحشة ، والاسر ، فها الحجة الكائنة بينها بنعم انساني  
صاف عميق وسيع ؛ الصق كبده بكبد الحامة الحزينة فاستشعر حزنها ،  
واستشمرت حزنه ، فأنس بها :

أقول وقد ناحت بقربي حامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي  
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الصعوم تعالي  
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلقة ولكن دمعي في الحوادث غالي (٢)

إن في روميته الغربة الحقيقية ، والصدق الماطفي ، والشوق  
للوطن ، ولجده به ، والشوق لامارته ومدنته ، فكانت روميته ملونة  
بهذه المראה الخصبية ، والشوق التراثي .

١ - المستجاب والمصل - قصرا أبي فراس في منبج .  
٢ - الخلفي ، أدباء السجون ، ص ٢١١ ؛ ديوان أبي فراس ، ج ٢ .  
III ، ص ٣٣٥ .

### ٣- الشعراء المهاجرون (الشعراء في المهجر)

لقد أثّرنا فيما سبق إلى أن بعض المهاجرين المسلمين ، وهم بشعرون بقل الفرقة مع الوطن ، قد عبروا عن حنينهم وشوقهم شعراً ، يفيض حنيناً إلى الحجاز . إن شعور الحنين هذا والشوق ، شوق الشعراء في الغربة ، قد تضاعف بصورة خاصة عندما شعروا بقرب الموت في بدهن الوطن . وهذا ما يظهر بوضوح في شعر مالك بن النرب وهو بخراسان في جند سميد بن عثمان بن عفان ، ببداً عن مكة والجزيرة :

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة

بجنب الفضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الفضا لم يقطع الركب عرضه

وليت الفضا ماشى الركاب لباليا

غداة غد بالهف نفسي على غد إذا أدجلوا عني وأصبحت ثاوريا

تذكرت من يكي علي فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا

وبالزمل مني نسوة لو شهدنني بكين وفدّين الطيب المداويا<sup>(١)</sup>

١ - ابن قتية ، ص ٢٠٥ .

وها هو عوف بن عجم الخزاعي يخرج من الجزيرة ، وينقل مع طاهر بن الحسين ثلاثين عاماً ، ثم مع ولده عبد الله بن طاهر من بده يشهد معها الحروب في الري ، وخراسان ، ويقسم حيث يتبعون في ولايتهم ، ويستند به الحنين إلى وطنه ، ويرغب في العودة ، لكنه لا يجاب إلى طلبه ، فيثبث ، في قصائد حزينة ، إلى وطنه ، وإلى أبنائه ، ويزداد إحساسه بالغربة بعد أن دهمته الشيوخة ، فيتلطف إلى الاستراحة من رحلته الطويلة بالعودة :

أني كل عام غربة وزروح أما للنوى من ويلة فتريح؟

وأرقتني بالري نوح حمامة فنحت ، وذو اللب الحزين ينوح

على أنها ناحت فلم تر عبدة ونحت وأسراب الدموع سفوح

وناحت وفراخها بحيث تراها ومن دون أفراسي مهامه فيح

ألا إياهم الأياك فرخاك حاضراً وغصنك ميتاً فعيم تنوح<sup>(١)</sup>

وهنف في مكان آخر : [ وعت بالوطن وجداً بها ]<sup>(٢)</sup> .

إن مفهوم الوطن يتطور عند الصمة القشيري ، فيصبح كأنه نوح بالحياة ، لا مجرد أرض ، أو اسماء أماكن ، أو ذكريات شبيب<sup>(٣)</sup> . فكانه يعيش بحسبه في أرض الغربة ، أما فؤاده فهناك ، في الحى :

١ - طبقات ابن المعتز ، ص ٨٧ .

٢ - هناك أيضاً ، ص ١٨٨ .

٣ - انظر الاغانى ، ٧١ ، ص ٣ - ٩ [ دار الكتب ] .

إذا ما انتال الريح من نحو أرضكم أتتنا بريناً كم فطاب هبوبها  
أتنا بريسح المسك خالط عنبراً ورييح الخزامى باكرتها جنوبها  
وهل يسأل عنه الحمى كما يفعل هو ؟ :

وأسأل من لا قيتُ : هل مُطير الحمى ؟

فهل يسألنُ عني الحمى : كيف حالها ؟

واين مباده ، وهو عند الوليد بن يزيد بالشام ، يمدحه ، وينال  
اعطياته ، يمين إلى أهله ، ووطنه بنجد . لقد قال الوليد ، وهما بابا بين  
[ موضع كان ينزله الوليد في الزبيح ] :

لعمرك إني نازل بأباين

لصوءٍ رٍ مشتاق . وإن كنت مكرما

أيتُ كأي أرقد الدهر ساهر

إذا بات أصحابي من الليل نوما

فقال له الوليد : يابن مباده ! كأنك ضجرت من فرنا ، فأجابه :  
ما مثلك يا امير المؤمنين بضجر منه ، ولكن :

ألا ليت شعري هل أيتن ليلةً بحرّة ليلي حيث ربّيتني أهلي

وهل أسمع من الدهر أصوات هجمة تطالع من هجل خصب إلى هجل ؟  
بلاد بها نيطت عليّ تنامي وقطيعن عني حين أدركني عقلي  
فإن كنت عن تلك المواطن حابسي

فأيسرُ عليّ الرزق ، وأجمع لذن شعلي (١)

ولا نترك الحديث عن الجزيرة ، والشوق لها دون انت نشير إلى  
شاعر تشدد في البوادي أكثر عمره ، وهو قيس بن الملوح - مجنون  
ليلي ... وقصة حياته معروفة : فهو غريب في ارض بني عامر ، غريب  
في تضرده ، غريب في وحدته ونحواله . ذكر له صاحب الاغني (٢) اربع  
مقطوعات يشكو فيها اغترابه ، وينشوق إلى الحمى ، فقد [ أفرد أفراد  
الطريد ] ، وهو صاحب الامل الضائع : [ فليست عشبات الحمى رواجع ]  
ويردد :

أدياي إمامي في انقطاعي وغربي

إليك ثواب : منك دين ، ولا تقد

١ - ابن قتيبة ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ [ ريل ١٩٠٤ ] ؛ الاغني ،  
II ، ص ٣٠٩ - ٣١١ . انظر هنا الرواية الثانية عن معارضة  
ابن مباده لقصيدته عبد السلام بن القتال .  
[ سوسر : اسم مكان ؛ حرة ليلي : مكان قرب المدينة المنورة ؛  
الهجمة من الابل : فوق الاربعين ؛ الهجسل : الطلث من  
الارض ] .

٢ - الاغني ، II ، ص ٢٧ - ٦١ .

عديني - بنفسني أنت - وعداً فرعاً

جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد

يرى بلاداً ينكرها ، وقوماً لا يعرفهم ، فيسألهم عن جبل التوباد ،  
وأرض بني عامر ، فيقولون : « ابن أنت من أرض بني عامر ؟ : عليك  
بنجم كذا » ، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد ، فإذا رآه قال :

وأجشمتُ للتوباد حين رأيته وكبير للرحمن حين رأيته  
وأذريتُ دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعاني  
فقلتُ له : قد كان حولك جيرة وعهدي بذلك الصرم منذ زمانني  
فقال : مضوا ، واستودعوني بلادهم

ومن ذا الذي يبقى على الحدثنان (١)

فالغربة عنده ، وإن كانت غربة رحيل ، لكنها تحصيل دلالات  
نفسية ، فقد يكون بين اهله ، ولكنه يحس بالغربة ، وليس جبل التوباد  
أكثر رمز يوحي بمعنى الامومة ، والطمانينة ، ونفي الاغتراب .

إضافة الى هذا ، ففي العصر الاموي أيضاً يظهر الارتباط بالارض  
والوطن مقروناً بالعيشة الحسنة . يفهم هذا من سؤال عبد الملك بن  
مروان للحارث بن خالد الخزومي - واليه على مكة : « اي البلاد احب

١ - الاغانى ، ج ٢ ، ص ٢٧ - ٦١ .

٣٦٨

إليك ؟ فقال : ما حسنت فيه حالي ، وعرض وجهي ، ثم قال :

لا كوفة أمني ، ولا بصرة أبي

ولست كمن يثنيه عن وجهه الكسل (١)

وعندما اجتمع الاخفاق في الحياة ، وطول القام في العراق عند  
ابن المولى [ غصنم اللولتين ] ، هتف بصراحة ان الإقامة في العراق  
ضلال ، وهو يتركه المدينة إنما كالذي ترك البحار ، ويميم الاوشال ،  
ولشفاق ، وحسن إلى المدينة :

ذهب الرجال فلا أحس رجالاً وأرى الإقامة بالعراق ضلالاً  
وطربت إذ ذكر المدينة ذاكر يوم الخميس فهاج لي بنبألاً  
طرباً إلى أهل الحجاز ، وتارة أبكي بدمع مسيل إسبالاً  
إن الغريب إذ تذكر أوشكت منه المدافع أن تفيض عبالاً (٢)

لقد حدث تطور في مفهوم الوطن ، وخاصة بعد تنازع الثقافات  
الأم بين العباس ، فلم يعد الوطن هو الجزيرة العربية وحدها ، ولم يعد

١ - الاغانى ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ ( دار الكتب ) .

٢ - الاغانى ، ج ٣ ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ [ دار الكتب ] ؛  
[ الاوشال : الماء القليل : اللبالب : الهم : علال : مرة  
بعد مرة ] .

الشعر العربي - م ٢٤

٣٦٩

الحنين إلى الوطن هو الحنين إلى هذه الجزيرة فقط ، إنما غدا الوطن تلك البقعة من الأرض التي يعيش عليها الشاعر ، وترتبط بها حياته . بل طلالوك - هو المدينة .. الخ ... ولقد جمع ياقوت الجوزي فصلاً خاصاً في المدن : من فارقها من الشعراء ، ومن حن إليها . ولهذا حل الحنين إلى مدينة الشاعر محل الحنين إلى الجزيرة العربية في أكثر الأحيان ، حيث غدا هذا الحنين وجهاً آخر - قد يكون بعيداً نوعاً ما - من وجسوه العصبية الإقليمية التي ظهرت أيام بني أمية ، وحلت محل الحنين إلى الحجاز ونجد [ فشر ينتصر للأوراق ، وآخر للشام ، وكان هذا أساساً لوطنية فيا بعد <sup>(١)</sup> ] ، فللشاعر محمد بن وهب قصائد كثيرة في الحنين إلى البصرة . ويذكر شاعر آخر ( الكرخ ) وهمسو في مصر ، في رجب الحبيب ، فتلدنه الغربة ، وتتجرك فيه لواعج الحنين إلى بغداد [ ذكر الكرخ نازح الاوطان ] . ومطالع بن إيس يشوق إلى الري ، ومن بها وهو بجلوان ، [ قرب بغداد ] ، ويحس بوحشة الغربة في قصيدته المشهورة ، [ أسمعاني يا تخلي جلوان .. ] . ويحس أبو تمام إلى ألبه بجلوان مصر ، وإخوانه بالفسطاط ، ويعجب لتصاريف الدهر التي ترمد المرء عن وطنه ، فيضرب في الأرض حتى إذا ما اتخذ وطناً ثانياً ، واستعاض عن الأهل بالأخوان عادت الأيام تهب به ، وتفرق بينه وبين إخوانه ، وتطرحه معطرس الغربة :

بالشام أهلي ، وبغداد الهوى ، وأنا بالرقتين ، وبالفسطاط إخواني

ولابن الرومي قطعة شعرية في الحنين إلى الوطن [ أنشأنا البها

١ - الشاب ، الشعر السياسي . ص ١٧٥ .

سابقاً ] ، تتركز قيمتها المعنوية في تلميحها الاغتراب لا برحيل الإنسان عن الأرض ، بل بالنفس التي فارت جسدتها فلبكت . ويحس القاضي عبيد الوهاب بن نصر إلى بغداد بعد أن رحل عنها إلى مصر ، لا عن قلق لها ، بل ضاقت عليه بأسرها ، ولم تكن الأزواق فيها تصدف المرء على الحياة :

سلام على بغداد في كل موطن وحن لهمني السلام المضاعف (١)

أما في منتصف القرن الخامس الهجري ، وبعد النكبة التي حلت بالغرب في شمال أفريقيا ، فقد هاجر قسم من شعرائهم إلى الأندلس ، وسقاية ، وقالوا الكثير في ذكر الاوطان ، والحنين إليها ، وأثر الشوق إلى الاوكار ، وإلى مدن معينة بذاتها . فهذا محمد بن شرف ، اللاجي إلى الأندلس يحن إلى القيروان ، ويتمنى لو كان طائرًا ليراهها :

يا قيروان ودرت أني طائر فأراك رؤية باحث متوكل  
أبدت مقامك مع الخطوب عجائباً كانت كوا من تحت عتب مقفل  
يا أرمي في القطب منها كيف لي بماد يوم فيك لي من أين لي؟ ..

ويصور المهاجر هائلاً على وجهه لا يلقاه أبداً حصل إلا المذلة

١ - حسين م . أثر الرحلة ، ص ١٠ ، ص ٣١٧ - ٣٣٠ (محاضرات  
الجمع العلمي العربي بدمشق ، عام ١٩٥٤ ) .

والهوان ، تنبو به الارض فينتقل ساكباً الدموع مزرعاً (١) . وهذا تألوه  
شاعر قيرواني آخر في ارض القرية وهو عبد الكريم بن الحلواني ممن أم  
الاندلس أيضاً :

لله منزلة بالقيروان عجا أيامها بين لا الأيام والقدم

ويقول مصوراً حال الغراء ، وكأنهم قد لاقوا عتياً كثيراً :

يا نفس ويحك في التغرب ذائلاً فتجرعي كأساً أذى وهوان  
وإذا نزلت بدار قوم دارهم فإلهم عليك تمزج الأوطان (٢)

إنه لمن الضروري أن نشير إلى أن عدداً من الكتاب المؤلفين قد  
خصصوا فصولاً خاصة مستفكة من كتبهم في محاسن ومساوىء حب الوطن ،  
فمثلاً ، ابن الفقيه ( أواخر القرن IX/III ) ، الذي أورد الحديث عن  
حب الوطن (٣) وابن حوقل (٤) ، والملاحظ (٥) ، وإبراهيم الحصري  
القيرواني (٦) . ورغم طلم وقسوة الجذائين ، الذين فر وهاجر السكان من

١ - الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ص ٤٣٥ .

٢ - هناك أيضاً .

٣ - انظر . ابن الفقيه ، كتاب البلدان .

٤ - انظر . ابن حوقل .

٥ - الملاحظ ، الحنين إلى الأوطان .

٦ - إبراهيم القيرواني ، زهر الآداب .

قدوتهم هذه ، فإن كثيراً من السكان الآخرين قد قرروا، وفضلوا البقاء في  
مواطنهم ، متحملين الظلم بسبب جهم للوطن ، الذي أمضوا فيه قوتهم ،  
رغم أنه عليهم أن يطأوا الحاكم نصف المحصول. والحاكم هو الذي بقدر  
كية الضرائب - حسب رغبته - بالذهب أو الفضة (٧) .

كما أن المركبين في ذي قار والقادسية اللتين حصلتا بسين العرب  
وغسير العرب كاتبا سبياً في نظم الكثير من الشعر ، الذي عبر عن  
كثير من جوانب الصراع بين المقاتلين ، وربما كانت في هذا الشعر بعض  
اللامع القومية . كذلك فإن وقعة حمورية ، ونفسر العرب فيها على  
البيزنطيين في خلافة المنتصم قد أوجت لاشراء العرب بالكثير ،  
والشعر الخاس بهذه المناسبة كان قد قاله أبو تمام ، في ملحمة البطولية  
التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحدبين الجد واللمب

في هذه الملحمة ، وأيضاً في شعر المتنبي، عامة، الذي قيل ضد التشويية،  
تظهر بذور القومية (٨) .

ومنذ نهاية القرن الخامس / XI يبدأ النضال - نضال العرب ضد  
الصلبيين والبيزنطيين في الشرق ، ومع النورماندين في صقلية في الغرب.

١ - متر ، آ . ، الترجمة العربية ، ج ١ ص ١٨١ ؛ الترجمة  
الروسية ، ص ١١١ .

Gabrieli F. La poesia di al-Mutanabbi

في دراستنا وتحليلنا لأشعار أسامة ، كما أثرنا إلى ذلك سابقاً ،  
يعثر على مفاهيم : عرب ، عجم ( غير عرب ) ، مسلمين ، نصارى ،  
النح ... لكن ، في نفس ذلك الوقت ، عندما يحين أسامة إلى وطنه ، فإنه  
لا يحين إلى الأرض العربية أو الإسلامية كلها ، بل إلى شجر الصنيرة ،  
إلى مسقط رأسه ، وأحياناً إلى سورية بشكل عام ، ولقد أثرنا إلى هذا  
أكثر من مرة فيما سبق . ونظير أسامة في هذا معاصره علي بن يقطين  
الذي كتب يحين إلى معسر من الوصل :

أحنّ إلى مصر حينئذٍ متمّ بها مستبهم القلب محترق الكبد  
أراهم باحظ الشوق في كل بلدة كأنهم بالقرب مني أو عندي  
ولو أن طعم الصاب جُرعت فيهم لفضله للحب فيهم على الشهد (١)

وتكثيفاً ، لدراستنا ، فقد وصلنا إلى النتيجة التالية : وهي أن  
الشعراء الجاهليين والاسلاميين وهم يستعملون في أشعارهم ألفاظ : شعب  
وقبيلة ووطن وتخذ .. النح .. ، لم يقصدوا بهذه الألفاظ المعاني المحددة  
الدقيقة التي يراها فيها العلماء ، وكانت المعصية قد لبثت دوراً بارزاً واضحاً  
في العلاقات الاجتماعية عند العرب ، هذه العلاقات القبلية التي تنصّرتنا  
بالتواهر القومية المنصبة في النظام السياسي الحديث المعاصر .

إن الحزة المنيفة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية عند العرب قد  
سببها ظهور الاسلام ، وضع المسلمين لمناطق وأقطار جديدة . فاستقرار

١ - المربدة ، ص ٣٤٤ .

الفاشين العرب في هذه المناطق الجديدة قاد ، بالدرجة الأولى ، إلى اختلاط  
وتمازج القبائل ، حيث ظهر نتيجة لهذا التمازج جيل جديد . وظهرت  
الاحزاب السياسية ، والفرق الدينية ، التي لبثت دوراً ملحوظاً في ظهور  
علاقات اجتماعية جديدة ، وإلى ظهور مفهوم جديد متطور للوطن .

أما في أوقات الفتوح ، فإن حينئذٍ المهاجرين إلى الأماكن في الوطن  
( وأحياناً إلى الجزيرة العربية بكاملها ) وحزن الذين بقوا على أرض  
الوطن - كل هذا قد وجد انعكاساً خاصاً في الشعر العربي . والمخني إلى  
الوطن وأماكنه هنا ما هو إلا تسام وتطور للمعالم القبلية . وإن الأشعار  
البطولية أيضاً عن القاهيين في الحملات والغزوات ، وعن أعمالهم ونضالهم ،  
ما هي إلا نموذج جديد ومتطور لشعر الفخر التقليدي ، لكنها تختلف  
عنه بأنها تعبر عن الشعور بالمعالم الاسلامي .

إن مفهوم الوطن ، يتطور من أماكن النزول والاستقرار ،  
وأماكن تقبل القبيلة ، إلى مفهوم المدينة الجديدة ، والمكان الجديد ،  
حيث زل ، واستقر العربي ، وأصبح انساناً مستقراً لا رحالة متنقلاً .  
وفي كل مراحل التطور ، كان مفهوم الوطن - « مكان الاستقرار  
الدائم » - مرتبطاً بحفظ كرامة الانسان ، وتأمين الحياة المادية والثقافة .  
وأظهر تطور المجتمع تأثيراً كبيراً على علاقة الفرد بالقبيلة والاقرباء . ومن  
هنا ، في الشعر وفي الرسائل الشعرية ، نجد الحنين إلى الاصدقاء والرفاق  
انعكاساً وتعبيراً واضحاً .

إن اغتراب الشعراء - لأسباب عدة مختلفة - وبعدهم عن أماكن  
السكن الأصلية ( الأوسر ، النقي ) ، كانا مصدراً لتعبير الشعري عن  
الشوق والحنين إلى الوطن .

لكن ، لا بد من أن نشير إلى أنه يعثر على خط واحد ، وعلى ظل واحد عند معظم الشعراء ، على امتداد المصنوع والرائح ، في الاشعار المقتلة في القرية ، والعبارة عن الحنين إلى الوطن - ان هذا استسلام وتنازل بدون نضال ، انه الشعور التراجيدي للشاعر .

مجموعات الشعراء : السجناء ، والأمرى ، والمنفيين ، والمهاجرين الذين ذاقوا مرارة البعد عن الوطن ، وعاشوا بطروف محمقة التعلق بأوطانهم ، التي أبعدوا عنها ، أو تباعدوا ، ان هذه المجموعات ، في أشعارها ، قد عبرت عن أسى معاني الحب ، والشوق إلى الوطن ، وعن أعلى درجات التعلق والتمسك به ، رغم أن هذا التعلق لم يتعمد عند بعضهم ، مجال الأمنيات فقط ، لكن بعضهم الآخر قد عاى كل شيء : الحياة المترفة والتقدير والسكينة الاجتماعية ، وحاول جاهداً العودة إلى الوطن . إن شعر هذه المجموعات أصدق صورة عن أسى مشاعر الانسان ، وأطيب صفاته الانسانية ، صورة عن تعلق الانسان بوطنه . أما أسامة فينبض شعره بالحياة والحب والألم والأمانى ، ويعبر عن تعلق العربي بوطنه ، رغم أن ظروف الحياة وقتها ، قد ساعدته على التفتت بحرية في مختلف أصقاع الوطن العربي تقريباً .

ومفهوم الوطن في القرن الثاني عشر XII ، قرن أسامة [ونحنس بالذكر مرحلة حياته الاولى ] لم يكن أكثر من مسقط الرأس [ مكان الولادة ] ، مدينة ، أو مقاطعة صغيرة ، حيث عاش الشاعر ، أو مكان ملكه وإمارته . مثل هذا المفهوم « للوطن » يظهر كنموذج عقد حكماء المقاطعات الصغيرة ، مع الأخذ بين الاعتبار جميع خلافتهم ، وحروبهم

الاهلية ، وهذا ما كان من أهم الصفات المميزة لعصر الانقسام والتشتت ، الانقطاعي في سورية وفلسطين في حياة أسامة . وعندما ركزت الجهود على السمو بهذا القبوم ، كان انقاء التاريخي بين الانقطاع العربي-وطني ، وكان اندحار الصليبيين . وهذا ما يؤكد الحقيقة الثابتة : أن في وحسدة العرب كل الخير لهم ، وكل التقدم والتطور .

★ ★ ★

## الخاتمة

إن تحليل ودراسة « كتاب المنازل والديار » قد مكنتنا من توضيح ورصد تطور مفهوم الشاعر الوطنية في الشعر العربي ، ومن دراسة شخصية المؤلف بذاته - أمامه - كممثل ساطع للطبقة الاجتماعية ، المسيطرة في القرن الثاني عشر ( IX ) في سورية وفلسطين ، وتبيان انعكاس ذلك المستوى من تطور مفهوم الوطن في مؤلفاته الشعرية ، ذلك المستوى الذي وصل إلى المفهوم حتى القرن الثاني عشر . لقد توصلنا إلى النتائج التالية للدراسة :

في الوسط البدوي ، حيث ظهر الشعر العربي ، على ما يبدو ، لم يوجد مفهوم محدد للوطن . فحياة البدوي كانت مرتبطة بالتنقل والترحال : يولد المرء في مكان ما ، في أغلب الحالات لم يعد إليه ثانية . و « عش » عند البدوي إنما عثيت « تنقل » ، « ارتحل » . إن الارتباط الدائم بمكان معين محدد عند البدوي كان مدعاة للاحتقار ، ظهر وكأنه يشكل أو يأخر تحديد الحرية - حرية الإنسان ، وإقصاء من قيمته . لكن الشاعر البدوي بكل لطيف ورقة توجه إلى إمكان النزول المؤقت لقبيلته ، وقبيلة محبوبته . وإعادة زيارة أماكن السكن القديمة أو تذكرها أيقظ عند الشاعر أقوى المواقف وأرقها . وفي الشعر العربي البدوي القديم كانت قد توضحت وثبتت غائج تصوير المثاني والربوع ، عناصرها ومكوناتها ، بقاياها وآثارها ، تلك التي حملت صفات متكررة .

إن بنور مفهوم « الوطن » عند العرب مرتبطة بانفعالهم من حياة البداوة والتنقل والترحال ، إلى حياة الاستقرار . فهذا الانتقال الشبير ، مع كل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي ظهرت على أساسه قد قفاد إلى ارتباط حياة العربي - المستقر بأماكن سكن محددة ، تلك الأماكن التي أمنت له إمكانية الوجود والحياة ، وانفظة « عش » في قاموس المتحضر . المستقر أصبحت تني - « استقرار » ، « ثبت » ( في مكان واحد معين ) . ولهذا فإن الفهوم العام لمكان السكن والعيش عند العربي ، بعد الانتقال إلى حياة الاستقرار ، بشكل تدريجي بدأ يعني « الوطن » ، بأبسط معانيه .

وكل المصطلحات التي تني أماكن السكن المحددة ، في ذلك الوقت حملت في طياتها معنى « الوطن » أيضاً . وبسبب هذا ، بصورة خاصة ، فإن المطالع الغزلية الطالعية للقضايا ، التضمنة موضوع الوطن ، والتي فيها تتردد أسماء فقدان الأهل والأقرباء والمواطنين ، والحنين للأماكن المهجورة ، بدأت تمتلك معاني جديدة ، متولدة تحت تأثير الشروط الجديدة للحياة - استقرار العرب في أماكن منفصلة متميزة عن الصحاري .

وبنض النظر عن أن هذه المطالع الغزلية قد عبرت عن أشياء تقليدية ؛ فإننا نثر فيها على عناصر تجديد كثيرة ، تعودبشأتها إلى مراحل زمنية متأخرة .

إن مفهوم الوطن في القرن XII ، بدون شك ، ما كان إلا نتيجة للتطور الاقتصادي والاجتماعي المستمر . إن الحوادث الماسفة لهذا القرن : استدام ثلاث قوى عابرة : العرب المسلمين والبيزنطيين والصليبيين ، هذا

الاصطدام الذي جرى على تلك القطعة من الأرض الصغيرة نسبياً ، في سورية ، هذا الصدام قد ساعد على أن يتجسّس العرب بدقة متناهية وجودهم الماكس التميز ، كأناس يتنمون إلى تجمع واحد ، بالنسبة للأجانب الغرباء ، بالنسبة للشعوب الأخرى ؛ ووضع هذا الصدام بداية ولادة الشاعر القومية التي توطدت وتدعمت بواسطة النضال العام ضد النزاع .

من أجل تحليل تطور مفهوم الوطن بالاعتدال على مواد « كتاب النازل والديار » كان لا بد لنا من أن نصدر عن شخصية مؤلفه أسامة ، الذي ، يمكن القول فيه ، أنه كان أول من عبر عن الشعور بالوطن ، ذلك لأنه عهم على مادة كبيرة عظيمة ، علاقة من سبقه بالموضوع الوطني .

إن الكشف عن شخصية أسامة قد ساعدنا على تحسديد مستوى مفهوم الوطن الذي انتهى إليه التطور في القرن XII ، ذلك المفهوم الذي شاع عند الطبقة الاقطاعية ، وعبر عن مفاهيم ومعتقدات وآراء مفكري ذلك العصر بالنسبة لهذا المفهوم .

مفهوم الوطن كان عدداً بذلك المكان الذي ولد فيه الانسان ، أو بتلك الممتلكات التي ظهرت فيها سيادته . إن مثل هذا المفهوم كان قد ظهر في الأمثال الشعبية ، مثلاً ، ( محل ما يترق الزق ) ، ( على ديك على مزبلته صباح ) .. الخ ..

والعرب بإحساس زائد قد تلقوا بالأمثلة المطروحة والمشتباكي المروضة عندما كان الأمر يس استغلالهم وشخصيتهم . فالبريون في دمشق كانوا مستعدين لعمل كل شيء في سبيل الحفاظ على ممتلكاتهم ، حتى إنهم عقدوا حلفاً مع ملكة القدس الصليبية ضد الزنكي ، وبالنسبة فإن أسامة

ذاته كان قد شارك في عقد مثل هذا الحلف .

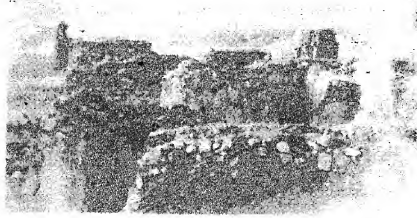
إن الحقيقة التالية تعتبر من أهم الدلائل على فهم مستوى مفهوم الوطن : أسامة الذي يتلك إقطاعاً ، بعيداً عن دمشق ، كان قد اعتبر غربياً من قبل أمراء الاقطاعات المنقسمة المتناحرة في دمشق ؛ نعم ، وهو بالفعل قد غدا غربياً وذلك عندما عملت كل الظروف على إجباره على هجر سورية ، والتفتيش عن ملجأ له في مصر ، حيث قد تدخّل في مختلف المؤامرات السياسية ، وأجبر نتيجة لذلك أن يترك مصر ويمسود ثانية إلى سورية ، التي كانت في هذه الرحلة قد توحّدت تحت السلطة القوية للأتابك نور الدين الزنكي .

إن الحب العام للوطن ، انشكك نتيجة للترية منذ الطفولة،وبمدها النقدان التراجيدي الحزن لتلك الوطن ، ( لشيرز ) ، والخبرة الحياتية لأسامة - على هذا كان مصير إجماع وإلهام شعريين عند أسامة ، وأساساً عليه كان قد غا وزرع ، الموضوع الوطني في مؤلفاته وآثاره .

وأسامة بكلمته الأدبية ، أراد أن يرفع روح الناس ، أراد تزيينهم على مثال أبطال العرب القدماء . إن هذه الأصدا والعناصر الوطنية يثر عليها بشكل أو بآخر ، بنسبة أو بأخرى، عند المؤلفين الآخرين المصارعين له ، لكن أسامة في هذا المجال يفوقهم جميعهم .

في « كتاب النازل والديار » كان أسامة قد جمع بصوره خاصة تلك المطالع الشعرية ، التي تنمكس فيها أصداء فقدان الوطن والوطنين ، وكأنه قد وضع نصب عينيه هدف تركيز اهتمام وانتباه الناس في عصره على ولادة

رفع  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس



قلعة شيزر عام ١٩٧٠ م

شعور الحب للأهل والمواطنين ، لأماكن السكن والوطن ، في الانسان منذ القدم .

إن دراسة وتحليل « كتاب المنازل والديار » ، وانعكاس شخصية حياة أسامة فيه ، يعتبر - كما نأمل - أساساً وقاعدة علمية متينة للدراسة تطور الوجوه المديدة لموضوع الوطن في الشعر العربي منذ القرن XII وحتى أيامنا هذه ، وهذا ما نحن عازمون على تحقيقه . إذ إننا نعمل الآن على تحليل ودراسة تطور الشاعر الوطنية في الادب العربي من القرن الثاني عشر الهادي إلى مطلع القرن العشرين .

★ ★ ★

عن  
مجلس البحث العلمي  
دمشق - سورية

## فهرس المراجع والمصادر

أولاً - مراجع باللغة العربية

١ - ابن الأثير :

Ibn-el-Athiri Chronicon quod perfectissimum inscribitur,  
ed. G. J. Tornberg, Vol. I-XIV, Upsalise et Lugduni  
Batavorum, 1851-1876.

٢ - ابن إياس . تاريخ مصر :

ابن إياس . تاريخ مصر المشهور [ يدافع الزعمور في وقائع  
الدهور ] ، الطبعة الكبرى الأميرية ببولاق المحمية ، ١٣١١ /  
١٨٩٣ - ٩٤ .

٣ - ابن تقي بردي . النجوم :

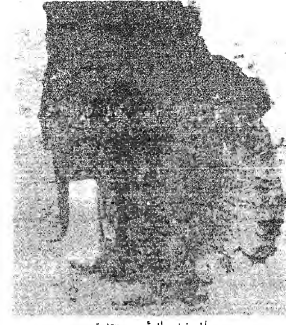
ابن تقي بردي . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والساهرة ،  
القاهرة / ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ .

٤ - ابن جبير . الرحلة :

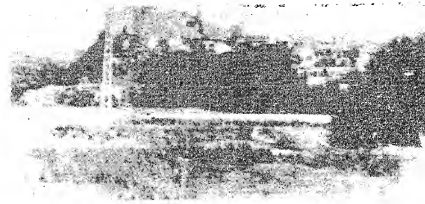
The Travels of Ibn Jubair ed. from a MS in the Univer-  
sity Library of Leydon by W. Wright, 2d ed. revied by  
M. J. Goeje, Leyden-London, 1907 (GMS, V).

٥ - ابن الجوزي . سيد الخاطر :

سيد الخاطر ، ٣ أجزاء ، راجعه وحققه علي الطنطاوي ،  
دمشق ، دار الفكر ، ١٩٦٠ .



المدخل الرئيسي للقلمة



منظر قلمة شيزر مع القرية المحاورة عام ١٩٧١

- ٦ - ابن الجوزي . مرآة الزمان :  
ابن الجوزي . مرآة الزمان ، طبع حيدر آباد ، ١٩٥١ .
- ٧ - ابن حزم . جمهرة :  
ابن حزم الاندلسي ، علي بن سعيد . جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ٨ - ابن حوقل :  
Viae et regna, Descriptio ditonis mosqueicae autore Abul-Kasim Ibn Haukal. Ed. M. J. de Goeje, Lugduni Batavorum, 1873 (BGA, II).
- ٩ - ابن خلدون . المقدمة :  
عبد الرحمن بن خلدون المتوفى ٨٠٨ هـ . الجزء الاول من كتاب البر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، بيروت ، المطبعة الادبية ، ١٨٧٩ .
- ١٠ - ابن خلكان . وفیات :  
ابن خلكان . وفیات الاعيان ، القاهرة ، دار الطباعة الميرية المصرية ، ١٢٧٥ / ١٨٥٨ - ٥٩ .
- ١١ - ابن دحية . التبراس :  
ابن دحية / عمر ذو النسين / أبو الخطاب المتوفى سنة ٥٦٣ هـ . التبراس في تاريخ بني العباس ، نشره عباس الزواوي الحامي ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٦ .
- ١٢ - ابن رشيقي . العمدة :  
ابن رشيقي القيرواني ، أبو علي . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، جزءان ، تحقيق محمد يحيى الدين عبيد الحميد ، القاهرة ، ١٩٣٤ .
- ١٣ - ابن الساعي . الجامع :  
ابن الساعي . الجامع المختصر لتنوان التوليد وعبود السير ، بغداد ، المطبعة الرئاسية الكلاسيكية ، ١٩٣٤ .
- ١٤ - ابن السكي . طبقات الشافعية :  
طبقات الشافعية الكبرى ، لميد الوهاب بن علي بن السكي المتوفى سنة ٥٧٧١ هـ ، المطبعة الحسينية ، ١٣٢٤ / ١٩٠٦ - ٧ .
- ١٥ - ابن شاكر . فوات :  
ابن شاكر ، فوات الوفيات ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٨٨١ .
- ١٦ - ابن شداد . النواذر :  
ابن شداد . النواذر السلطانية والحسان اليوسفية ، طبع مطبعة صبيح بالقاهرة ، ١٣٤٢ / ١٩٢٧ - ٢٨ .
- ١٧ - ابن الصايوني . تكملة :  
ابن الصايوني . تكملة الاكل في الانساب والاسماء والالقب ، حققة وعلق عليه الدكتور مصطفى جواد ، [ بغداد ] ، مطبعة الجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٧ .
- ١٨ - ابن عبد ربه . العقد الفريد :  
ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٣ / ١٨٧٦ .  
- القاهرة ، لجنة التأليف ، ١٩٤٠ .

- ٦ - ابن الجوزي . مرآة الزمان :  
ابن الجوزي . مرآة الزمان ، طبع حيدر آباد ، ١٩٥١ .
- ٧ - ابن حزم . جمهرة :  
ابن حزم الاندلسي ، علي بن سعيد . جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ٨ - ابن حوقل :  
Viae et regna, Descriptio ditonis mosqueicae autore Abul-Kasim Ibn Haukal. Ed. M. J. de Goeje, Lugduni Batavorum, 1873 (BGA, II).
- ٩ - ابن خلدون . المقدمة :  
عبد الرحمن بن خلدون المتوفى ٨٠٨ هـ . الجزء الاول من كتاب البر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، بيروت ، المطبعة الادبية ، ١٨٧٩ .
- ١٠ - ابن خلكان . وفیات :  
ابن خلكان . وفیات الاعيان ، القاهرة ، دار الطباعة الميرية المصرية ، ١٢٧٥ / ١٨٥٨ - ٥٩ .
- ١١ - ابن دحية . التبراس :  
ابن دحية / عمر ذو النسين / أبو الخطاب المتوفى سنة ٥٦٣ هـ . التبراس في تاريخ بني العباس ، نشره عباس الزواوي الحامي ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٦ .

١٩ - ابن الفقيه . كتاب البلدان :

Compendium Libri Kitab al Boldan auctore Ibn - al - Fakih al - Hamadhani, quod edidit, indicibus et glossario illustravit M. J. de Goeje, Lugduni - Batavorum, 1885 (BGA.V)

٢٠ - ابن قتيبة . الشعر :

Ibn Qutaiba, Liber poësis et poetarum. ed. M. J. de Goeje, Brill, 1904.

٢١ - ابن القلانسي . ذيل :

حمزة بن القلانسي المتوفي سنة ٥٥٥ هـ . ذيل تاريخ دمشق ،

بيروت ، ١٩٠٨ .

٢٢ - ابن المعتز . طبقات :

طبقات الشعراء المحدثين ، لابن المعتز ، بتحقيق الأستاذ عبدالستار فرج ، [ ذخائر العرب ، طبعة دار المعارف ] ، ١٩٥٦ .

٢٣ - ابن منظور . لسان العرب :

ابن منظور أو ابن مكرم . لسان العرب ، عشرون جزءاً ، المطبعة الكبرى النورية بولاق مصر الحفيدة ، ١٣٠٠ - ١٣٠٨ / ١٨٨٢ - ١٨٩١ .

٢٤ - ابن ميسر . أخبار مصر :

ابن ميسر . أخبار مصر ، نشره هنري ماسبييه ، مطبعة المهرسند العلمي الفرنسي ، ١٩١٩ .

٢٥ - ابن واصل . مفرج :

ابن واصل . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جزءان ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣-١٩٥٧ .

٣٨٨

٢٦ - أبو شامة . الروضتان :

أبو شامة . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تأليف الشيخ شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن اسمعيل بن إبراهيم المقدسي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة وادي النيل بمصر ، ١٢٨٧

/ ١٨٧٠ - ١٨٧١ .

٢٧ - أبو الغلاء . اللازوميات :

اللازوميات لأبي الغلاء أحمد بن سليمان المصري ، جزءان ، طبعة بيروت ، ( بدون تاريخ ) .

- اللازوميات ، أو لزوم مالا يانم لأبي الغلاء المصري ، ٤ أجزاء ، تحقيق وشرح إبراهيم الأعراي ، بيروت ، ( بدون تاريخ ) .

٢٨ - أسامة . الاعتبار ، إصدار حتي :

Usamah's memoirs entitled Kitab al I'tibar, by Usama ibn Munqidh, Arabic text, Princeton, 1980.

٢٩ - أسامة . الاعتبار ، إصدار درنبرغ :

Ousama ibn Munkidh, 2-eme partie, texte arabe de l'autobiographie d'Ousama, Paris, 1886.

٣٠ - أسامة . البديع :

أسامة بن منقذ . البديع في نقد الشعر ، حققه الدكتور أحمد أحمد بدوي ، والدكتور حامد عبدالحيد ، القاهرة ، نشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٠ .

٣١ - أسامة - الفيوان :

فيوان أسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبدالحيد ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٣ .

٣٨٩

٣٨ - الأصفهاني . الاغانى ( دار الكتب ) :  
كتاب الاغانى للإمام أبى الفرج الأصفهاني ، ١ - ١٦ جزءاً ،  
القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٢٧ - ١٩٥٤ .

٣٩ - البلاذري :

Liber Expugnationis Regionum, Auctore Imamo Ahmed ibn  
Jahja ibn Djabir al-Beladsori, quem e codice Leidensi et  
codice Musei Britannici edidit M. J. de Goeje, Lugduni  
Batavorum, E. J. Brill 1866.

٤٠ - البيهقي المحاسن :

Ibrahim ibn Mohammed al-Belhaqi, Kitab al-Mahasin  
va-l-masavi--Giessen, 1902 Schwalli. F.

٤١ - التبريزي. التتوير بشرح سقط الزند :

التتوير بشرح سقط الزند للتبريزي ، طبعة السعادة بمصر ،  
الطبعة الاولى ( بدون تاريخ ) .

٤٢ - الجاحظ . البيان :

الجاحظ ( أبو عثمان عمرو بن بحر ) . البيان والتبيين ، ٤  
أجزاء الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة الخفائي ، مكتبة المائل  
في بيروت ، المكتب العربي بالكويت ، ١٩٦٨ .

٤٣ - الجاحظ. الخنيز :

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . الخنيز إلى الاوطان ،  
تصحيح الشيخ طاهر الجزائري ، مصر ، مطبعة  
النار ، ١٣٣٣ ( ١٩١٤ - ١٩١٥ ) .

٣٢ - أسامة . لباب الآداب :

أسامة بن منقذ . لباب الآداب ، تحقيق أحمد محمد شاكر ،  
طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة ، ١٩٥٣ .

٣٣ - أسامة . المنازل [ محققة ] :

أسامة بن منقذ . كتاب المنازل والديار ، تحقيق الأستاذ مصطفى  
حجازي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٣٤ - أسامة . المنازل [ مخطوطة ] :

كتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ ، مخطوطة ، معهد الدراسات  
الشرقية بلينينغراد ، رقم [ C35 ] .

٣٥ - أسامة . المنازل [ مصورة ] :

كتاب المنازل والديار ، مخطوطة مصورة ، مع مقدمة وفهارس .  
أ . ب . خالوف ، موسكو ، ١٩٦١ .

٣٦ - الأصفهاني . الاغانى . ( بولاق ) :

كتاب الاغانى للإمام أبى الفرج الأصفهاني ١٢ - ٢٠ جزءاً ،  
طبعة بولاق ، ١٢٨٥ ( ١٨٦٨ - ٦٩ ) .

٣٧ - الأصفهاني . الاغانى [ التقديم ] :

كتاب الاغانى للإمام أبى الفرج الأصفهاني [ علي بن الحسين بن  
محمد الأصفهاني ] ، ١ - ٢١ جزءاً ، التزام طبعة الحاج محمد  
أفندي ساسي المغربي ، قوبل على نسخة قديمة بالكتبخانة  
الخديوية بتصحيح أحمد الشنقيطي ، مطبعة القسم بمصر ،  
١٣٣٣ / ١٩٠٥ - ١٩٠٦ .

٤٤ - الجرجاني . الوساطة :

الوساطة بين التتبي وخصومه ، لقايشي علي بن عبدالمعز  
الجرجاني . ( توفي ٣٦٦ هـ ) ، تحقيق علي محمد وآبي الفضل  
ابراهيم ، القاهرة ، ( مكتبة عيسى البابي الحلبي ) ، ١٩٤٥ .

٤٥ - جرير والاختل . نقاض :

Naqa'id de Garir et de Ahtal, texte arabe, annoté par A.  
Salhani, Beyrouth, Impr. Catholique, 1922 .

٤٦ - حاجي خليفة . كشف الظنون :

Haji Khalifa, Lexicon Bibliographicum et encyclopaedicum  
Instruit G. Fluegel, Leipzig, 1835 .

٤٧ - الحصري . زهر الآداب :

الحصري ، أبو المصنف ابراهيم بن علي المروفي الحصري القيرواني  
المالكي ، زهر الآداب وغر اللباب ، على هامش المقد الفريد  
لابن عبد ربه ، طبعة ١٢٩٣ / ١٨٧٦ .

٤٨ - الممشقي . نخبة :

Cosmographi de Chems ed - Din Abou Abdallah Moham -  
med ed-Dimishqui, texte arabe, publ. A. F. Mehran, st.-F.,  
1866 .

٤٩ - ابن أبي ربيعة [ بيروت ] :

ديوان عمر بن أبي ربيعة ، جمع وتصحيح بشير عيوت ، بيروت ،  
طبعة الاهلية ، ١٩٣٤ .

٥٠ - ديوان ابن أبي ربيعة [ ليدزيج ] :

Der Diwan des Umar ibn Abi Rafie, hrsg. von P. Schwarz,  
Leipzig, 1901 .

٥١ - ديوان ابن الجهم :

ديوان علي بن الجهم ، عني بتحقيقه وشهره وجمع تكملة خليل  
مردم ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٩ .

٥٢ - ديوان ابن الخطيم . [ بغداد ] :

ديوان قيس بن الخطيم . حققه الدكتور ابراهيم السامرائي ،  
بغداد ، مطبعة العالي ، ١٩٦٢ .

٥٣ - ديوان ابن الخطيم . [ القاهرة ] :

ديوان قيس بن الخطيم . تحقيق ناصر الدين الأسد ، [ القاهرة ] ،  
طبعة دار المروية بدمر ، ١٩٦٢ .

٥٤ - ديوان ابن ذريح :

ديوان قيس بن ذريح [ قيس ولبي ] ، شعر ودراسة ،  
جمع وتحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ، مكتبة مصر ،  
دار مصر للطباعة ، ١٩٦٠ .

٥٥ - ديوان ابن الرومي :

ابن الرومي . الديوان ، تصنيف كامل كيلاني ، طبعة التوفيق  
الادبية ، [ بدون تاريخ ] .

٥٦ - ديوان ابن قيس الرقيات :

ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق الدكتور محمد يوسف  
نجم ، بيروت ، دار صباد ، ١٩٥٨ .

٦٣ - ديوان الأخطل :

Diwan al-Ahtal, texte arabe, publié et annoté par Salhani, Vol. I-IV, Beyrouth, Impr. Catholique, 1891-1892.

٦٤ - ديوان الأختى :

Gedichte von Abu Basir Maimum ibn Qais al-'A'sa. Nebst Sammlungen von Stücken anderer Dichter des gleichen Beinamens. Und Von al-Mussayyab ibn 'Alsa, arabisch hrsg. Von Gayer R., London, 1928.

٦٥ - ديوان امرى القيس :

ديوان امرى القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، [ ذخائر العرب ] ، دار المعارف ، ١٩٥٨ .

٦٦ - ديوان البحتري :

ديوان البحتري ، طبعة بيروت ، بتصحيح رشيد عطية ، ١٩١٠ .

- طبعة هندية ، بتصحيح البرقوقي ، ١٩١١ .

- طبعة دار المعارف ، بتحقيق حسن كامل الصيرفي ،

١٩٦٥ - ١٩٦٧ .

٦٧ - ديوان بشر :

ديوان بشر بن خازم الأسدي ، عني بتحقيقه الدكتور عزت حسن ، ( دمشق ) ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الاقليم السوري ، مديرية إحياء التراث القديم ، ١٩٦٠ .

٦٨ - ديوان جرير :

ديوان جرير بن عطية . تحقيق محمد اسماعيل السساوي ، [ القاهرة ] ، طبعة مصر ، ١٩٣٥ .

٥٧ - ديوان ابن المعتز :

ديوان أمير المؤمنين ابن المعتز المباسي ، جزءان ، القاهرة ،

١٨٩١ . - طبعة إقبال بيروت ، ١٣٣٢/١٩١٣ - ١٩١٤ .

Der Diwan des Abdallah ibn al Mutazz, hrsg. von B. Le-win, teil III, Istanbul, 1950, teil IV, Istanbul 1945 (Bibliotheca Islamica, Bd. 17 c. d.).

٥٨ - ديوان ابن هاني :

ديوان ابن هاني الأندلسي ، طبعة الأميرية بولاق ، ١٢٧٤

/ ١٨٥٧ - ٥٨ / .

٥٩ - ديوان أبي تمام :

ديوان أبي تمام ، جزءان ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق

محمد عبده عزام ، طبعة ذخائر العرب ، دار المعارف ،

١٩٥١ - ١٩٦٤ .

٦٠ - ديوان أبي المتاهية :

الأوار الزاهية في ديوان أبي المتاهية ، جمع لويس شيخو ،

الطبعة السكولائية بيروت ، ١٩١٤ .

٦١ - ديوان أبي فراس الحمداني :

Semi Dahan. Le Diwan d'Adu Firas al-Hamdani, t. I-III, Beyrouth, (Institut Français de Damas).

٦٢ - ديوان أبي نواس :

ديوان أبي نواس . حققه وطبعه وشرحه أحمد عبد الحميد النزال

[ القاهرة ] ، طبعة مطبعة مصر ، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .

٧٦ - ديوان ديك الجن :  
ديوان ديك الجن الحفي ، جمع وشرح عبد النبي التلحي ،  
وزميله ، حمصي ، طبعة الفجر ، ١٩٦٠ .

٧٧ - ديوان ذي الرمة :  
The Diwan of Ghailan ibn Uqbah Known as Dhu'r-Rum-  
mah, ed. Machartney, Cambridge, 1919.

٧٨ - ديوان زهير :  
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنفه الامام أبي العباس أحمد  
ابن يحيى زيد الشيباني / ثعلب / ، القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٤٤ .

٧٩ - ديوان الشريف الرضي :  
ديوان الشريف الرضي ، بتحقيق الاستاذ حسن كامل الصيرفي ،  
وابراهيم الاياري ، نشر وزارة الثقافة ، طبعة الحلبي ، ١٩٦٢ .

٨٠ - ديوان طرفة :  
Diwan Tarafa ibn al-'Abd al-Bakri, accompagné du co-  
mmentaire de Yousouf al-A'lam de Santa-Maria publié,  
Traduit et annoté par M. Selibsehn, Paris, Libraire E.  
Bouillon, 1961.

٨١ - ديوان الفرزدق :  
Divan de Farazdak, Recita de Mohamed ben Habib d'ep-  
res ibn-el-arab, publié par R. Boucher, Paris, 1870.

٨٢ - ديوان كثير :  
Kotayyir-azea, Diwan, accompagné d'un commentaire arabe  
ed. par H. peres, Alger-Paris, 1930.

٦٩ - ديوان جميل :  
ديوان جميل بئنة / شرح الحب العذري / ، جمع وتحقيق  
وشرح الدكتور حسين نصار ، طبع مكتبة مصر ، دار مصر  
للطباعة ، سنة أولى ، ( بدون تاريخ ) .

٧٠ - ديوان الحاددة :  
Al-Hadirac Diwanus Cum al-Yesidel Schoilis c codicems.  
Arabice edidit; Varsiene Latin et annotetioneil,

٧١ - ديوان حاتم الطائي :  
Diwan Hatim at-Ta'i, London, 1872.

- ديوان حاتم الطائي ، برواية الكافي ، طبعة الوهبة بالقاهرة ،  
١٢٩٣ / ١٨٧٦ .

٧٢ - ديوان حسان بن ثابت ( لندن ) :  
The Diwan of Hassan b. Thabit, ed. by H. Hirschfeld, ph.  
I. Le den 1910 (GMS, XIII),

٧٣ - ديوان حسان بن ثابت ( البرقوقي ) :  
ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق وشرح عبد الرحمن البرقوقي ،  
جزء واحد ، القاهرة ، ١٩٢٩ .

٧٤ - ديوان الخطبة :  
ديوان الخطبة بشرح السكري وتصحيح الشنقيطي ، طبعة  
التقدم بمصر ، / بدون تاريخ / .

٧٥ - ديوان الخنساء :  
ديوان الخنساء / أنيس الجلساء / ، نشر لويس شيخو ، بيروت ،  
١٨٩٦ .

- ٨٣ - ديوان ليد :  
ديوان ليد ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الكويت ، ١٩٦٣.
- ٨٤ - ديوان الجنون :  
ديوان قيس بن الملقح المامري / جنون ليل / ، جمع وتحقيق  
الأستاذ عبد الستار فراج ، الطبعة الأولى ، مكتبة مصر ،  
/ ديوان تاريخ / .
- ٨٥ - ديوان المتنبي :  
ديوان المتنبي بشرح البرقوقى ، طبعة الرحمانية ، مصر ، ١٩٣٠.
- ٨٦ - ديوان المرتضى :  
ديوان الشريف المرتضى . ٣ أجزاء ، حققه ورتب قوافيه  
ونشر ألفاظه رشيد الصفار ، راجعه وترجم أعيانه الدكتور  
مصطفى جواد ، قدم له الأستاذ محمد رضا السبسي ، طبع دار  
إحياء الكتب العربية ، وطبعة الحلبي ، ١٩٥٨ - ١٩٥٩ .
- ٨٧ - ديوان مزاحم :  
The Poetical Remains of Myzabim al-'Uqaili, id. and transl.  
by F. Krenkow, Brill, Leyden, 1920.
- ٨٨ - ديوان ميثار :  
ديوان ميثار الديلمي ، ٤ أجزاء ، ( القاهرة ) ، دار الكتب ،  
١٩٢٥ - ١٩٣٦ .
- ٨٩ - ديوان النابغة الجعدي ( شعر الجعدي ) ، جمع ماريتا نيلينز ،  
طبعة الكتب الاسلامي بدمشق ، ١٩٦٤ .
- ٩٠ - ديوان : النابغة الذبياني :  
ديوان النابغة الذبياني ، ( التوضيح والبيان من شعر نابه بني  
ذيان ) ، بيروت ، ١٩٥٣ .
- ٩١ - ديوان القائل :  
The Naka'id of Jarir and al-Farazdak, ed. by Boran, Vol.  
I-III, Late E. J. Brill publishers and printers, Leyden  
1903-1913.
- ٩٢ - ديوان الهذليين :  
ديوان الهذليين ، طبعة دار الكتب ، ( القاهرة ) ،  
١٩٤٨ - ١٩٥٠ .
- ٩٣ - الذهبي . سير . مصورة .  
الذهبي . سير أعلام النبلاء . مصورة مخطوطة موجودة فيالجميع  
الملي العربي ، دمشق ، رقم ٢٠٩ .
- ٩٤ - الذهبي . سير . مطبوعة :  
الذهبي . سير أعلام النبلاء . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ .
- ٩٥ - الزبيدي . تاج الفروس :  
محمد مرتضى الزبيدي . تاج الفروس ، عشرة أجزاء ، مصر ،  
الطبعة الأخيرة انشاءً بحالية مصر ، ١٣٠٦ / ١٨٨٨ - ٨٩ .
- ٩٦ - الزوزني . شرح الملقات :  
شرح الملقات السبع الاسلام الاديب القاضي المحقق أبي عبدالله  
ابن أحمد بن الحسين الزوزني ، اتوفي ٤٨٦ هـ . ضبطه وكتب  
مقدمته وتراجمه وتعليقاته محمد علي حمد الله ، كسر وتوزيع  
المكتبة الاموية بدمشق ، ١٩٦٣ .

- ٩٧ - السيكي . معبد النعم :  
السيكي . معبد النعم ومعبد النعم ، القاهرة ، دار السكاتب  
العربي ، ١٩٤٨ .
- ٩٨ - السكري . شرح أشعار الهذليين :  
شرح أشعار الهذليين ، للسكري ، بتحقيق الأستاذ عبدالستار  
فراج ، طبعة دار العروبة بمصر ، ١٩٦٣ - ١٩٦٥ .
- ٩٩ - الطباخ . أعلام النبلاء :  
الطباخ ، محمد راتب . أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء .  
حلب ، المطبعة الملية ، ١٣٤٢ - ١٣٤٥ / ١٩٢٣ - ١٩٢٧ .
- ١٠٠ - الطبري :  
Annales quos scripsit Abu Dja'far Mohammed ibn Djarir  
at-Tabari. Ed. M. J. de Geoe, series I-III, Lugduni-Ba-  
tavorum, 1879-1901.
- ١٠١ - العاملي . أعيان الشيعة :  
العاملي . أعيان الشيعة ، بيروت ، مطبعة الانصاف ، ١٩٥٨ .
- ١٠٢ - المهدي الاصمغاني . إصدار دريغ :  
Des Publications de l'Ecole des Langues Orientales vivants  
par H. Derenbourg, vol XIV Paris 1886.
- ١٠٣ - المهدي الاصمغاني . بداية قسم شعراء التمام :  
المهدي الاصمغاني الكاتب . خريدة القصر وجريدة العصر ،  
بداية قسم شعراء الشام ، شعراء دمشق ، والشعراء الامراء  
بني أيوب ، عني بتحقيق الدكتور شكري فيصل ، (دمشق) ،  
للمطبعة الهاشمية ، ١٩٦٨ .
- ١٠٤ - المهدي الاصمغاني . قسم شعراء الغرب :  
المهدي الاصمغاني الكاتب . خريدة القصر وجريدة العصر ،  
قسم شعراء الغرب ، جزء أول ، تحقيق محمد الرزوقي ، محمد  
العروسي الطولي ، الجبلاني بن الحاج يحيى ، ( تونس ) ،  
الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٦ .
- ١٠٥ - الفيروز آبادي . المحيط :  
الفيروز آبادي ، محمد الدين . القاموس المحيط ، ٤ أجزاء ، القاهرة ،  
طبعة الباني ، ١٩٥٢ .
- ١٠٦ - القلقشندي . نهاية الأرب :  
القلقشندي ، شهاب الدين . نهاية الأرب في معرفة أنساب  
العرب . جزءان ، تحقيق الأبياري ، ١٩٥٩ .
- ١٠٧ - الكمي . الهاشميات :  
الهامشيات ، للكميت بن زيد الأسدي ، طبعة ليدن ، ١٩٠٤ .
- ١٠٨ - اللاميتان :  
اللاميتان ، لامية العرب للشمري ، ولامية المعجم لطنطاني من شروح  
الزغفراني الصفي ، أعدهما وعلق عليها عبدالمعطي اللحي ، دمشق ،  
وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٦ ، ( إحياء التراث  
القديم ، ٣١ ) .
- ١٠٩ - البرد . الكامل :  
The Kamil of el Mubarrad, ed by W. Wright Leipzig, 1864.

١١٠ السمودي . التنبه :

Kitab at-Tanbih wa-l-ischraf auctore al-Masudi, Lugduni Batevorum, 1893-1894, (BGA, VIII).

١١١ - الملقات :

الملقات السبع مع ذكر روائعها ، وأنساب قائلها ، ولباس  
لامية العرب ، تصحيح محمد محمود الشقيطي ، طبعة ثانية ،  
( القاهرة ) ، مطبعة السعادة ، ( بدون تاريخ ) .

١١٢ - القريري :

القريري . إنشأة الأمة بكشف النعمة . تحقيق الاستاذين محمد  
مصطفى زيادة ، وجمال الدين محمد الشبال ، القاهرة ، مطبعة  
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٩ / ١٩٤٠ .

١١٣ - نشوان . منتخبات :

نشوان ، ابن سعيد الجبري . منتخبات في أخبار اليمن .  
تحقيق عظيم الدين أحمد ، لندن ، ١٩١٦ .

١١٤ - النيمي . الفارس :

النيمي . المدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسي ،  
دمشق ، ١٩٤٨ .

١١٥ - النعمري . الأنباء :

النعمري ، ابن عبد البر ، بسف . الأنباء على قبائل الرواة .  
في مجلد واحد مع كتاب القصة والأمم ، القاهرة ، ١٣٥٠ /  
١٩٣١ - ٣٣ .

١١٦ - النوري . نهاية الأرب :

النوري . نهاية الأرب في فنون الأدب . عشرة أجزاء ، القاهرة ،  
مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ .

١١٧ - الحميداني . صفة :

Müller Dt H., al Hamadani's geographie der arabischen  
Halbinsel, Leyden, 1884.

١١٨ - ياقوت . معجم الادباء :

The Irshad al arib ila marifat al - adib or Dictionary of  
Learned men of Yakut. ed. Margoliouth, Leyden, London  
1909 (GMS VI).

١١٩ - ياقوت . معجم البلدان :

Yacut's geographisches wörterbuch, hreg. von F. Wüsten-  
feld, Bd. X-VX, Leipzig, 1866-1873.

## ثانياً : مصادر مترجمة

آ - إلى اللغة العربية

- ١٢٠ - بروكلمان . تاريخ الادب :  
بروكلمان ، كارل . تاريخ الادب العربي . ٣ أجزاء . نقله إلى  
العربية الدكتور عبدالحليم النجار ، القاهرة ، دار المعارف  
مصر ، ١٩٥٩ - ١٩٦٢ .
- ١٢١ - خالوف ( مقالة عن كتاب النازل ) :  
خالوف ، أ . ب . مقالة ، مقدمة لكتاب النازل والديار  
لأسامة بن منقذ ، تحقيق الأستاذ مصطفى حجازي ، القاهرة ،  
١٩٦٨ .
- ١٢٢ - خسرو طوى . سفرنامه :  
خسرو طوى ، ناصر . سفر نامه . نقله إلى العربية ، وقدم له ،  
وعاين عليه الدكتور يحيى الخشاب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ، ١٩٤٥ .
- ١٢٣ - زاباور . معجم الانساب :  
زاباور . معجم الانساب والسلالات الحاكمة . ترجمة الدكتور  
ركي حسن ، طبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥١ .
- ١٢٤ - كراتشكوفسكي . مع المخطوطات :  
كراتشكوفسكي . ا . ي . مع المخطوطات العربية . موسكو ،  
طبعة دار التقدم ، ١٩٦٣ .

١٢٥ - ميتز . الحضارة الاسلامية :

ميتز ، آدم . الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري .  
نقله إلى العربية محمد عبدالحادي أبو ريدة ، الطبعة الثانية ،  
منقحة ومهذبة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ، ١٩٤٧ .

Усама ибн Мункиза, Книга  
назидания Пер. с араб. М. А.  
Салье, М., изд. Вост. лит. 1922, 2-е  
изд. 1958

ج - إلى اللغات الأوروبية

- 130 - Ad-Dinshaki, Muhammad, Manuel de cosmographie du moyen âge  
Trad. de l'arabe. Ed. A.F. Mehren, St.-P., 1866.  
Trad. de l'arabe, par A.F. Mehren, Copenhagen, 1874.
- 131 - Derembourg H. "Souvenirs historiques et récit de chasse  
par un émir syrien du douzième siècle. Autobiographie  
d'Ousame Ibn Mounkidh. Traduction française", 1895.
- 132 - Hitti, Ph.K., An Arab-Syrian gentleman and warrior in the  
period of the Crusades. Memoirs of Usameh Ibn Munqidh (Ki-  
tab al-i'tibar). Transl., New York, 1929.
- 133 - Potter G.R., Autobiography of Ousame Ibn Mounkidh. London,  
1929.
- 134 - Schuman G., Usama Ibn Mounkidh. Memoiren eines syrischen Emirs  
aus der Zeit der Kreuzzüge, aus dem Arabischen Übersetzt.  
Innsbruck, 1905.

ب. إلى اللغة الروسية

- 126. Босворт К. Э. Мусульманские  
Династии, справочник по  
хронологии и генеалогии. Пер.  
с англ. и примеч. Грязневича П. А.  
М., "Наука", 1971.
- 127. Гиббх. А. Р. Арабская литература  
(Классический период) Пер. с  
англ. А. Б. Халидова и П. А.  
Грязневича. М., изд. Вост. лит.  
196.
- 128. Мель А. Мусульманский ренессанс  
перс. с нем., предисл., библиогр  
и указатель Д. Е. Бертельсо М.,  
изд. "Наука", 1966, 2-е изд. 1973
- 129. Усама, ал-и тибар, Русс. пер.

## تأليف - دراسات

### أ - باللغة العربية

- ١٣٥ - أمين ، أ . فجر الاسلام :  
أمين ، أحمد . فجر الاسلام . القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ١٣٦ - أمين ، أ . فارس كنانة :  
أمين ، أحمد . فارس كنانة . فيض الخاطر ، الجزء الرابع ،  
( القاهرة ) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، ( بدون تاريخ ) .
- ١٣٧ - الاشت ، ع . نصوص :  
الاشت ، عبدالكريم . نصوص مختارة من الادب العباسي ،  
دمشق ، المكتبة الحديثة ، ١٩٦٥ .
- ١٣٨ - بلشا ، ع . م . ابن نباته :  
بلشا ، ع . م . ابن نباته المصري ، أمير شعراء الشرق ،  
القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٣ .
- ١٣٩ - بلشا ، ع . م . أدب اللؤلؤ :  
بلشا ، ع . م . أدب اللؤلؤ المتنامية ، لبنان ، ( بيروت ) ،  
دار الفكر الحديث ، ١٩٦٧ .
- ١٤٠ - بدوي ، أ . الحياة الادبية :  
بدوي ، أحمد . الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية  
بمصر والشام ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٤ .

- ١٤١ - بدوي ، أ . الحياة العقلية :  
بدوي ، أحمد . الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر  
والشام ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٥ .
- ١٤٢ - البستاني ، ب . أدباء العرب :  
البستاني ، بطرس . أدباء العرب في الماهلية وصدر الاسلام  
والاعصر العباسية ، جردان ، بيروت ، مطبعة دار صادر ،  
الطبعة الثانية ، ١٩٦٢ .
- أدباء العرب ، ج ١ ، ٢ ، ٣ ، بيروت ، دار المكشوف  
والثقافة ، طبعة جديدة ومنقحة ، ١٩٦٨ .
- ١٤٣ - البستاني ، ب . الشعراء الفرسان :  
البستاني ، بطرس . الشعراء الفرسان ، بيروت ، ١٩٤٤ .
- ١٤٤ - بول كولار ، وآخرون . سورية :  
سورية ، قضايا حفظ المواقع الأثرية والاستفادة منها ، تقرير  
لجنة اليونسكو المرسلة إلى سورية سنة ١٩٥٣ ، والمؤلفة من  
السيد بول كولار رئيساً ، وسلم عبدالحق ، وأرماتنو وبللون  
عضوين ، اليونسكو ، مديرية الآثار العامة في سورية .
- ١٤٥ - بيبي ، أ . حياة صلاح الدين :  
بيبي ، أحمد . حياة صلاح الدين . القاهرة ، المطبعة الرحمانية ،  
١٣٤٥ / ١٩٢٦ - ٢٧ .
- ١٤٦ - حبش ، ح . الحرب الصليبية :  
حبش ، حسن . الحرب الصليبية الأولى . الطبعة الثانية ،  
القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٨ .

١٤٧ - حتي . ف . وآخرون ، تاريخ :

حتي ، فليب ، جرجي اموار ، جيور جبرائيل . تاريخ  
الأدب العربي ، مطول ، ٣ أجزاء ، بيروت ، ١٩٤٩ .

١٤٨ - حجازي . م . مقدمة :

حجازي ، مصطفى . مقمعة لكتاب المنازل والهدايا لأسامة بن  
منقذ ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

١٤٩ - حسن ، ا . ح . تاريخ :

حسن ، إبراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب  
ومصر وبلاد العرب ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، طبعة  
ثانية ، ١٩٥٨ .

١٥٠ - حسين ، م . أ . أسامة :

حسين ، محمد أحمد . أسامة بن منقذ ، مصر ، [ القاهرة ] ،  
١٩٤٦ .

١٥١ - حسين ، م . خ . أثر الرحلة :

حسين ، محمد الخضر ، أثر الرحلة في الحياة الأدبية ، مقاله  
في محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الثالث ،  
عام ١٩٥٤ ، صفحة ٢١٧ - ٢٣٠ .

١٥٢ - حسين ، م . ك . في أدب مصر الفاطمية :

حسين ، محمد كامل . في أدب مصر الفاطمية . طبع دار  
الفكر العربي . [ بدون تاريخ ] .

١٥٣ - الحلفي ، ج . أدباء السجون :

الحلفي ، عبدالعزيز . أدباء السجون . دار الكاتب العربي .  
[ فقط ] .

١٥٤ - حمدي ، ج . الشرق :

حمدي ، حافظ ، الشرق الإسلامي قبل الغزو النولي ، مصر ،  
( القاهرة ) ، مطبعة الاعتقاد ، ١٩٥٠ .

١٥٥ - الحوري ، خ . خرابات سورية :

الحوري ، خليل . خرابات سورية . ( خطاب تلاه على حفل  
العمدة الأدبية في بيروت ، ١٥ آذار ١٩٥٩ ) ، بيروت ،  
١٩٦٠ .

١٥٦ - رستم ، أ . :

رستم ، أسعد . باب التفرقة والافتقاد ، ( ترجمة كتاب  
الاعتبار ) ، مقالة في مجلة الكاتب ، السنة الثانية ، المجلد  
الثالث ، الجزء الثالث ، القاهرة ، يناير ، ١٩٤٧ .

١٥٧ - زكي ، أ . أسامة :

زكي ، أحمد كامل . أسامة بن منقذ . سلسلة أعلام العرب ،  
مصر ، ( القاهرة ) ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ،  
١٩٦٨ .

١٥٨ - زكي ، أ . صلاح الدين :

زكي ، أحمد كامل . صلاح الدين بين شعراء عصره ، القاهرة ،  
١٩٦٠ .

- ١٥٩ - زيدان ، ج . تاريخ آداب اللغة :  
زيدان ، جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية . ٤ أجزاء ،  
القاهرة ، دار الهلال ، طبعة جديدة ومنقحة ، راجعها وعلق  
عليها الدكتور شوقي ضيف ، ١٩١٣ .
- ١٦٠ - سلام ، م . ز . الأدب :  
سلام ، محمد زغبول . الأدب في العصر الأيوبي . مصر ،  
( القاهرة ) ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .
- ١٦١ - السيد ، ع :  
السيد ، عبدالمالك . رسائل القراء . مقالة في مجلة الكتبية ،  
مجلة الجامعة الأميركية ، بيروت ، الجزء الأول ، المجلد السادس ،  
عشر ، ١٩٢٩ .
- ١٦٢ - الشايب ، أ . تاريخ الشعر السياسي :  
الشايب ، أحمد . تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن  
الثاني ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٦٢ .
- ١٦٣ - الدهان ، س . الناصر :  
الدهان ، محمد سامي : الناصر صلاح الدين . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠ .
- ١٦٤ - ضيف ، ش . الترجمة الشخصية :  
ضيف ، شوقي . الترجمة الشخصية . بيروت ، دار المعارف ،  
١٩٥٦ .
- ١٦٥ - ضيف ، ش . التطور :  
ضيف ، شوقي . التطور والتجديد في الشعر الأموي . مطبعة  
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٢ .  
- مصر ، مطبعة دار المعارف ، ١٩٥٩ .

- ١٦٦ - الطاهر ، ع ، ج . الشعر :  
الطاهر ، علي جواد . الشعر العربي في العراق وبلاد المجمع  
في العصر السلجوقي ، جزءان ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٥٨ .
- ١٦٧ - عاشور ، س . أسواء على الحروب الصليبية :  
عاشور ، سعيد عبدالفتاح . أسواء على الحروب الصليبية .  
( القاهرة ) ، ١٩٦٤ .
- ١٦٨ - العلوي ، ع . :  
العلوي ، عبدالحيد . مؤلفات ابن الجوزي . بغداد ، شركة  
دار الجمهورية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .
- ١٦٩ - فريس التيمورية :  
فريس الخزانة التيمورية ، ١ - ٤ ، ( القاهرة ) ، مطبعة دار  
الكتب المصرية ، ١٩٤٨ - ١٩٥٠ .
- ١٧٠ - فهمي ، م . ح . الحنين :  
فهمي ، ماهر حسن . الحنين والنزعة في الشعر العربي الحديث .  
القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٧٠ .
- ١٧١ - فيصل ، ش . المجتمعات :  
فيصل ، شكري . المجتمعات الإسلامية في القرن الأول .  
بيروت ، دار العلم للطباعة ، ١٩٦٦ .
- ١٧٢ - كحالة ، ع ، ر . معجم المؤلفين :  
كحالة ، عمر رضا . معجم المؤلفين . خمسة عشر جزءاً ،  
دمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٥٧ .

١٧٣ - الكفراوي ، م . ع . الشعر بين الجود والتطور :  
الكفراوي ، محمد عبدالعزيز . الشعر العربي بين الجود والتطور .

طبعة ثانية ، مكتبة نهضة مصر بالنجيلة ، ١٩٥٨ .

١٧٤ - مجلة الجمع :  
مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٣٠ ، الجزء الخامس  
والسادس من المجلد العاشر .

- الجزء الثالث ، صفحة ٣١٧ - ٣٣٠ ، عام ١٩٥٤ .

١٧٥ - الرصافي ، ح . الكلام الثاني :  
الرصافي ، حسين . الكلام الثاني في الامة والوطن والحكومة  
والعدل والنظم والحريّة والتربية ، القاهرة ، ١٨٨٠ .

١٧٦ - المنجد ، ص . فهرس المخطوطات العربية :  
فهرس المخطوطات العربية في الامبروزيانا ، الجزء الثاني ، القسم  
الاول ، من رقم ٢٢٠ - ٤٤٠ ، وضعه الدكتور صلاح المنجد ،  
القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٧٧ - البهي ، أ . وآخرون ، فهرس الكتب العربية :  
فهرس الكتب العربية المخطوطة بالكتبخانة الخديوية  
المصرية . جمه ورتبه أحمد البهي ومحمد البيلوي ، طبعة أولى ،  
المطبعة الثانية بمصر ، ١٣٠٧ / ١٨٨٩ - ٩٠ .

١٧٨ - النعساني ، ط . أسامة :  
النعساني ، طاهر . أسامة بن منقذ ، أو شيزر وآل منقذ .  
هي المحاضرة التي القاها في ردهة الجمع العلمي العربي بدمشق  
في ١٨ تشرين ثاني ١٩٢٩ ، حماد ، طبع المكتبة الوطنية .

١٧٩ - النص ، إ . المصيبة :

النص ، إحسان . المصيبة القبلية وأثرها في الشعر الايوبي .

دار البقعة ، لبنان ، ( بيروت ) ، ١٩٦٣ .

١٨٠ - النقاش ، ز . العلاقات :

النقاش ، زكي . العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية  
بين العرب والافرنسج خلال الحروب الصليبية ، بيروت ،  
١٩٥٨ .

\* \* \*

186. Боров Ю. Б., Эльсберг Я. Е. —  
Основные проблемы в исто-  
рическом освещении — в кн.:  
"Теория Литературы", т. I, М.,  
АН СССР, 1962.
187. Виноградов В. В., Сюжет и  
стиль. М., изд. АН СССР, 1963.
188. Всемирная история в 10-ти т.  
М., Госполитиздат, 1955.
189. Заборов М. А., Крестовые походы,  
М., изд. АН СССР, 1956.
190. Забаров М. А., Введение в  
историографию крестовых  
походов. М., 1966.
191. Забаров М. А., историография  
крестовых походов (Литература)

ب باللغة الروسية

181. К. Маркс и Ф. Энгельс.  
Избранные произведения  
т. II, М., Госполитиздат, 1955.
182. В. И. Ленин Полное собрание  
сочинений. Изд. 5-е, т. III, М.,  
Госполитиздат, 1958.
183. Абрамович Г. Л., Введение в  
литературоведение. Изд. 5-е, М.,  
изд. "Просвещение", 1970.
184. Большаков О. Г. и др., Средневеко-  
вый город Средней Азии, М.,  
"Наука", 1973.
185. Богданов А. Н., Методика литера-  
туроведческого анализа. М., изд.  
"Просвещение", 1969.

- Premier siecle des croisades (1095-1188)*, par H. Derenbourg, Deuxieme partie, Paris, 1886 - 360 p. 10, т. п., СПб., 1887, С. 175-178.
197. Теория литературы, т. III, М., Л., 1962-1965.
198. Фильштинский И. М., Арабская классическая литература, М., "Наука", 1965.
199. Фильштинский И. М., Шафар Б. Я., Очерк арабо-мусульманской культуры (VII - XII вв) М., изд-во Вост. лит., 1971.
200. Френ Х. Д. Письма древних руссов. СПб., 1936 (Библиография для чтения, XIII)

- XI-XII вв), М., "Наука", 1971.
192. Каган М. С., Лекции по марксистско-ленинской эстетике. Л., ЛГУ, 1971.
193. Крачковский И. Ю., Избранные сочинения, т. I-VI, М., - Л., АН, 1955-57.
194. Крачковский И. Ю., неизвестное сочинение - автограф Сирийского эмира Усамы, ЗКВ, т. I, Л., 1923, С. 1-18.
195. Островский А. П. - Собрание сочинений. Т. XIII, М., Госполитиздат, 1952.
196. Розен В. Р. - Рец. на: *Uyama ibn al-Mu'allaq. Un emir syrien au*

- 214 - Fröhne Ch.D., Vorläufiger Bericht über eine neue bedeutende Bereicherung des orientalischen Manuscripten-Apparates der Kaiserl. Akademie der Wissenschaften - B.K.M. Dorn F. Das Asiatische Museum, c. 279-294.
- 215 - Fröhne Ch.D. Vorläufiger Bericht über eine bedeutende Bereicherung an arabischen, persischen und türkischen Handschriften, die das Asiatische Museum der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St. Petersburg in diesem Jahre erhalten hat, nebst einigen Schätzen desselben. B.K.M. Dorn B. Das Asiatische Museum, c. 201-216.
- 216 - Hitti Ph.K., History of the Arabs, third edition, revised, London, 1946.
- 217 - Lane-poole S., History of Egypt in Middle Ages. London, 1913.
- 218 - Lane-poole S., Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1893.
- 219 - Michaud J.F., Histoire des Croisades, 5 vol., Paris, 1812-1822.
- 220 - Duseme ibn Munkidh, "Le livre de Beton". Derenbourg H., Paris, 1889.
- 221 - Ringgren H., Studies in Arabian fatalism, Uppsala, 1955.
- 222 - Sehen L., Usama ibn Munqidh's memoirs: Some further light on Muslim Middle Arabic (p. 1), "Journal of Semitic Studies". Vol. XVII, N 2. Halfpenny. Manchester univ. press, 1972.
- 223 - Roberson Smith, Kinship and marriage in Early Arabia, I. London, 1903.
- 224 - /Verz. Ahlwardt/. Verzeichnis der arabischen Handschriften der Königl. Bibliothek zu Berlin. Von W. Ahlwardt, Bd. VI, Berlin, 1894.
- 225 - /ZDMG/. Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft. Bd. 69-73.
- 201 - Ameer Ali, A Short History of the Saracens, London, 1900.
- 202 - Breasted J.H. Ancient Records of Egypt, vol. II, Chicago, 1906.
- 203 - Browne E., A Literary History of Persia, /vol. I-2/, London 1902-1906.
- 204 - Brockelmann C., Geschichte der arabischen Literatur, I-III Leyden, Brill, 1937-1942.
- 205 - Barker E. The Crusades, London, Oxford Univ. Press, 1936.
- 206 - Cohen C., Indigènes et croisés, - Syria, XV, 1934.
- 207 - Cohen C., La Syrie du nord à l'époque des croisades et la principauté franque d'Antioche, Paris, 1940.
- 208 - /K. Leyden/. Catalogue codicum arabicorum bibliothecae academicae Lugduno-Batavae, auctoribus M.X. de Goeje et M.Th. Houtama, I, Lugduni Batavorum, 1888.
- 209 - Derenbourg H., "Duseme poète. Notice inédite tirée de la Khazidat al-Kazr, par Imad ad-Din al-Katib" ("Nouveaux mélanges orientaux"), Paris, 1886.
- 210 - Derenbourg H., la vie d'Usame, un emir syrien au premier siècle des Croisades, (1095-1188), Paris, 1889.
- 211 - Dorn B., Das Asiatische Museum der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St. Petersburg, St. Petersburg, 1846.
- 212 - Elisséeff N., Nur ad-Din un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades (511-569/1118-1174), vol. I-III, Damas, 1967.
- 213 - El-The Encyclopaedia of Islam. T.I.-IV, Leyden - London, 1913-1934.

تصويب

ص	س	الاصواب	ص	س	الاصواب
١٣	٣	لقيمها	١٥	٧١	١١٣٧/٥٣١
١١	١٤	بين	١٠	٧٣	بها
٦	١٥	فرقت	٥	٧٤	نزع
١٧	٢٠	شيز	١٠	٧٤	في
٢٠	٢١	سيرة	٥	٧٦	عساعة
٦	٢٣	الاسامي	١١	٧٧	امتصارت
١٢	٢٣	التريدة	١٦	٧٩	بوري
١٠	٢٤	ابنه	٥	٨٣	تبثني
١٢	٢٤	عادات	١٥	٨٣	عندما
١٤	٢٥	الجالعين	٥	٨٤	وصبت
١	٢٦	الوقشات	٧	٨٧	إلى
١٣	٢٧	نسوة	٨	٨٨	ومال
٥	٣٧	كان	١١	٨٨	اتجاهها
١١	٤٠	بازيد	٣	٩٢	بجميع
٧	٤٢	البيزنطين	٥	٩٢	نور الدين
١٢	٤٥	صبور	١٥	٩٢	وخال صلاح
١٨	٥٩	انتقاله	٧	٩٤	بحريته
١٥	٦٣	١٤ آب	٣	٩٧	بؤيد رأي
١٤	٦٤	ابن أخت	٢	١٠٠	ابنه
١٢	٦٦	فهذا	٨	١٠٠	بين
٦	٦٩	للأساد	٢	١٠٢	كانت
١٤	٧١	أبو	٤	١٠٢	تختلف [ولود]

ص	س	الاصواب	ص	س	الاصواب
٧	١٠٤	ياخذ له	١٢	١٥٤	إلى تعفيها
١	١٠٧	أخطرها	١٥	١٥٦	الكتاب عرفت
١٢	١٠٧	الزوال	١٩	١٥٩	(P) بدلا من (C)
١٠	١٠٩	لم يسؤ	٦	١٦٢	٥٧٩ بدلا من ٩٧٤
١١	١١٥	أرتاع	٢٠	١٦٧	أولسيرة
٢	١١٦	لم يعاجله	٨	١٦٩	كاري
١٠	١١٦	بشاره	٧	١٧٠	على القفاية
٨	١١٨	جديده، شديده،	٩	١٧٣	لكن حتي
٨	١٣١	أغرقهم	١٠	١٧٤	مؤكد
٩	١٣١	وكننت	١٧٧		بعد السطر العاشر سقط
٧	١٣٤	عصره			سواء مايلي :
٧	١٣٥	مجرها			(١٧). تختصر مناقب أمير
٣	١٣٨	والظعن			المؤمنين محمد بن الخطاب:
٦	١٣٨	الأمواء	٨	١٧٩	الوزراء
١٢	١٣٩	أوطالية	١٣	١٨١	بأشاره
٢	١٤٢	أ. بدوي	١٣	١٨٤	هذه الانشاعات
١٦	١٤٢	مضمته	٢	١٩٣	لأجبالهم
٢	١٤٤	في (لیدن)	٥	١٩٥	آخر السطر يوضع رقم (١)
١٦	١٤٤	GAL	٩	١٩٧	فانه
٦	١٤٥	يلايظ	١	١٩٨	لقد... المالح
٤	١٤٧	فيه	٨	١٩٩	الطيمة .
٢	١٤٨	إثراي	١٨	١٩٩	أبي دؤاد
٥	١٤٨	كرانشكوفسكي	٢	٢٠٠	ضعيف
٥	١٥٤	للغوب	١٢	٢٠١	حجراتهم

ص	س	الصفحة	ص	س	الصفحة
٢٠٢	١٠	قالسري الرقعة	٢٢٩	٢	تليو ونجبل
٢٠٢	١٥	[١٥٠٠٠٠ دينار]	٢٢٩	٨	وشبهوهم
٢٠٢	١٨	ابن القاتني	٢٣٦	٨	عيش موفق
٢٠٣	١	صباحاً... لا يتور	٢٣٧	١١	أن يسلي
٢٠٣	٦	حاشا لاطلاك	٢٣٧	١٤	في نفسه
٢٠٥	٧	ضم حلك	٢٤٣	٥	أن تلك الممن
٢٠٦	١	فان أعى	٢٤٦	١٠	نظريه
٢٠٦	٣	من مدر كانه	٢٥١	١٥	أصابها القدر
٢٠٦	٤	شوت فغن	٢٦٠	١٢	وفاه لمن
٢٠٦	٨	حتى إنه	٢٦٥	٨	أمر أربع
٢٠٦	١٠	رغم ضعفها	٢٦٧	٦	حتى أني
٢٠٧	٦	بيتي سمور	٢٧٠	١	في القلوات
٢٠٨	١٠	أنا زوزني	٢٧١	١٥	ففتها
٢٠٨	١٧	ديوان امرى القيس	٢٧٣	٦	على الامنتين
٢٠٩	٧	لا امتناع	٢٧٣	١٠	دمن تكاوت
٢١٦	٧	إثم؟	٢٨٣	٥	فتحملت
٢١٧	٧	شعراء العصر	٢٨٣	١٥	وقيل للخبير
٢١٩	١	الدار ..	٢٨٤	٧	من مكان إلى
٢١٩	٥	أبت ألام	٢٨٤	١١	تناسب... نيا به القام
٢٢١	١	ولم أر	٢٨٥	١٠	ولإنعاش
٢٢٣	١٣	ديوان الخليفة	٢٨٥	١٠	تجارب
٢٢٤	٦	في السكاه	٢٨٨	٣	فلا
٢٢٥	٦	إذا ما أدبرت	٢٨٨	١٢	إلا " وطن فالتقديم
٢٢٨	١١	قد ابتعدوا	٢٩٠	٧	أو يعيش

٤٢٤

ص	س	الصفحة	ص	س	الصفحة
٢٩٠	١٢	وعن الزائرة	٣١٢	٣	أوتقديم
٢٩٢	٣	فكأشها	٣١٢	٤	ذهبوا
٢٩٣	٦	إذا ألي	٣١٢	٦	علاوة على
٢٩٤	١٢	قد امتلك	٣١٢	١٠	الاعشى
٢٩٨	٤	أن الأرض	٣١٢	١٣	الخوارج
٣٠٠	٦	وفي طعن	٣١٣	١٢	دحان
٣٠٠	١١	قلب	٣١٤	٧	وندى... القزاز
٣٠١	١	رؤوسهم	٣١٤	١٤	التيهي
٣٠١	٩	تراحت... لا حسداً	٣١٤	١٥	عباب
٣٠٤	٦	التي تهي المني	٣١٥	٧	ويتجول الناس
٣٠٤	١٩	الحالات	٣١٥	١١	فلم يستطع
٣٠٥	١٤	الشعر المرفيع	٣١٥	١٤	(لفت) بدلاً من (تركيز)
٣٠٧	٩	وتأهل	٣١٦	٦	دارني... ويسار
٣٠٧	١٤	أو أحدهما	٣١٦	١٠	حيلة
٣٠٧	١٦	في الأصدقاء	٣١٧	٢	بضرورة الحياة
٣٠٨	٤	والأخوة	٣١٧	١٢	شكالي
٣٠٩	٥	كمدها بها	٣١٨	١	لنصبي
٣٠٩	١٦	(ربما الأقرب	٣١٨	١٢	أنا زورها
٣١١	١١	أصرم	٣١٨	١٣	بادرت... علي
٣١١	١٣	وقوية	٣١٩	١١	على الموتى
٣١١	١٥	يكيان	٣٢٣	١٠	P-46
٣١١	١٦	الشعر له ونهارين توسعة	٣٢٨	١	المصادراني
٣١١	١٧	قصائد	٣٢٨	١٠	بالروح الفاتحة
٣١٢	٢	المنى العام	٣٣٠	١٤	عن دين أهلهم

٤٢٥

## المحتوى

### الصفحة

إهداء	٣
تقديم	٤ - ٨
المدخل : سورية و فلسطين منذ نهاية القرن الحادي عشر ٩ - ١٨	
إلى نهاية القرن الثاني عشر [ XI - XII ] .	
« مميزات العصر الاجتماعي والاقتصادية والسياسية والثقافية » .	

### الجزء الأول

حياة أسامة وآثاره الأدبية	١٩ - ١٨١
---------------------------	----------

٤٨٨-٥٨٤/١٠٩٤-١١٨٨

### الفصل الأول

حياة أسامة بن منقذ .	١٩ - ١٣٢
- أسامة ونسبه .	٢٣ - ٢٤
- شيزر وبنو منقذ .	٢٥ - ٣١
- امتلاك آل منقذ لشيزر .	٣٢ - ٤٦
- أسامة بن منقذ : أيام طفولته وصباه .	٤٧ - ٦١
- حياة أسامة في شيزر .	٦٢ - ٧٧
(٤٨٨-٥٣٣/١٩٠٥-١١٣٨) .	

ص	ص	الصفحة	ص	ص	الصفحة
٣٣٢	٤	قبلي يسخر	٣٥٤	١	بيننا الله
٣٣٢	١٣	فالقليات	٣٥٤	١١	نحو الحجاز
٣٣٣	١	وتعلمت	٣٦٠	١٥	تنزف
٣٢٣	١	مولع	٣٦٤	١٠	الغضا
٣٣٥	٦	فاغترابه نفسي	٣٦٥	١٢	فقيم تنوح
٣٣٥	٧	إنه عبد	٣٦٨	٤	أرض بني
٣٣٥	١٣	والخلافه إلى	٣٦٨	١٣	أكرم من رمز
٣٣٧	٩	(الشغرى) أينا وجدت	٣٩٢	٢٣	Rabia
٣٤٢	٢٠	هذا الزمان	٣٩٤	١٨	Abu
٣٤٦	١٤	وإن ظلم	٣٩٥	٢	Diwan
٣٤٦	١٥	الساجن			
٣٥٠	٥	توقفه	٤٠١	١٣	للحكيت
٣٥١	٥	بلع	٤٠٢	١٩	يوسف
٣٥٢	٧	تعالني بالتداني	٤٠٤	١٨	كرانشكوفسكي

رابعاً - المؤلفات ذات الطابع الوعظي الارشادي ، وبعض ١٧٩-١٨١  
المؤلفات الأخرى . ( نصيحة الرعاة ، النوم  
والأحلام ، أزهار الانهار ، التجليات الربيعية  
والساعي المنجحة ) .

#### الجزء الثاني

موضوع الوطن في الشعر العربي . ١٨٢-٣٧٧

#### الفصل الأول

الوطن في الشعر العربي . ١٨٥-٣٠٥

١ - أماكن السكن . [ الخيمة ، القصور ، الوقوف  
على الاطلال ، وصف الحالة الزاهية للنازل: (تحديد  
أماكن السكن ، جبل الدثار وعدم معرفتها:النازل  
معناه ، الدثار بلا سكان فقراء خالية ، مكان عيش  
الحيوانات ، النازل صباه بكاء ، تشبيه آثار الدثار  
عوامل تهديم المنازل ، وصف الماضي ، شعور الشاعر  
وسلوكة ) ، أماكن السكن عند المذيرين ،  
عناصر جديدة في التوجه إلى موضوع المنازل  
والدثار ، ومعاملتها ، العناصر الفلسفية والوعظية ،  
أماكن السكن في شعر القرن الثاني عشر ، وبخاصة  
في شعر أسامة وأهله .

٢ - المعنى الاوسع لمكان السكن ( المعاني والربوع ) .  
[ المعاني ، الربوع ، العناصر التقليدية ، عناصر  
التجديد ] .

- أسامة في دمشق (١١٣٨/٥٣٩-٥٣٣) . ٧٨-٨٥  
- أسامة في مصر (١١٥٤-٥٤٩/٥٤٩-١١٥٤) . ٨٦-١٠٣  
- إقامة أسامة الثانية في دمشق (أسامة وتورالدين) . ١٠٣-١١٨  
(١١٦٤-٥٤٩/٥٥٩-١١٥٤) .  
- أسامة في جصن كيفا (١١٧٤-١١٦٤/٥٧٠-٥٥٩) . ١١٩-١٣٤  
- إقامة أسامة الثالثة بدمشق (أسامة وسلاح الدين) . ١٣٥-١٣٣  
(١١٨٨-١١٧٤/٥٨٤-٥٧٠) .

#### الفصل الثاني

الآثار الأدبية لأسامة  
أولاً - المؤلفات ذات الطابع الأدبي ١٣٣-١٨١  
١٣٤-١٦٤  
(غير أن أسامة) كتاب الشيخ ، كتاب الزرينين ،  
كتاب البنازل والديار ، كتاب العجا ، لب الآداب  
التأسي والتسلي ، ذيل بقيمة الدهر ، الشيب والشباب .  
ثانياً - مؤلفات تحمل طابع السيرة والطابع التاريخي . ١٦٤-١٧٦  
( الاعتبار ) كتاب أخبار أهله ، كتاب تاريخ  
أبيه ، تاريخ القلاع والحصون ، أخبار النساء ،  
أخبار البلدان في مدة عمره .  
ثالثاً - المؤلفات ذات الطابع التاريخي - البيوسغرافي ١٧٦-١٧٩  
( التعريف بالأعلام ) . ( التاريخ البشري ،  
مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، مختصر  
مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فضائل  
الخلفاء الراشدين ) .

رَفَعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

٣ - بقايا أماكن السكن : [ المعاني الثغوية ، بقايا آثار  
أماكن السكن عند أسامة ] .  
٤ - معنى الوطن والوطنية .

الفصل الثاني

٣١٩-٣٠٦ . الأهل والأخوان ( المواطنين ) .

الفصل الثالث

٣٧٧-٣٢٠ . الخلق إلى الوطن والوطنية .

( الشعراء المحبون ، الشعراء المنفيون والمهاجرون ،

الشعراء المهاجرون ) .

٣٨٤-٣٧٨ : الخاتمة :

٤٢١-٣٨٥ : فهرس المراجع والمصادر :

٤٢٦-٤٢٢ : تصويب :

٤٣٠-٤٢٧ : الخاتمة :